
مكتبة مصر
نجيب محفوظ
السكرية

السُّكَّرِيَّة





نجيب محفوظ

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

١

تقاربت الرءوس حول المجمرة وانبسطت فوق وهجها الأيدى ، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان ، ويدا عائشة المتحجرتان ، ويدا أم حنفى اللتان بدتا كغطاء السلحفاة ، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدى نعيمة . وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجاً فى أركان الصالة ، تلك الصالة التى بقيت على حالها القديم بحصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان ، الا أن الفانوس القديم بمصباحه الغــازى قد اختفى وتدلى مكانه من السقف مصباح كهربائى ، كذلك تغير المكان فقــد رجع مجلس القهوة الى الدور الأول ، بل انتقل الدور الأعلى جميعه الى هذا الدور تيسيرا للأب الذى لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالى . ثمة تغير أعمق أدرك أهل البيت أنفسهم ، فقد جف عود أمينة واشتعل رأسها شيبا ، ومع أنها لم تكد تبلغ الستين الا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر ، ولكن تغير أمينة كان لا شىء بالقياس الى ما جرى لعائشة من تدهور وانحــلال ، كان مما يدعو الى السخرية أو الرثاء أن شــعرها لم يزل مذهبا وعينيها زرقاوان ، ولكن هــذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة ، وهــذه البشرة الشــاحبة بأى مرض تنضح ؟ ، وهــذا الوجه الذى نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة فى الرابعة والثلاثين ؟ . وأما أم حنفى فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها ، لم تكد تمس لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها ، غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت فى حزنهم الصامت . نعيمة وحدها بدت فى هذه المجموعة

كالوردة المغروسة فى حوش مقبرة ، استوت شـابة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها ، مجللة الرأس بهالة ذهبية ، مزينة الوجه بعينين زرقاوين ، كعائشة فى شبابها أو أفتن ملاحة ، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال ، تعكس عيناها نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم ، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنما لا تود أن تفارقها لحظة . وقالت أم حنفى وهى تفرك يديها فوق المجمرة :

ـ سينزل البناءون عن العمارة فى هـذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل ...

فقالت نعيمة فى نغمة ساخرة :

ـ عمارة عم بيومى الشرباتلى ...

ارتفعت عينا عائشة عن المجمرة الى وجه أم حنفى لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة ، قد علموا فى حينه بهدم البيت الذى كان يوما بيت السيد محمد رضوان ثم اعادة بنائه عمارة مكونة من أربعة أدوار باسم عم بيومى الشرباتلى ، تلك الذكريات القديمة ، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم ، وأم مريم وبيومى الشرباتلى الذى استولى على البيت بالوراثة والشراء ، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال !. وعادت أم حنفى تقول :

ـ أجمل ما فيها يا ستى دكان عم بيومى الجديدة ، شربات ودندرمة وحلوى ، كلها مرايا وكهرباء ، والراديو ليل نهار . ياعينى على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وهم ينظرون من دكاكينهم البالية الى دكان زميلهم القديم وعمارته ...

فقالت أمينة وهي تشبك الشال حول منكبيها :

ـ سبحان ربك الوهاب ..

فعادت نعيمة تقول وهى تحيط عنق أمها بذراعيها :

ــ سد جدار العمارة سطحنا من هذه الناحية ، واذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نمضى الوقت فوق السطح ؟

لم يكن فى وسع أمينة أن تتجاهل سؤالا توجهه حفيدتها الجميلة مراعاة لخاطر عائشة قبل كل شىء فقالت :

ــ لا يهمك السكان ، امرحى كيف شئت . .

واسترقت النظر الى عائشة لترى وقع اجابتها اللطيفة ، اذ أنها باتت من شدة الخوف عليها وكأنما تخافها ، ولكن عائشة كانت مشغولة فى تلك اللحظة بالتطلع الى مرآة فوق نضد بين حجرة السيد وحجرتها . لم تزايلها عادة التطلع الى المرآة وان لم يعد لها معنى ، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل ، وكلما سألها صوت باطنى « أين عائشة زمان ؟ » أجابت دون اكتراث « وأين محمد وعثمان وخليل ؟ » ، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينقبض قلبها ، وسرعان ما يسرى الانقباض الى أم حنفى التى اندمجت فى الأسرة حتى ورثت عنها همومها . ونهضت نعيمة الى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهى تقول :

ــ ميعاد اذاعة الاسطوانات يا ماما . . .

واشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفسا عميقا ، وجعلت أمينة ترنو الى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المجمرة ، وانبعث من الراديو صوت يغنى « يا عشرة الماضى الجميل يا ريت تعودى » . وعادت نعيمة الى مجلسها وهى تحبك الروب حول جسمها . كانت ــ كأمها فى الزمان الخالى ــ تهوى الغناء . وهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن . لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينى الذى غلب على كافة مشاعرها ، فهى تواظب على الصلاة ، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة ، وتحلم كثيرا بعالم الغيب ، وترحب فى غبطة لا حد لها بزيارة الحسين

اذا دعتها جدتها اليها ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقلع عن حب الغناء ، فهى تغنى كلما خلت الى نفسها فى حجرتها أو فى الحمام . وكانت عائشة ترضى عن كل ما يصدر عن وحيدتها ، الأمل المضىء فى أفقها المظلم ، تعجب بتدينها كما تعجب بصوتها ، وحتى عن التصاق الفتاة بها ــ ذلك الالتصاق الذى بدا خارقا للحد ــ فهى تشجعه وتحبه ولا تطيق أن تسمع عنه أية ملاحظة ، بل هى تضيق بالنقد عامة وان هان وحسن القصد فيه . من ذلك أنه لم يكن لها من عمل فى البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين ، فاذا دعتها أمها الى المشاركة فى عمل ــ لا لحاجتها الى مساعدتها ولكن لتخلق لها ماتتسلى به عن أفكارها ــ امتعضت وقالت جملتها المشهورة « أف .. دعينى وشأنى » . ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمد للعمل يدا ، كأنما كانت تخاف عليها أقل حركة ، ولو أمكن أن تصلى نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة ، وكم من مرة حدثتها أمها فى هذا الشأن قائلة ان نعيمة أصبحت « عروسا » وينبغى لها أن تلم بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينم عن الضجر « ألا ترينها كالخيال ؟.. ان ابنتى لن تتحمل أى جهد فدعيها وشأنها ، لم يعد لى من أمل فى الدنيا سواها » . ولم تكن أمينة لتعيد القول ، كان قلبها يتقطع حزنا عليها ، وتنظر اليها فتجدها مثالا مجسما لخيبة الأمل ، وترى وجهها التعيس الذى فقد كل معنى للحياة فتذهب نفسها حسرات ، لذلك أشفقت من مضايقتها ، ولذلك اعتادت أن تتحمل ما قد ينم عنها من جفاء فى الرد أو قسوة فى الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح . لم يزل الصوت يغنى « يا عشرة الماضى الجميل » . وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغى اليه . هذا الغناء الذى كانت تحبه ، ولا زالت تحبه ، فالحزن واليأس لم يقتلا الاحساس به ، بل لعلهما قوياه فى نفسها بما يردده عادة من معانى الشجن والحسرات ، ولو أن شيئا

فى الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل ، بل انها لتتساءل أحيانا أكان هذا الماضى حقيقة لا حلما ولا خيالا ؟ ، اذن أين البيت العـــامر ؟ ، وأين الزوج الكريم ؟ ، وأين عثمان وأين محمد ؟ ، وهل لا يفصلها عن ذلك الماضى الا ثمانية أعوام ؟ . ولم تكن أمينة ترتاح الى هــذه الأغانى الا فى النادر . ان فضيلة الراديو الأولى فى نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن والأخبار ، أما الأغانى فكانت تجزع عند تلقى معانيهــا الحزينة وتشفق على ابنتها من سماعها حتى قالت مرة لأم حنفى « أليس هــذا هو النواح ؟ » . كانت لا تنى عن التفكير فى عائشـة حتى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هى من أعراض الضغط ومتاعبه ، ولم تكن تجد فرجة الا فى زيارة الحسين وغيره من الأولياء ، وشكرا للسيد الذى لم يعد يحجر عليها فتركها تنطلق الى بيوت الله كما تحب . لم تعد — هى أيضا — أمينة العهد الماضى . غيرها كثيرا الحزن والتوعك . وقد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة فىالتنسيق والتنظيف والتدبير ، ففيما عدا شئون السيد وكمال لم تكن تعنى بشىء ، عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم حنفى ، قانعة بالاشراف وحده ، وحتى الاشراف كانت تتهـاون فيه . وكانت ثقتها فى أم حنفى لا حد لها ، فليست هى بالغريبة عن الدار وأهلها ، ثم أنها شريكة العمر ورفيقة السراء والضراء ، وقد أندمجت فى الأسرة حتى صارت قطعة منها ، وتمثلت بكل قلبها مسراتها وأحزانها . وساد الصمت حينا كأنما استأثر الغنـــاء بوعيهم ، حتى قالت نعيمة :

— لمحت فى الطريق اليوم صديقتى سلمى ، كانت معى فى الابتدائية ، وستقدم العام المقبل فى امتحان البكالوريا . .

فقالت عائشة بامتعاض :

— لو سمح جدك لك بالاستمرار فى الدراسة لتفوقت عليها ، ولكنه لم يسمح ! -

وفطنت أمينة لمــا أوحت به جملة « ولكنه لم يسمح » من الاحتجاج فقالت :

— جدها له آراؤه التى لا ينزل عنها ، ترى أكنت ترحبين باستمــرارها فى التعليم رغم ما فى ذلك من تعب وهى العــزيزة الرقيقة التى لا تحتمل التعب ؟!..

فهزت عائشة رأســها دون أن تنبس . أما نعيمة فقــالت بحسرة :

— وددت لو أتممت تعليمى ، كل البنــات يتعلمــن اليوم كالصبيان ...

فقالت أم حنفى باحتقار :

— يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس ، أما الجميلة مثلك ...

فهزت أمينة رأسها موافقة ثم قالت :

— وانت متعلمة يا ست البنات ، حائزة على الابتدائية ، ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ، ولست فى حاجة الى الوظيفة ، فلندع الله أن يقويك وأن يكسو جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن ..

فقالت عائشة بحدة :

— أريد لها العافية لا السمانة ، السمانة من العيوب خاصة فى البنات ، أمها كانت زين أيامها ، ولم تكن سمينة ..

فابتسمت أمينة وقالت برقة :

— حقا أمك يا نعيمة كانت زين أيامها ..

فقالت عائشة وهى تتنهد :

— ثم صارت عبرة الأيام !

فغمغمت أم حنفى :

— ربنا يفرحك بنعمة ..

فقالت أمينة وهى تربت ظهر نعيمة بحنان :

— آمين يا رب العالمين ..

وعدن الى الصمت ، والى سماع الصوت الجديد الذى كان يغنى «أحب أشوفك كل يوم» ، واذا بباب البيت يفتح ثم يغلق فقالت أم حنفى « سيدى الكبير » وقامت مسرعة آلى الخارج لتضىء مصباح السلم . وما لبثن أن سمعن دقات عصاه المعهودة ، ثم تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعا فى أدب . ووقف قليلا ينظر اليهن خلال انفاسه المبهورة ثم قال : « مساء الخير » فرددن فى صوت واحد « يسعد مساك » ، وسبقت أمينة الى حجرته فأضاءتها ، ومضى الرجل على أثرها فى هالة من وقار الشيخوخة البيضاء . وجلس كى يسترد أنفاسه . ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء !. ظلت أناقته كما كانت فى الماضى ، فالجبة الجوخ والقفطان الشاهى والكوفية الحرير كالعهد القديم ، أما هذا الرأس المرصع بالبياض ، والشارب الفضى ، والجسم النحيل الذى خلا من سكانه ، فكانت جميعا — كعودته المبكرة — من طوارىء الزمن الجديد . ومن طوارىء هذا الزمن أيضا سلطانية اللبن الزبادى والبرتقالة اللتان اعدتا لعشائه ، فلا خمر ولا مزة ولا لحوم ولا بيض ، وان بقى بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته فى الحياة لم تفتر ولم تهن . ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد ، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلفع بالعباءة ولبس طاقيته ثم تربع على الكنبة . وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس ، ثم قدمت له أمينة قدحا مملوءا حتى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب فى القدح ست نقط ، ثم تجرعه بوجه مقطب متقزز ، ثم تمتم « الحمد لله رب العالمين » . طالما قال له الطبيب ان الدواء مؤقت أما « الرجيم » فدائم ، وطالما حذره من الاستهتار أو الاهمال ، فالضغط قد استفحل ، والقلب قد تأثر به . وأجبرته التجربة على الايمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى ، فما من مرة خرج عن حده

حتى تداركه الجزاء ، وأخيرا أذعن لحكمه ، لا يأكل ولا يشرب الا ما يسمح به ، ولا يسهر الى ما بعد التاسعة ، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل فى أن يسترد يوما ــ بقدرة قادر ــ صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة ، وان تكن حياة الماضى قد ولت الى الأبد .

وامتدت أذنه الى الغناء المترامى من الراديو فى ارتياح ، وكانت أمينة تحدثه من مجلسها فوق الشلتة عن برد اليوم والمطر الذى انهمر فى الضحى فلم يلق اليها بالا وقال فى سرور :

ــ قيل لى أنه ستذاع الليلة بعض الأغانى القديمة . .

فابتسمت المرأة فى ترحيب اذ كانت تحب هذا اللون من الغناء ، ربما متابعة لحب السيد له أكثر من أى شىء آخر . ولبث السرور متألقا فى عينى الرجل لحظات حتى أدركه فتور . لم يعد يستطيع أن ينعم بشعور سار دون تحفظ ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتطما بالواقع . الواقع يحدق به من جميع النواحى . أما الماضى فحلم ، فيم السرور وقد ولت الى الأبد أيام الأنس والطرب والعافية ؟ ، وانطوى اللذيذ من المأكل والمشرب والهناء ؟ ، وأين مسيره فى الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق ؟ ، وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشتى المسرات ؟ ، اليوم يقضى عليه بأن يعود من سهرته فى التاسعة كى ينام فى العاشرة والأكل والشرب والمشى بحساب دقيق مسجل فى دفتر الطبيب ، وهذا البيت الذى غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه ، وعائشة التعيسة شوكة فى جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيهات أن يطمئن على حالها ، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم ؟ ، وما يعانيه من قلق على صحته هو المهددة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه ، هذه الأفكار التى تحوم حوله كالذباب

فيستعيذ الله من شرها ، أجل ينبغى أن يسمع الأغانى القديمة ولو لينام على الأنغام ..

ــ اتركى الراديو مفتوحا حتى لو نمت ..

فهزت رأسها بالايجاب باسمة ، فعاد يقول متنهدا :

ــ ما أشق السلم على !.

ــ استرح يا سيدى عند كل بسطة ..

ــ لكن جو السلم شديد الرطوبة ، ما ألعن هــذا الشتاء .. (ثم متسائلا) .. أراهن على أنك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد ..

فقالت فى حياء وارتباك :

ــ فى سبيل زيارته يهون كل صعب يا سيدى ..

ــ الحق على وحدى !.

فقالت فى استرضاء :

ــ انى أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصحة والعافية ..

ما أمس حاجته الى صادق الدعاء ، فكل طيب يدبر عنه ، حتى الدش البارد الذى اعتاد أن ينعش به جسده كل صباح حرم عليه لخطورته ـ فيما قيل ــ على حال شرايينه ، واذا صار كل طيب ضارا فليرحمنا الله . ومضى وقت قصــير ثم ترامت الى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة « كمال » . ولم تكد تمر دقائق حتى دخل كمال الحجرة فى معطفه الأسود الذى نم على نحافته وطوله ، يتطلع الى أبيه خلال نظارته الذهبية ، وقد أضفى عليه شاربه المربع الغزير الأســود وقارا ورجولة . انحنى على يد والده مسلما فدعاه الى الجلوس وهو يسأله كالعادة باسما :

ــ أين كنت يا أستاذ ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة التى لم يحظ بها الا بعد عمر طويل ، فأجاب وهو يجلس على الكنبة :

ـ كنت فى القهوة مع بعض الأصحاب .

ترى أى نوع من الأصحاب ؟ ، يبدو أنه يبدو جادا رزينا وقورا أكثر من سنه ، ثم ان أكثر لياليه تقضى فى مكتبته ، شتان ما بينه وبين ياسين ، وان كان لكل آفته . وعاد يسأله باسما :

ـ أشهدت اليوم المؤتمر الوفدى ؟

ـ نعم ، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس ، كان يوما مشهودا .

ـ قيل لنا انه كان حدثا عظيما ولكنى لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة الى أحد الأصدقاء ، لم تعد الصحة تحتمل التعب ..

فداخل كمال العطف وتمتم :

ـ ربنا يقويك .. .

ـ ألم تقع حوادث ؟

ـ كلا مر اليوم بسلام ، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة ..

فهز الرجل رأسه فى ارتياح ، ثم قال فى لهجة ذات معنى :

ـ نعود الى موضوعنا القديم ، ألا زلت عند رأيك الخاطىء عن الدروس الخصوصية ؟ !

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلما وجد نفسه مضطرا الى اعلان مخالفته لرأى والده ، فقال برقة :

ـ لقد انتهينا من هذا الموضوع !

ـ فى كل يوم يطلب الى أصدقاء أن تعطى دروسا خصوصية لأبنائهم ، لا ترفض الرزق الحلال ، ان الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرسين ، والذين يطلبونك من أعيان الحى ..

فلم ينبس كمال بكلمة وان نطق وجهه بالرفض المؤدب ، فعاد الرجل يقول متأسفا :

ــ تأبى هذا كى تضيع وقتك فى قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر ، أيصح هذا من عاقل مثلك ؟

وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة :

ــ ينبغى أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجهة الخطاب الى السيد وهى تبسم فى خيلاء) انه كجده لا يعدل بحب العلم شيئا ..

فقال السيد متأففا :

ــ رجعنا الى جده ! . يعنى كان الامام محمد عبده ؟ !

ومع أنها لم تعرف شيئا عن الامام الا أنها قالت بحماس :

ــ لم لا يا سيدى ؟ ! . كان كل الجيران يقصدونه فى شئون دينهم ودنياهم !

فغلبت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكا :

ــ مثله الآن كل عشرة بقرش !

واحتج وجه المرأة دون لسانها . وابتسم كمال بعطف وارتباك ، واستأذن فى الانصراف ثم غادر الحجرة . وفى الصالة اعترضت نعيمة سبيله لتريه فستانها الجديد ، وذهبت لتجىء به ، فجلس الى جانب عائشة ينتظر . كان ــ كبقية أهل البيت ــ يجامل عائشة فى شخص نعيمة ، ولكنه الى هذا كان معجبا بالفتاة الحسناء اعجابه بأمها قديما . وجاءت نعيمة بالفستان فبسطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدى الاعجاب ، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحب ، مأخوذا بجمالها البديع الهادىء الذى اكتسى من صفائها ورقتها نورانية ذات بهاء . ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن . ان مصاحبة أسرة حتى شيخوختها لما يحزن . ليس مما يهون أن يرى أباه فى وهنه بعد سطوة وجبروت ،

أو يرى ذبول أمه وتواريها وراء الكبر ، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها ، هذا الجو المشحون ينذر التعاسة والنهاية . ورقى فى السلم الى الدور الأعلى ـ شقته كما يسميه ـ حيث يعيش منفردا بين حجرة نومه ومكتبته المطلتين على بين القصرين . وخلع ملابسه ومضى مرتديا جلبابه متلفعا بالروب الى المكتبه ، وكانت مكونة من مكتب كبير فيما يلى المشربية وصفين من خزانات الكتب على جانبيهـا . وكان يريد أن يقرأ فصـلا على الأقل فى كتاب « منبعا الدين والأخلاق » لبرجسون ، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهرى لمجلة « الفكر » الذى اتفق أن كان عن البراجمتزم. هذه السويعات الموهوبة للفلسفة ، التى تمتد حتى منتصف الليل ، هى أسعد أوقات يومه ، وهى التى يشعر فيها ـ على حد تعبيره ـ بأنه انسان . أما بقية اليوم الذى ينقضى فى عمله كمدرس بمدرسة السلحدار الابتدائية أو فى اشباع شتى مطالب الحياة الضرورية ، فمداره الحيوان الكامن فيه ، المستهدف أبدا تأمين ذاته وتحقيق شهواته . ولم يكن يحب عمله الرسمى ولا يحترمه ، ولكنه لم يعلن سخطه ، خاصة فى بيته ، أن يشمت به الشامتون . ومع ذلك فقد كان مدرسا ممتازا حائزا للتقدير ، وكان الناظر يعهد اليه ببعض النشاط المدرسى ، حتى رمى نفسه متفكها بالعبودية ، أليس العبد هو الذى يتقن العمل الذى لا يحبه ؟!. والحق أن ولعه بالتفوق الذى اعتاده منذ الصغر هو الذى دفعـه الى الاجتهاد والامتياز دفعا لا هوادة فيه . وقد صمم من بادىء الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرسين فكان له ما أراد ، بل كان شخصـية محترمة ومحبوبة معا ، رغم رأسـه وأنفه العظيمين . ولا شـك أنه كان لهما ـ رأسـه وأنفه ـ أو كان لاحساسه الأليم بهما الفضل الأول فى هذا التصميم القوى الذى خلق منه هذه الشخصية المهابة . كان يعلم بأن رأسـه وأنفه

سيثيران من حوله الفتن. فاستل عزمه ليرد عنهما وعنه كيد العابثين . أجل لم ينج أحيانا من غمز وتعريض فى أثناء الدرس أو فى ملعب المدرسة ، فكان يلقى الهجوم بحزم شديد ، ثم يلطفه بعطفه المطبوع ، الى ما أثر عنه من مقدرة فى الشرح والتفهيم ، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمس القومية أو ذكريات الثورة ، كل أولئك جعله يستميل اليه « الرأى العام » بين التلاميذ ، وكان ذلك ـ الى حزمه المتوثب عند الضرورة ـ كفيلا بالقضاء على الفتن فى مهدها ! . ولشد ما آلمه اول الأمر الغمز الجارح ، ولشد ما استثار المنسى من أحزانه ، بيد أنه سر آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التى بات يحتلها فى نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون اليه باعجاب وحب واجلال . وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية فى مجلة « الفكر » ، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانا العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية « المدرس » ولكن من حسن الحظ أن أحدا من المسئولين لم يكن بين قراء « الفكر » ، ثم تبين له بعد ذلك أن المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها الى البلاد العربية ، فشجعه ذلك على الكتابة اليها وهو آمن على نفسه ووظيفته . فى هذه السويعات القلائل ينقلب « مدرس اللغة الانجليزية بالسلحدار الابتدائية » سائحا حرا يجوب أجواء لا تحد من الفكر ، فيقرأ ويتأمل ويدون الملاحظات التى يجمعها بعد ذلك فى مقالاته الشهرية، تحثه على جهاده الرغبة فى المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين الى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذى يغشاه والشعور بالوحدة الذى يستكن فى أعماقه . قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا ، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة فى الانتصار على الرغبة مع شوبنهور ، أو يهون من احساسه

بتعاسة عائشة بجرعة من فلســفة ليبنتز فى تفســير الشر ، أو يروي قلبه المتعطش الى الحب من شاعرية برجسون ، بيد أن جهاده المتواصل لم يجــد فى تقليم مخالب الحيرة التى تبلغ حد العذاب ، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمى دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول واثارة للشــك والغــيرة مع اغراء عنيف بالتملك والوصال ، وهى كالمعشوق الآدمى عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلبات ، ولا تخلو فى كثير من الأحايين من مكر وخداع وقسوة وكبرياء ، وكان اذا ركبته الحيرة وأعياه الجهد يقول متعزيا « قد أكون معذبا حقا ولكننى حى ، انسان حى ، ولن تكون حياة الانســان الخليقة بهذا الاسم بلا ثمن ! » .

٢

مراجعة الدفاتر وضبط الحسابات وتسوية ميزانية اليوم السابق ، كل ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤديه على خير الوجوه وبالدقة المعهودة فيه من قديم غير أنه يؤديه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر والمرض . وكان منظره وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة ، وشــاربه الفضى يكاد يختفى تحت أنفه الكبير الذى زاده ضــمور الوجه ضخامة ، كان ذلك المنظر مما يستحق العطف . غير أن منظر وكيله ومساعده جميل الحمزاوى الذى كان يهدف الى السبعين كان مما يستحق الرثاء . ولم يكن يفرغ من زبون حتى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد يقول لنفسه فى شىء من الامتعاض « لو كنا موظفين لأغنانا المعاش فى مثل سننا من الكد والعمل ! » . ورفع السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول :

— لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالأزمة الاقتصادية ..

فارتسم الامتعاض على شفتى الحمزاوى الباهتتين وقال :

— بدون شك ، غير أن هذا العام خير من العام السابق ، والعام السابق خير من الذى قبله ، الحمد لله على أى حال ..

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام ، تلك الفترة التى كان التجار من أصحابه يسمونها أيام الرعب ، حين استبد اسماعيل صدقى بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية ، وكانوا يصبحون ويمسون على أخبار الافلاس والتصفيات ، ويقلبون الأكف وهم يتساءلون عما يخبىء لهم الغد ، وقد كان من المحظوظين بغير شك لأن ضيقته لم تبلغ به الافلاس الذى تهدده عاما بعد عام .

— أجل ، الحمد لله على أى حال ..

ووجد جميل الحمزاوى يرنو اليه بنظرة غريبة ، فيها تردد وحرج ، ماذا عنده يا ترى ؟ . وقام الرجل فقرب مقعده من المكتب ثم جلس وهو يبتسم فى ارتباك . وكان البرد قاسيا رغم سطوع الشمس ، وكان للهواء حملات قوية ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير . قال السيد وهو يعتدل فى جلسته :

— هات ما عندك ، انى موقن بأنك ستقول شيئا هاما .

فخفض الحمزاوى عينيه وقال :

— موقفى لا أحسد عليه ، ولا أدرى كيف أتكلم ..

فقال السيد مشجعا :

— ولكنى عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلى فتستطيع أن تفضى الى بكل ما فى نفسك ...

— العشرة هى التى تصعب على يا سى السيد ..

العشرة ؟ ! . لم يخطر له هذا على بال ..

— أتريد ؟ .. حقا !

قال الحمزاوى بحزن :

ـ آن لى أن أعتزل ، الله لا يكلف نفسا الا وسعها ..

وانقبض قلب السيد ، فاعتزال الحمزاوى للعمل ليس الا نذيرا له بالاعتزال ، كيف ينهض بأعباء العمل فى دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر ؟ . ونظر الى وكيله فى حيرة فعاد الرجل يقول متأثرا :

ـ انى آسف جدا ، ولكنى لم اعد أطيق العمل ، ولى ذلك الزمان ، غير انى دبرت الأمر فلن أتركك وحدك ، سيملأ مكانى من هو أقدر منى ...

ان ثقته فى امانة الحمزاوى قد رفعت عن كاهله نصف متاعبه ، فكيف يعود ابن الثالثة والستين الى ملازمة الدكان من طلعة الشمس الى مغيبها ؟ . قال :

ـ ولكن اعتزال العمل والقبوع فى البيت يسرعان بالانسان الى التدهور ، الا ترى هذا فى أصحاب المعاشات من الموظفين ؟

فقال جميل الحمزاوى باسما :

ـ التدهور موجود قبل الاعتزال .

وضحك السيد فجأة كأنما ليدارى الحرج الذى شعر به مقدما قبل أن يقول له :

ـ يا عجوز يا مكار ، أنت تهجرنى تلبية لالحاح ابنك فؤاد ..

فهتف الحمزاوى متأثرا :

ـ معاذ الله ، ان حالتى الصحية لا تخفى على أحد ، وهى السبب الأول والأخير ..

من يدرى ؟ . فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء أبيه عاملا بسيطا فى دكان ولو كان صاحب الدكان هو الذى مهد له السبيل ليتبوأ مركزه فى النيابة . ولكنه شعر بأن تصريحه قد آلم وكيله الطيب فتراجع متسائلا فى لطف :

ـ متى ينقل فؤاد الى القاهرة ؟

ـ فى صيف هذا العام أو فى صيف العام القادم على الأكثر ..

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتى قال الحمزاوى مجاريا السيد فى لطفه :

ـ واذا أقام معى فى القاهرة وجب التفكير فى تزويجه ، أليس كذلك يا سى السيد ؟ . انه ابنى الوحيد على سبع بنات ، ولا بد من تزويجه ، وكلما فكرت فى ذلك جرت فى خاطرى الآنسة المهذبة حفيدتك ...

واسترق الى وجه السيد نظرة استطلاع ثم تمتم :

ـ لسنا قد المقام طبعا ..

فلم يسع السيد الا أن يقول :

ـ أستغفر الله يا عم جميل ، نحن أخوان من قديم الزمن ..

ترى أحرضه فؤاد على جس النبض ؟ . وكيل نيابة شىء عظيم والعبرة فى الأصل بالطيبة ، ولكن أهذا وقت التحدث فى الزواج ؟

ـ حدثنى أولا أأنت مصمم على اعتزال العمل ؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول :

ـ يا ألف صباح الخير ...

فابتسم السيد بدافع المجاملة رغم استيائه لانقطاعه عن الموضوع الذى يهمه ، وقال :

ـ أهلا وسهلا .. (ثم وهو يشير الى المقعد الذى أخلاه الحمزاوى) تفضلى ..

جلست زبيدة بجسم قد ترهل ، ووجه قد تقنع بالأصباغ ، أما الحلى فلم يعد لها من أثر فى عنقها أو أذنيها أو ساعديها ، ولا للجمال القديم مكان . وجعل السيد يرحب بها كعادته مع كل زائر لا أكثر ، أما قلبه فلم يرتح للزيارة ، فما من مرة تجيئه الا وترهقه بالمطالب . سألها عن الصحة فأجابت وهى لا تعنى شيئا

« الحمد لله » وقال لها بعد هنيهة صمت .. أهلا .. أهــلا ، فابتسمت شــاكرة ولكن بدا أنها استشــعرت الفتور الكامن فى مجاملاته . وضحكت متجاهلة الجو الذى يكتنفها ، وكانت الأيام قد علمتها البرود ، ثم قالت :

ـــ لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول ، ولكنك أنبل من عرفت فى حياتى ، فاما أن تمدنى بســلفة أخرى ، واما أن تجد لبيتى شاريا ، ويا حبذا لو تكون أنت الشارى !

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا :

ـــ أنا ؟ ! . ياليت ، الزمن غــير الزمن يا ســلطانة ، طالمــا صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدقين يا سلطانة ..

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت :

ـــ السلطانة مفلسة ، فما العمل ؟

ـــ فى المرة الســابقة أعطيتك ما قدرت عليــه ، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك ..

فتساءلت فى قلق :

ـــ ألا يمكن أن تجد لبيتى شاريا ؟

ـــ سأبحث لك عن شار ، أعدك بذلك .

فقالت ممتنة :

ـــ هذا ما ينتظر منك يا سيد الكرماء (ثم بلهجة حزينــة) ليست الدنيا وحدها التى تغيرت ولكن الناس تغيروا أكثر ، سامح الله الناس ، فى أيام العز كانوا يستبقون الى تقبيل حذائى ، والآن اذا لمحونى فى جانب من الطريق مالوا الى الجانب الآخر .

لا بد أن يتنكر للانسان شىء ، بل أشياء ، الصحة أو الشباب أو الناس ، أما أيام العز ، أيام الأنغام والحب فأين هى ؟ !

ـــ ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطانة لم تعملى للأيام حسابها .

فتنهدت آسفة وهى تقول :

ـــ نعم ، لست كأختك جليلة التى تتاجر بالأعراض وتقتنى المال والبيوت ، وفضلا عن ذلك فقد ابتلانى الله بأولاد الحرام حتى بلغ الفجر بحسن عنبر أنه كان يبيعنى شمة الكوكايين ـــ عندما ندر فى الأسواق ـــ بجنيه !

ـــ لعنه الله .

ـــ حسن عنبر ؟ .. ألف لعنة !

ـــ بل الكوكايين .

ـــ والله الكوكايين أرحم من الانسان .

ـــ لا .. لا ، من المحزن حقا انك وقعت فى شره .

فقالت بتسليم وقنوط :

ـــ هد حيلى وضيع مالى ، ما علينا ، متى تجد لى شاريا ؟

ـــ ان شاء الله عند أول فرصة .

فقالت فى عتاب وهى تنهض :

ـــ اسمع ، اذا زرتك فى المرة القادمة فابتسم من قلبك ، كل اساءة تهون الا التى تجيئنى من ناحيتك ، أنا عارفة انى أضايقك بمطالبى ولكنى فى ضيق لا يعلم به الا الله ، وانت أنبل النـاس فى نظرى ..

فقال معتذرا :

ـــ لا تتوهمى ما ليس فى ، الأمر انى كنت مشـغولا بمسألة هامة عند قدومك ، وهموم التجار لا تنتهى كما تعلمين !

ـــ رفع الله عنك الهموم .

فحنى رأسه شاكرا وهو يوصلها ، ثم ودعها قائلا :

ـــ أهلا بك من القلب فى كل حين ..

ولمح فى عينيها نظرة خابية تفيض غما فرق لها ، وعاد الى مجلسـه منقبض الصدر فالتفت الى جميـل الحمزاوى وقال :

ـ دنيا ..

ـ كفاك الله شرها وأطعمك خيرها .

غير أن نبرات الحمزاوى قست وهو يستدرك قائلا :

ـ ولكنها عاقبة عادلة لامرأة مستهترة !

فهز أحمد عبد الجواد رأسه هزة مقتضبة سريعة كأنما يعلن بها احتجاجا صامتا على قسوة هذه الموعظة ، ثم سأله بصوت رجع به الى النغمة التى قطعها مجىء زبيدة :

ـ ألا تزال مصمما على رأيك فى هجرنا ؟

فقال الرجل فى حرج :

ـ ليس هجرا ولكنه تقاعد وأنا آسف من كل قلبى .

ـ كلام كالذى داريت به زبيدة منذ دقيقة !

ـ أستغفر الله ، انى أتكلم من قلبى ، ألا ترى يا سيدى أن الكبر يكاد يعجزنى ؟

ثم دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوى اليه ، واذا بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلا فى لهجة الغزل :

ـ من هذا الذى يجلس وراء المكتب كالقمر ؟ !

بدا الشيخ متولى عبد الصمد فى جلباب خشن رث لا لون له ، ومركوب متفزز ، معصوب الرأس بتلفيعة من وبر ، مستند القامة على عكاز ، وكان يرمش بعينيه الحمراوين مسددا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن أنه يسدده نحوه ، فابتسم السيد رغم همه قائلا :

ـ تعال يا شيخ متولى ، كيف حالك ؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يهتف :

ـ يا ضغط زل ، يا صحة عودى الى سيد الناس ..

وقام السيد فاتجه نحوه فاعتدل بصر الشيخ اليه ولكنه تراجع فى الوقت نفسه كالهارب ، ثم جعل يدور حول نفسه ،

مشيرا الى الجهات الأربع وهو يصيح « من هنا تفرج ... ومن هنا تفرج ... ومن هنا تفرج .. ومن هنا تفرج .. » . ثم تحول الى الطريق قائلا :

ــ ليس اليوم ، غداً ، أو بعد غد ، قل الله أعلم ..

ومشى فى خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالى ..

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع الى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد ، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه . ولم تعد أمينة « بطلة » يوم الجمعة كما كانت قديما ، فأم حنفى تبوأت المركز الأول فى المطبخ ، ولم تكن أمينة تنى عن تذكير القوم بأن أم حنفى تلميذتها فان غرامها بالثناء كان يتشجع على الافصاح عن ذاته كلما شعرت بقلة استحقاقها له ، الى أن خديجة ــ رغم أنها فى حكم الضيفة ــ لم تقصر فى اهداء معونتها . وقبيل ذهاب السيد الى الدكان التف به الضيوف ، أبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد ، وياسين وابناه رضوان وكريمة ، يكتنفهم ذلك الخشوع الذى يجعل من ضحكهم ابتساما ومن حديثهم همسا . وكان السيد يجد فى حضورهم سرورا يزداد تعلقا يه كلما تقدم به العمر ، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته فى الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة ، الا يريد هذا البغل أن يفهم أنه يتوق الى رؤيته كل حين ؟ . وابنه رضوان جميل المحيا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذى يعكس جماله ألوانا متنوعة تذكره مرة بياسين ومرة بهنية أم ياسين وثالثة بصديقه الحبيب محمد عفت فهذا أحب الأحفاد الى قلبه ، وكريمة أخته مصغر شابة

فى الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجا عجيبا كما تشهد عيناها السوداوان ــ عينا زنوبة أمها ــ اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات . أما عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى فى وجهيهما قدرا لا يستهان به من أنفــه العظيم كما يرى عينى خديجة الصغيرتين الجميلتين ، غير أنهما أجرأ من الآخرين فى مخاطبته، وكلهم ــ هؤلاء الأحفاد ــ يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو الى الفخار ، لكنهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدهم ، فمن جهة يعزونه بأن حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكرونه بأن شخصه يتراجع رويدا عن مركز الاهتمام الذى كان يستأثر به ، ولم يكن ذلك ليحزنه ، فان الايغال بالعمر يجىء بالحكمة كما يجىء بالوهن والمرض . ولكن هيهــات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفق ، عندما كان مثل هؤلاء فى مطلع العمر ، وعندما كان العام ١٨٩٠ ، وكان يتعلم قليلا ويلهو كثيرا ما بين مغانى الجمالية ومرتاد الأزبكية ، وفى ركابه يجرى محمد عفت وعلى عبد الرحيم وابراهيم الفار ، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيده قليلا ، ويرق له كثيرا ، وكان العمر صفحة مطوية مكتظة بالآمال ، ثم كانت هنية . . ولكن مهلا ! لا ينبغى أن تستخفه الذكريات .

وقام ليصــلى العصر فكان ذلك ايذانا لهم بالانصراف ، ثم ارتدى ملابسه ومضى الى الدكان ، وتجمعوا هم فى مجلس القهوة حول مجمرة الجدة ، فى جو التلاقى والســمر . احتلت الكنبة الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة ، أما الكنبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكريمة ، وعلى الكنبة اليسرى قعد ابراهيم شوكت وخديجة وكمال ، على حين اتخذ رضــوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسى توسطت الصالة تحت المصباح الكهربائى . وكان ابراهيم شوكت كعادته التى لم يغيرها الزمن ينوه بألوان الطعام التى أعجبته ، غير أن تنويهه اقتصر فى الأعوام الأخيرة على

فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة . وكانت زنوبة تعيد ثناءه كالصدى فانها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودد بها الى أحد من أهل زوجها . والحق أنها مذ فتحت لها أبواب آل زوجها وأتيحت لها مخالطتهم وهى تعمل بلباقة فائقة على توثيق علاقتها بهم ، لأنها عدت ذلك اعترافا بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهى تعيش فى عزلة كالمنبوذة . وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقى فى زيارة أهله لبيته للتعزية ، فصافحت يدها أيديهم لأول مرة منذ زواجها ، وتشجعت بذلك فزارت السكرية ، ثم زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيد ، بل أقدمت على زيارته فى حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركا بينهما . هكذا اندمجت زنوبة فى آل أحمد حتى غدت تخاطب أمينة فتقول لها يا تيزة وتنادى خديجة فتقول لها يا أختى ، وبدت دائما مثالا للاحتشام ، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهن تجنبت التبرج خارج بيتها ، حتى بدت أكبر من سنها ، اذ بادر الذبول جمالها قبل الأوان ، فلم تصدق خديجة أبدا أنها فى السادسة والثلاثين ، ولكنها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتى قالت عنها أمينة يوما « لا شك أن أصلها طيب ، ربما أصلها البعيد ، فليكن ، ولكنها بنت حلال ، هى الوحيدة التى عمرت مع ياسين ! » . وبدت خديجة فى شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه ، ولم تكن تنكر أنها سعيدة بذلك ، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفقة عامة ، بيد أنها لم تكف يوما عن التشكى اتقاء العين . وقد تغيرت معاملتها لعائشة تغيرا كليا فلم تند عنها لها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنم عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل الممازحة ، بل حرصت الحرص كله على الترفق بها والتودد اليها وملاطفتها ، خشوعا حيال تعاستها وخوفا من الأقدار التى قضت عليها بما قضت ، واشفاقا من أن تضع المرأة المحزونة

حظيهما موضع المقارنة ، وقد وقفت موقفا كريما يوم حتمت على ابراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع فى ميراث أخيه المتوفى لنعيمة فآل الميراث كله لعائشـــة وكريمتها دون شريك . وأملت خديجة أن يذكر صنيعها فى حينه ولكن عائشة استغرقها ذهول غيب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت أما أخرى لها ، ولم تكن تطمع فى أكثر من رضائها ومودتها كى تطمئن على أسباب التوفيق التى هيأها لها الله . وأخرج ابراهيم شوكت علبة سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة ، وتناول أخرى ، وراحا يدخنان. كثيرا ما يكون افراط عائشة فى التدخين وتعاطى القهوة ملتقى ملاحظات وان تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين ، أما أمها فتقنع بأن تقول فى لهجة الدعاء « ربنا يصبرها » وأما ياسين فكان أجرأ الأهل فى نصحها كأنما قد أهله لذاك فقد وليده ، غير أن عائشة لم تكن تعده مصابا مثلها وتضن عليه بمكانة مرموقة فى دولة المبتلين اذ أن ابنه مات وهو دون العام لا كعثمان أو محمد ، والواقع أن حديث المصائب كان يبدو كثيرا هوايتها المفضلة ، كأنما كانت تعتز بدرجتها الممتازة فى دنيا الشقاء . واستمع كمال الى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضـــوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع باسما ، وكان رضوان ياسين يقول :

ـــ كلنا من القسم الأدبى ، فليس أمامنـــا من كلية جديرة بالاختيار الا الحقوق .

فأجابه عبد المنعم ابراهيم شوكت بصوته القوى المفعم بنبرات التوكيد ، وكان يهز رأســـه الضخم الذى جعـــله أقرب الشبان شبها الى كمال :

ـــ مفهوم .. مفهوم ، ولكنه لا يريد أن يفهم !.

وأومأ عند عبارته الأخيرة الى أخيه أحمد الذى ارتسمت على

شفتيه ابتسامة ساخرة ، فانتهز ابراهيم شوكت الفرصة وقال مشيرا الى أحمد أيضا :

ــ ليدخل الآداب اذا شاء ولكن عليه أن يقنعنى بقيمتها ، أنا أفهم الحقوق ولكننى لا أفهم الآداب !

وغض كمال بصره فيما يشبه الأسى ، اذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين . أنه لا زال يتنفس فى جو الآمال القديمة ، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم ، فوكيل النيابة مثلا لا يحتاج الى تعريف أما كاتب مقالات مجلة « الفكر » فربما احتاج الى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها !. ولم يدعه أحمد ابراهيم شوكت لحيرته فنظر اليه بعينيه الصغيرتين البارزتين وهو يقول :

ــ انى أترك الجواب لخالى كمال . .

وابتسم ابراهيم شوكت ابتسامة يدارى بها حرجه ، أما كمال فقال دون حماس :

ــ ادرس ما تشعر بأنه يوافق موهبتك .

وبدا الظفر فى وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول :

ــ ولكن ينبغى أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب . سيكون مستقبلك اذا اخترت الآداب فى التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها . .

ــ بل سأتجه الى العمل فى الصحافة .

ــ الصحافة !. . (صاح ابراهيم شوكت) . . انه لا يدرى ماذا يقول :

فقال أحمد بحدة مخاطبا كمال :

ــ ان قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شىء واحد فى أسرتنا !

فقال رضوان ياسين باسما :

— ان أكبر قادة الفكر فى وطننا من الحقوق ..

فقال أحمد فى كبرياء :

— ان الفكر الذى أعنيه شىء آخر !

فقال عبد المنعم شوكت عابسا :

— وهو شىء نحيف هدام ، انى أعلم واأسفاه بما تعنى ..

وعاد ابراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر الى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول :

— فكر قبل أن تقدم ، انك لا زلت فى السنة الرابعة ، لن يعدو ميراثك المائة جنيه فى العام ، وان بعض أصحابى يشكون مر الشكوى من أن أبناءهم الجامعيين لا يجدون عملا ، أو يعملون كتبة بمرتبات تافهة ، وأنت حر بعد ذلك فيما تختار ..

وتدخل ياسين فى المناقشة بأن اقترح قائلا :

— لنسمع رأى خديجة ، انها المدرسة الأولى لأحمد ، وهى اقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب ..

وامتلأت الثغور بالابتسام ، حتى أمينة ابتسمت وهى عاكفة على كنجة القهوة ، بل حتى عائشة ابتسمت ، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت :

— سأقص عليكم قصة طريفة ، أمس بعد العصر بقليل — والدنيا تظلم بسرعة فى الشتاء كما تعرفون — كنت راجعة من الدرب الأحمر الى السكرية ، فشعرت كأن رجلا يتبعنى ، واذا به يمر بى تحت قبة المتولى وهو يقول « على فين يا جميل » : فالتفت نحوه قائلة : « على البيت يا سى يا سين ! » .

وضجت الصالة بالضحك . ونظرت اليه زنوبة نظرة ذات معنى ، تجلى فيها الانتقاد واليأس ، أما ياسين فجعل يشير للضاحكين بيده حتى عاد السكون ، ثم تساءل :

— أمن المعقول أن يصيبنى العمى الى هذا الحد ؟

فحذره ابراهيم شوكت قائلا :

ــ حاسب !.

أما كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنها رغم كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصة عمتها . وقالت زنوبة تعليقا على الحال :

ــ شر الأمور ما يضحك .

وحدج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول « حفرت لى حفرة يا بنت الايه » فقالت خديجة :

ــ اذا كان أحد فى الموجودين فى حاجة الى الآداب فهو أنت لا احمد ابنى المجنون !.

وصدقت زنوبة على قولها ، أما رضوان فدافع عن أبيه ودعاه بالبرىء المظلوم ، وظل احمد ينظر الى كمال متعلقا به كالأمل ، أما عبد المنعم فكان يسترق النظر الى نعيمة التى تبدت لصق أمها كالوردة البيضاء ، وكانت كلما شعرت بعينيه الصغيرتين تورد وجهها الشاحب الرقيق ، حتى عاد ابراهيم شوكت يقول مغيرا مجرى الحديث مخاطبا احمد :

ــ انظر الى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوى وكيل نيابة قد الدنيا ..

شعر كمال كأن هذا القول انتقاد مر موجه الى شخصه ، أما عائشة فقالت لأول مرة :

ــ انه يريد أن يخطب نعمة .

وفى فترة الصمت التى استقبل بها الخبر قالت أمينة :

ــ ابوه فاتح جدها أمس ..

وتساءل ياسين جادا :

ــ وهل وافق أبى ؟.

ــ هذا سابق لأوانه .

فتساءل ابراهيم شوكت بحذر وهو ينظر الى عائشة :

ـ وما رأى عائشة هانم ؟

فقالت عائشة دون أن تنظر الى أحد :

ـ لا أدرى ..

فقالت خديجة وهى تتفحصها بعمق :

ـ ولكنك أنت الكل فى الكل ..

وأراد كمال أن يشهد شهادة طيبة لصديقه فقال :

ـ فؤاد شاب ممتاز حقا ..

فقال ابراهيم شوكت بحذر كالمتسائل :

ـ أظن أهله من السوقة ؟!.

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوى :

ـ نعم ، خاله مكارى ، وخاله الآخر فران ، وعمه كاتب محامى (ثم بلهجة استدراكية ضعيفة) ولكن هذا كله لا ينقص من قدر الانسان فالا نسان بنفسه لا بأهله !.

وأدرك كمال أن ابن أخته يريد أن يقرر حقيقتين يؤمن بهما على تنافرهما ، أولا وضاعة أصل فؤاد وثانيا أن وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص . بل أدرك أكثر من هذا أنه يحمل فى الأولى على فؤاد وأنه يكفر فى الثانيــة عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية القوية . ومن عجب أن تقرير هاتين الحقيقتين أراحه وكفاه شر التورط فى الافصاح عنهما بنفسه ، فانه كابن أخته لم يكن يؤمن بفوارق الطبقات ، وكان مثله أيضا يميل للحملة على فؤاد والحط من شــأنه الذى يدرك خطورته وتفــاهته هو بالقياس اليه . والظاهر أن أمينة لم ترتح لهذه الحملة فقالت :

ـ أبوه رجل طيب ، خدمنا العمر كله بأمانة واخلاص .

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت :

ـ ولكن ربما عاشرت نعيمة ـ لو تم هـذا الزواج ـ أناسا ليسوا أهلا للمعاشرة ، الأصل كل شيء ..

وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد ، فقالت زنوبة :

ـ صدقت ، الأصل كل شيء !

واضطرب ياسين ، واسترق الى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجع قول زوجته فى نفسها ، وتعليقها الباطنى عليه وما يستدعيه ذلك الى خواطرها عن عالم العوالم والتخت ، حتى لعن زنوبة فى سره على « قنزحتها » الفارغة واضطر أن يتكلم ليغطى على كلام زوجته ، فقال :

تذكروا أنكم تتحدثون عن وكيل نيابة ..

فقالت خديجة متشجعة بسكوت عائشة :

ـ أبى الذى جعل منه وكيل نيابة ، أموالنا نحن التى صنعته !

فقال أحمد شوكت فى سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكران بالمرحوم خليل شوكت :

ـ نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا !

فأشارت اليه خديجة بسبابتها وهى تقول بلهجة ملؤها الانتقاد :

ـ أنت دائما ترمينا بكلام غير مفهوم .

فقال ياسين بلهجة من يأمل فى انهاء الموضوع :

ـ أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا ..

ووزعت أمينة فناجيل القهوة . واتجهت أعين الشباب الى حيث جلست نعيمة لصق أمها . قال رضوان لنفسه : بنت لطيفة وجميلة ، ليته كان فى الامكان أن أصادقها وأزاملها ، لو مشينا فى الطريق معا لاحتار الرجال أينا الأجمل ! . وقال أحمد لنفسه أيضا : جميلة جدا ، ولكنها كأنما هى ملزوقة فى خالتى بالغرا ، ولا حظ لها من الثقافة . أما عبد المنعم فقال : جميلة وست بيت

وشديدة التقوى ، لا يعيبها الا ضعفها ، وحتى ضعفها جميل ، خسارة فى عين فؤاد . ثم جاوزت الحديث الباطنى فسألها :

ـ وأنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك ؟

فتورد الوجه الشاحب ، وقطبت ثم ابتسمت ، وتوتر حالها وهى تمزج الابتسام بالتقطيب لتتخلص منهما معا ، ثم قالت فى حياء واستياء :

ـ لا رأى لى ، دعنى وشأنى !

فقال أحمد ساخرا :

ـ الحياء الكاذب . . .

ولكن عائشة قاطعته متسائلة :

ـ الكاذب ؟!

فاستدرك قائلا :

ـ الحياء موضة قديمة ، ينبغى أن تتكلمى والا ضاعت منك الحياة . .

فقالت عائشة بمرارة :

ـ اننا لا نعرف هذا الكلام .

فقال أحمد متشكيا دون أن يعبأ بنظرة أمه المنذرة :

ـ أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون !.

فسأله عبد المنعم ساخرا :

ـ لم حددتها بأربعة ؟

فقال دون اكتراث :

ـ على سبيل الرأفة .

واذا بخديجة توجه الخطاب الى كمال متسائلة :

ـ وأنت !. متى تتزوج أنت ؟

بوغت كمال بالسؤال فتهرب قائلا :

ـ حديث قديم !

ـ وجديد فى الوقت نفسه ، ولن نتركه حتى يجمع الله شملك على بنت الحلال .

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف ، فزواج كمال أعز أمانيها ، وكم رجته أن يحقق أمنيتها حتى تقر عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد . قالت :

ـ عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر ، ولكنه يتعلل دائما بعذر أو بآخر . .

ـ أعذار واهية ، كم عمـــرك الآن يا سى كمال ؟ . . تساءل ابراهيم شوكت ضاحكا .

ـ ثمانية وعشرون عاما !. فات الوقت . .

انصتت أمينة الى رقم العمر بدهش كأنها لا تريد أن تصدق . أما خديجة فاحتدت وهى تقول :

ـ أنت مغرم بتكبير عمرك !

أجل فهو الأخ الأصغر ، فالكشف عن عمره كشف غير مباشر عن عمرها . مع أن زوجها بلغ الستين الا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها فى الثامنة والثلاثين . أما كمال فلم يكن يدرى ماذا يقول ، ولم يكن الموضوع فى نظره مما يحسم بكلمة ، ولكنه كان يشعر دائما بأنه مطالب بايضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر :

ـ انى مشغول نهارى بالمدرسة وليلى بمكتبى .

فقال أحمد بحماس :

ـ حياة عظيمة يا خالى ، ولكن الانسان ينبغى مع ذلك أن يتزوج .

وقال ياسين الذى كان أعرف الجميع بكمال :

ـ انت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب « الحقيقة » ولكن الحقيقة فى هذه الشواغل ، لن تعرف الحياة فى المكتبة ، ولكن الحقيقة فى البيت والشارع . . .

فقال كمال ممعنا فى الهرب :

ــ تعودت أن أنفق مرتبى لآخر مليم ، ليس عندى مدخر ، كيف أتزوج ؟!

فقالت خديجة تحاصره :

ــ انو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له .

وقال ياسين ضاحكا :

ــ انك تنفق مرتبك لآخر مليم حتى لا تتزوج . .

كأنهما شىء واحد . ولكن لِم لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين ؟. أجل مضت فترة فى ظل الحب فكان الزواج ضربا من العبث . وتبعتها فترة حل محـل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم ، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة . وقال لنفسه ان المفكر لا يتزوج وما ينبغى له . كان ينظر الى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر الى تحت . وكان ــ وما زال ــ يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج فى ميكانيكية الحياة . وانه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله . ثم انه لم يبق عنده من المرأة الا شهوة تقضى . والى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضى أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية ، ثم انه حائر يداخله الشك فى كل شىء ، والزواج نوع من الايمان . قال :

ــ أريحوا انفسكم ، سأتزوج عندما أرغب فى الزواج .

فابتسمت زنوبة ابتسامة أرجعتها الى الوراء عشرة أعوام وتساءلت :

ــ ولم لا ترغب فى الزواج ؟!

فقال كمال فيما يشبه الضجر :

ــ الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة . .

ولكنه كان يؤمن فى أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة . وكان

يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيقضى عليه قضاء مبرما . وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له :

ـ آن لنا أن نصعد الى المكتبة .

فنهض مرحبا بدعوته ، ومضى خارجا وعبد المنعم وأحمد ورضوان فى أثره . وصعدوا الى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا البيت القديم زائرين . وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائى بين صفين من خزائن الكتب ، فجلس الى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف ، ثم أختار عبد المنعم كتاب محاضرات فى تاريخ الاسلام ، وجاء أحمد بكتاب «مبادىء الفلسفة» ، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتا ، حتى قال أحمد متضايقا :

ـ لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل .

وتمتم عبد المنعم وهو يفر صفحات كتابه :

ـ لا أحد يعرف الاسلام على حقيقته .

فقال أحمد ساخطا :

ـ أخى يتلقى حقيقة الاسلام على يد رجل شبه عامى فى خان الخليلى . .

فصاح به عبد المنعم :

ـ صه يا زنديق !

ونظر كمال الى رضوان متسائلا :

ـ وأنت ألا تريد كتابا ؟

فأجاب عنه عبد المنعم :

ـ وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية . .

فقال رضوان وهو يومىء الى كمال :

ـ فى هذا يتفق معى عمى !

عمه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدى ! . كما أنه يشك في الحقيقة عامة ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع . تساءل وهو يردد عينيه بين عبد المنعم وأحمد :

— وأنتما وفديان كذلك فما وجه الغرابة ؟. وكل وطنى فهو وفدى ، أليس كذلك ؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينى :

الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب ، ولكنه فى ذاته لم يعد مقنعا كل الاقناع ..

فقال أحمد ضاحكا :

— انى أوافق أخى على رأيه هذا ، أو بالأحرى لا أوافقه على رأى الا هذا ، وربما اختلفنا فى درجة الاقناع الخاصة بالوفد ، أكثر من ذلك فان الوطنية نفسها يجب أن تكون موضع استفهام ، أجل ان الاستقلال فوق كل نزاع ، أما معنى الوطنية بعد ذلك فينبغى أن يتطور حتى يفنى فى معنى أشمل وأسمى ، وليس ببعيد أن ننظر فى المستقبل الى شهداء الوطنية كما ننظر الآن الى ضحايا المعارك الحمقاء التى كانت تنشب بين القبائل والأسر !

معارك حمقاء يا أحمق !. فهمى لم يستشهد فى معركة حمقاء ، ولكن أين وجه اليقين ؟. ورغم خواطره قال بحدة :

— أى قتيل فى سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد ، وقد تتغير قيم الأشياء أما موقف الانسان منها فهو قيمة لا تتغير ..

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبا عبد المنعم ردا على ملاحظة له :

— السياسة أخطر وظيفة فى المجتمع ..

ولما عادوا الى مجلس القهوة كان ابراهيم شوكت يقول لياسين :

— وهكذا فنحن نربى ونوجه وننصح ولكن كل ولد يندمج

فى مكتبة ، وهى عالم مستقل عنا ، يزحمنا فيه أناس غرباء لا ندرى عنهم شيئا ، فما عسى أن نصنع ؟!

٤

كان الترام مكتظا حتى لم يعد به موضع لواقف ، وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطل عليهم بقامته الطويلة النحيلة . كانوا مثله ـ فيما بدا له ـ يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطنى ـ عيد ١٣ نوفمبر ـ فردد عينيه فى الوجوه مستطلعا ومرحبا ، والحق أنه يشارك فى هذه الأعياد كأشد المؤمنين بها وان آمن فى الوقت نفسه بألا ايمان له . وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة « الوفدية » التى ألفت بين قلوبهم . قال أحدهم :

ـ عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكل معنى الكلمة ، أو هذا ما يجب أن يكون . .

فقال آخر :

ـ يجب أن يرد فيه على هور وتصريحه المشئوم .

وثار ثالث لذكر هور فصاح :

ـ ابن الكلب قال : نصحنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣٠ ، ما شأنه هو ودستورنا ؟

فأجابه رابع :

ـ لا تنس أنه قال قبل ذلك « على أننا عندما استشارونا نصحنا » الخ . . .

ـ أجل ، من الذى استشاروه ؟

ـ سل عن ذلك حكومة القوادين !

— توفيق نسيم وكفى !. أنسيتموه ؟. ولكن لماذا هادنه الوفد ؟ !

— لكل شيء نهاية ، انتظروا خطبة اليوم .

أصغى كمال اليهم ، بل اشترك فى حديثهم ، وأعجب من هذا أنه لم يكن دونهم حماسا . وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده . وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التى خلفتها الأعوام السابقة . أجل « لقد عاصرت عهد محمد محمود الذى عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب فى نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات !. كما عشت سنين الارهاب والعهر السياسى التى فرضها اسماعيل صدقى على البلاد . كان الشعب يثق فى قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق رأسه دائما أولئك الجلادين البغضاء ، تحميهم هراوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم ، وسرعان ما يقولون له بلغة أو بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء . والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث ، حتى اتخذ فى النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية ، فخلا الميدان الا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى ، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله فى همس دون أن يمد لهم يدا » . ان قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب ، انه يخفق معه دائما ، رغم عقله التائه فى ضباب الشك . غادر الترام عند شارع سعد زغلول ، وسار فى طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام فى جوار بيت الأمة ، تقابلهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستابل انجليزى تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة . والتقى قبيل السرادق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معا يتحادثون ، فأقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت . منذ شهر تقريبا

ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل الى السنة النهائية بالثانوى . وانه ليراهم فى الطريق « رجالا » بخلاف ما يراهم فى البيت فليسوا الا أبنـاء أخته وأخيه . وما أجمل رضوان ، كذلك جميل صاحبه الذى قدمه اليه ياسم حلمى عزت وقد صدق من قال ان الطيور على أشكالها تقع . وكان أحمد يسره ، وينتظر منه دائما قولا غريبا ممتعا أو سلوكا لا يقل عنه غرابة ، انه أقرب الجميع الى روحه ، أما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله الى القصر والامتلاء ، لذلك فحسب يحبه ، أما يقينه وتعصبه فما أرذلهما !.

وأقبل على السرادق الضخم ، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة ، مسرورا بكثرتها الهائلة ، وتطلع مليا الى المنصة التى سيعلو عندها عما قليل صوت الشعب ، ثم اتخذ مجلسه . ان وجوده فى مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة فى الوحدة شخصا جـديدا ينتفض خياة وحماسا . هنا ينحبس العقل فى قمقم الى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة الى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دافعة الى الكفاح والأمل ، وعند ذاك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس فيشارك فى حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم . انه بطبعه لا يطيق لأن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بد منها بين حين وآخـر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحيـاة اليومية ، حياة الناس ، فلتؤجل مشكلات المادة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة . وليمتلىء اهتماما بما يحب هؤلاء الناس وبما يكرهون ، بالدستور . . بالأزمة الاقتصادية . . بالموقف السياسى . . بالقضية الوطنية . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتف « الوفد عقيدة الأمة » غداة ليل قضـاه فى تأمل عبث الوجود وقبض الريح ، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة ، فهو يعشق الحقيقة ويهوى

النزاهة ويتطلع الى التسامح ويرتطم بالشك ويشقى فى نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات ، فلابد من ساعة يأوى فيها المتعب الى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمد حرارة وشبابا . فى المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل داروين وبرجسون ورسل ، فى هذا السرادق آلاف من الأصدقاء ، يبدون بلا عقول ، ولكن يتمثل فى مجتمعهم شرف الغرائز الواعية ، وليسوا فى النهاية دون الأول خلقا للحوادث وصنعا للتاريخ . فى هذه الحياة السياسية يحب ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كل شيء ولا قيمة له . وكلما واجه هذا التناقض فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليس ثمة موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالى من قلق . لذلك شد ما يحن قلبه الى تحقيق وحدة منسجمة تتسم بالكمال والسعادة ، ولكن أين هذه الوحدة ؟ ! . ويشعر بأن الحياة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعده ذلك على التطلع الى الحياة الأخرى تدفعه كافة القوى المعطلة المكبوتة ، فهى صخرة النجاة . فلعله لذلك بدا هذا الجمع رائعا ، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة . وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين . وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين ، أما رضوان وصاحبه حلمى عزت فيسيران فى الممر الذى يشق السرادق ذهابا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيالهما من شابين ذوى نفوذ ! . وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عاما أما الأركان التى احتلها الشباب فعلا ضجيجها وتخللته الهتافات . ثم ترامى هتاف قوى ذو دلالة من الخارج فتطلعت الرءوس الى مدخل السرادق الخلفى ، ثم هبوا واقفين ، وتعالى هتاف يصم الآذان ، ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيى الألوف بابتسامة وضيئة ويدين قويتين . وتطلع اليه بعينين اختفت

منهما نظرة الشك الى حين ، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الايمان بكل شيء ؟ . ألأنه رمز الاستقلال والديموقراطية ! ؟ . مهما يكن من أمر فان التجاوب الحار المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر ، وهى بلا شك قوة خطيرة تلعب دورها التاريخى فى بناء القومية المصرية . وتشبع الجو بالحماس والحرارة . وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون فى الأركان ، كى يسمع الناس المقرىء وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرددا فيما يتلو « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » . وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتج بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراما لكتاب الله . وأثار قولهم فى نفسه ذكريات قديمة يوم كان يعد واحدا من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه الخاص الحافل بالمتناقضات الذى يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراغ . ووقف الزعيم وراح يلقى خطابه . ألقاه بصوت رنان وبيان نافذ فأستغرق القاؤه ساعتين . ثم ختمه جاهرا فى عنف سافر بالدعوة الى الثورة . وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد ، وجعلوا يهتفون بحماس جنونى . ولم يكن دونهم حماسا وهتافا . نسى أنه مدرس مطالب بالوقار وخيل اليه أنه رجع الى الأيام المجيدة التى سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها . أكانت الخطب تلقى بهذه القوة ؟ . أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحماس ؟ . أكان الموت لذلك يهون ؟ . من مثل هذا الموقف يدأ فهمى دون ريب ، ثم اندفع الى الموت . الى الخلود أم الى الفناء ؟ ! ، أمن الممكن أن يستشهد رجل فى مثل حاله من الشك ؟ . لعل الوطنية — كالحب — من القوى التى نذعن لها وان لم نؤمن بها !

ان فورة الحماس عالية ، الهتافات حارة متوعدة ، المقاعد

ترتج بمن فوقها ، فما الخطوة التالية ؟ ما يدرى الا والجموع تتجه نحو الخارج . وغادر موضعه وهو يلقى نظرة عامة باحثا عن شباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر . وغادر السرادق من الباب الجانبى ، ثم سار مستهدفا شارع قصر العينى فى خطوات سريعة حتى يسبق الجموع . ومر فى طريقه ببيت الأمة وكان كلما مر به تعلق به بصره وردد عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء الذى شهد أجل الذكريات الوطنية . أجل فهذا البيت مثل السحر فى نفسه . فها هنا كان يقف سعد ، وها هنا كان يقف فهمى وأقرانه ، وفى هذا الطريق الذى يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقر فى صدور الشهداء . ان قومه فى حاجة دائمة الى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التى تترصد سبيل نهضتهم ، فى حاجة الى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضد الأمراض الخبيثة ، والحق أن الاستبداد هو مرضهم المتوطن . هكذا نجح اشتراكه فى العيد الوطنى فى تجديد نفسه فلم يكن يهمه فى تلك اللحظة الا أن تجيب مصر على تصريح هور اجابة حاسمة كالكلمة القاضية . وانتصبت قامته النحيلة الطويلة ، وارتفع رأسه الكبير ، واشتد وقع خطاه وهو يتقدم أمام الجامعة الأمريكية متخيلا أمورا جليلة وفعالا خطيرة . حتى المدرس ينبغى أن يثور أحيانا مع تلاميذه . وابتسم فيما يشبه الكآبة . مدرس كبير الرأس مقضى عليه بأن يعلم مبادىء الانجليزية — المبادىء فحسب — رغم أنه يطلع بها على أسرار وأسرار . يحتل جسمه من مزدحم الأرض موضعا ضئيلا أما خياله فيضطرب فى الدوامة التى تحيط بمغالق الطبيعة . يسأل فى الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين . وفى الصباح أيضا يضطرم فؤاده بالثورة على الانجليز وفى الليل تدعوه الأخوة العامة المعذبة — أخوته لبنى الانسان —

للتعاون أمام لغز القضاء . وهز رأسه فى شىء من العنف كأنما ليطرد عنها هذه الخيالات . وقد ترامت الى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الاسماعيلية فأدرك أن المتظاهرين قد وصلوا الى شارع قصر العينى . ودعاه الشعور بالنضال الذى يعمر صدره الى التوقف لعله يشترك على نحو ما فى مظاهرة ١٣ نوفمبر . شد ما طال بالوطن موقف الصابر الذى يتلقى الضربات . اليوم توفيق نسيم وأمس اسماعيل صدقى وأول أمس محمد محمود ، تلك السلسلة المشئومة من الطغاة التى تمتد الى ما قبل التاريخ . كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر .

مهلا ! .. ان المظاهرة تغلى وتفور ، ولكن ما هذا ؟ ! ، التفت كمال الى الوراء فى اضطراب . سمع صوتا اهتز له قلبه . وأنصت فى انتباه فصك الصوت مسامعه مرة أخرى . انه الرصاص . ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون فى دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها ، ولكن جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان ، وآخرين الى الشوارع الجانبية ، وكثير من الكونستبلات الانجليز فوق الجياد ينهبون الأرض . وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتد انطلاق الرصاص . وخفق قلبه وتساءلت دقاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان ، وامتلأ اضطرابا وغضبا ، وتلفت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتجه اليها — وقد أغلق بابها نصف اغلاق — وما أن مرق منها حتى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرة ، وشاع الاضطراب فى كل مكان . وانطلق الرصاص فى غزارة مخيفة ثم متقطعا . وترامت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل ، وعلت أصوات مزمجرة دلت على أن تجمعات ثائرة تنتقل من مكان الى مكان بسرعة خاطفة . ودخل المشرب شيخ وقال قبل أن

يسأله أحد عما وراءه : « ان رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا » ثم جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدج : « غدروا بالأبرياء غدرا ، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص فى الهواء من مواقعهم البعيدة ، ولكنهم سايروا المظاهرة فى هدوء مصطنع ، وجعلوا يوزعون أنفسهم على مخارج الطريق ، وفجأة أشهروا المسدسات وأطلقوا الرصاص ، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة ، وسقط الصغار يتخبطون فى دمهم ، الانجليز وحوش ولكن الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية ، انها مذبحة مدبرة يا الهى ! » وجاء صوت من آخر المقهى يقول : « كان قلبى يحدثنى بأن اليوم لن يمضى على خير » . فأجاب آخر : « أيام تنـذر بالشر . فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقع أحداثا خطيرة ، هـذه معركة وستتلوها معارك ، أؤكد لكم هذا ! » .

ــ الضحايا هم الطلبة دائما ، أعز أبناء الأمة ، وا أسفاه !

ــ ولكن الضرب سكت أليس كذلك ؟ ! ، أنصتوا . .

ــ المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة ، وسيستمر الضرب هنالك ساعات طويلة !.

ولكن الصمت ساد الميدان . ومضى الوقت ثقيلا مشحونا بالتوتر . وأخذت الظلمة تدنو حتى أضيئت أنوار المقهى ثم لم يعد يسمع صوت كأنما حل بالميدان والشوارع المحيطة به الموت . وفتح باب المقهى على مصراعيه فتراءى الميدان خاليا من المارة والمركبات . ثم جاء طابور من فرسان البوليس ذوى الخوذات الفولاذية فطاف بالميدان يتقدمه الرؤساء الانجليز . وكان باطن كمال لا يكف عن التساؤل عن مصير الأبناء . ولما دبت الحركة فى الميدان مرة أخرى غادر المقهى متعجلا ، ولم يعد الى بيته حتى مر بالسكرية وقصر الشوق واطمأن على عبد المنعم وأحمد ورضوان ،

وخلا الى نفسه فى مكتبته بقلب ملىء بالحزن والأسى والغضب . لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظل عقله غائبا فى منطقة بيت الأمة ، فى هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنى وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا . ووجد نفسه يحاول أن يتذكر اسم صاحب دكان البسبوسة التى اختبأ بها قديما ولكن الذاكرة لم تسعفه !

٥

كان منظر بيت محمد عفت بالجمالية من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد . هذه البوابة الخشبية التى تبدو من الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة ، وذلك السور العالى الذى يخفى ما وراءه خلا رءوس الأشجار العالية ، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجميز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفل والياسمين فشأنها عجيب ، وعجيب أيضا بركة المياه التى تتوسطها ، ثم الفراندا الخشبية التى تمتد بعرض الحديقة . وكان محمد عفت واقفا على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية ، أما على عبد الرحيم وابراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين . وسلم أحمد على الاخوان ثم تبع محمد عفت الى الكنبة التى تتوسط الفراندا وجلسا معا . وكانت بدانتهم قد زايلتهم جميعا فيما عدا محمد عفت الذى بدا مترهلا كما بدا وجهه شديد الاحمرار ، وقد صلع على عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيبا ، وانتشرت فى صفحات الوجوه التجاعيد ، وبدا على عبد الرحيم وابراهيم الفار أشد اذعانا للكبر ، غير أن حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه ، وبقى أحمد رغم ضموره وشيبه جميلا صافيا . وكان أحمد يحب هذا المجلس

حبا جما ، كما يحب منظر الحديقة التى تترامى حتى السور العالى المشرف على الجمالية ، وقد مال برأسه الى الوراء قليلا كأنما ليمكن انفه العظيم من الارتواء بعبير الفل والياسمين والحناء ، وربما اغمض عينيه أحيانا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجميز . غير أن أنبل ما خالط قلبه فى تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذى يكنه لهؤلاء الرجال . كان يرنو بعينيه الزرقاوين الواسعتين الى وجوههم الحبيبة التى تكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه . وكان أشدهم تعلقا بالماضى وذكرياته ، يفتنه كل ما يذكر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة . وقام ابراهيم الفار الى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل :

ـ من يلاعبنى ؟

فقال أحمد مستنكرا وكان قليلا ما يشترك فى ألعابهم :

ـ أجل اللعب الى حين ، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من اول الجلسة .

فأعاد الفار الصندوق الى مكانه ، ثم جاء نوبى بصينية عليها ثلاثة أقداح شاى وكأس ويسكى بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسما وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاى . وكان هذا التوزيع الذى يتكرر كل مساء كثيرا ما يضحكهم ؛ فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس فى يده ويشير الى أقداح الشاى فى أيديهم :

ـ عفا الله عن الأيام التى أدبتكم !

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا :

ـ انها أدبتنا جميعا ، وأنت أولنا ، غير انك قليل الأدب . .

وكان صدر اليهم أمر طبى واحد فى أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر ، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة فى اليوم ، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن

طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدد فيه طبيبه هو ، فما كان منه الا أن عرض نفسه عليه ولكن الطبيب حذره فى جد وحزم قائلا : « ان حالتك غير حالة صديقك » ، وقد افتضح أمر سعيه الى طبيب محمد عفت فكان موضع قفش وتعليق طويلين . وعاد أحمد يقول ضاحكا :

ــ لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس !

فقال الفار متأوها وهو يرنو الى الكأس بيد محمد عفت :

ــ كدت والله أنسى نشوتها !.

فقال له على عبد الرحيم ممازحا :

ــ فسدت توبتك بهذا القول يا عربيد .

فاستغفر الفار ربه ثم تمتم فى استسلام :

ــ الحمد لله ...

ــ بتنا نحسد على كأس واحدة ! . أين .. أين النشوات ؟!.

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكا :

ــ اذا ندمتم فاندموا على الشر لا على الخير يا أولاد الكلب !.

ــ انك كسائر الوعاظ ، ألسنتهم فى دنيا وقلوبهم فى دنيا أخرى ..

واذا بعلى عبد الرحيم يقول رافعا صوته الى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث :

ــ يا رجال !. ما رأيكم فى مصطفى النحاس ؟ ! . الرجل الذى الم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبة الأسمى « دستور سنة ١٩٢٣ » ..

ففرقع محمد عفت بأصابعه وقال فى سرور :

ــ براڤو .. براڤو !. انه أصلب من سعد زغلول نفسه ،

من كان يرى الملك الجبار مريضا باكيا ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردد فى ثبات صوت الأمة التى أولته زعامتها قائلا : « دستور سنة ١٩٢٣ أولا » ، وهكذا عاد الدستور ، فمن كان يتصور ذلك ؟.

فقال ابراهيم الفار وهو يهز رأسه فى عجب :

ــ تصوروا هذا المنظر ، الملك فؤاد وقد حطمه المرض والشيخوخة ، يضع يده على كتف مصطفى النحاس فى مودة بالغة ! . ثم يدعوه الى تأليف وزارة ائتلافية ، فلا يتأثر النحاس لذلك كله ، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين ، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذى توشك الدموع الملكية أن تغطى عليه ، لا يتأثر لشىء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة : دستور سنة ١٩٢٣ أولا يامولاى.

على عبد الرحيم محاكيا نفس اللهجة :

ــ أو الخازوق أولا يا مولاى ! .

أحمد عبد الجواد ضاحكا :

ــ قسما بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكى بيننا ونتجنبه انه لموقف عظيم !.

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال :

ــ نحن فى عام ١٩٣٥ ، ثمانى سنوات مرت على موت سعد ، وخمسة عشر عاما منذ الثورة ، ولا يزال الانجليز فى كل مكان ، فى الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات ، الامتيازات الأجنبية التى تجعل من كل ابن لبؤة سيدا مهابا ما زالت قائمة ، ينبغى أن تنتهى هذه الحال المؤسفة . .

ــ ولا تنس الجلادين أمثال اسماعيل صدقى ومحمد محمود والأبراشى ! .

ــ اذا ذهب الانجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن ، ستصبح الانقلابات فى خبر كان . .

ـ نعم ، واذا فكر الملك فى أن يلعب بذيله فلن يجـــد من يسانده ! .

وعاد محمد عفت يقول :

ـ سيجد الملك نفسه بين اثنتين فاما احترام الدستور واما السلام عليكم !.

فتساءل ابراهيم الفار فيما يشبه الشك :

ـ وهل يتخلى عنه الانجليز اذا طلب حمايتهم ؟

ـ اذا سلم الانجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك ؟.

فتساءل الفار مرة أخرى :

ـ وهل يسلم الانجليز بالجلاء حقا ؟!.

فقال محمد عفت فى ثقة من يعتز بثقافته السياسية :

ـ لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات ، وكان الشهداء رحمة الله عليهم ، ثم كانت الدعوة الى الائتلاف ، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣ ، أؤكد لكم أن الانجليز راغبون الآن فى المفاوضة ، حقا ان الانسان لا يدرى كيف تنكشف هذه الغمة ، كيف يمكن أن يذهب الانجليز أو ينتهى نفوذ الخواجات ، ولكن ثقتنا فى مصطفى النحاس لا نهاية لها . .

ـ ثلاثة وخمسون عاما من الاحتلال تنتهى بشوية كلام حول مائدة ؟ !.

ـ كلام قد سبق بدم زكى مسفوح . .

ـ ولو ! . . .

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه .

ـ سيجدون أنفسهم فى مركز حرج وسـط حالة دوليـة خطيرة !.

ـ يستطيعون أن يجدوا دائما من يؤمن ظهرهم ، واسماعيل صدقى حى لم يمت !.

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف :

ـ حادثت كثيرين من المطلعين فوجدتهم متفائلين ، يقولون ان العالم مهدد بحرب طاحنة ، وان مصر فى فوهة المدفع ، وان من صالح الطرفين الاتفاق المشرف ..

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه فى ثقة واطمئنان :

ـ اليكم خبرا هاما ، وعدت بأن أرشح فى دائرة الجمالية فى الانتخابات القادمة ، وعدنى النقراشى نفسه .

وتهللت وجوه الأصدقاء سرورا ، ثم لما جاء دور التعليق قال على عبد الرحيم متصنعا الجد :

ـ لا يعيب الوفد الا أنه يرشح حيوانات أحيانا باسم نواب !.

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد :

ـ وماذا يفعل الوفد ؟. انه يريد أن يمثل الأمة كلها ، والأمة أبناء حلال وأبناء سفلة ، فمن يمثل أولاد السفلة الا الحيوانات ؟!.

فلكزه محمد عفت فى جنبه وهو يقول :

ـ عجوز وقارح ، انت وجليلة شخص واحد ، كلاكما عجوز وقارح !.

ـ انى أرضى لو رشحوا جليلة ، فهى عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه !.

وهنا قال على عبد الرحيم باسما :

ـ قابلتها أول أمس أمام عطفتها ، ما زالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال !.

فقال الفار :

ـ صارت معلمة قد الدنيا ، بيتها شغال ليل نهار ، ويموت الزمار وصباعه بيلعب .

فضحك على عبد الرحيم طويلا ثم قال :

ـ كنت مارا أمام بيتها فرأيت رجلا يتسلل اليه وهو يظن

أنه بمأمن من الرقباء ، فمن تظنونه كان ؟.. (ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد) .. المحروس كمال أفندى أحمد خوجة مدرسة السلحدار !.

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية ، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه دهشا وانزعاجا ، ثم تساءل فى ذهول :

ــ كمال ابنى ؟!.

ــ أى نعم ، كان ملتفا فى معطفه ، وعلى عينه نظارته الذهبية ، وشاربه الغليظ يختال وقارا ، كان يسير فى رزانة ومهابة كأنما ليس هو ابن « ضحكجى أغا » ، وبنفس الوقار انعطف الى البيت كأنما ينعطف الى الجامع الحرام ، فقلت له فى نفسى خفف الوطء يا بن المركوب !.

وعلا الضحك ، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة فى الضحك . وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يحدق فى وجه أحمد :

ــ ما وجه العجب فى ذلك أليس هو ابن حضرتك ؟!.

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجبا :

ــ عرفته دائما مؤدبا مهـذبا هادىء الطبع ، لا يرى الا فى مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشـفقت عليه من الاغراق فى الانزواء والافراط فى عمل لا جدوى منه ..

فقال ابراهيم الفار مداعبا :

ــ من يدرى فلعل فى بيت جليلة فرعا من دار الكتب !.

وقال على عبد الرحيم :

ــ أو لعله يعتزل فى مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الانسان أصله قرد !.

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذى كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجد فى أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفا سهلا للمزاح والقفش ، ثم قال :

ـــ الهذا لا يفكر الملعون فى الزواج حتى ظننت به الظنون !..
ـــ ما عمر المحروس الآن ؟.
ـــ فى التاسعة والعشرين ...
ـــ يا سلام !. يجب أن تزوجه ، لماذا يرغب عن الزواج ؟.
تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول :
ـــ هذه موضة جديدة ، الشباب الآن لا يتزوجون .
ـــ ليست موضة فحسب ولكن بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعفت الثقة بهن ، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يغنى يا ما نشوف حاجات تجنن . البيه والهانم عند مزين ؟ .
ـــ ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشباب ، ان خريجى الجامعة يتوظفون بعشرة جنيهات ان وجدوا وظيفة بطلوع الروح !.
وتساءل أحمد عبد الجواد فى قلق بين :
ـــ أخاف أن يعرف أن جليلة كانت يوما صاحبتى أو تعرف هى أنه ابنى !.
فتساءل على عبد الرحيم ضاحكا :
ـــ أحسبتها تستجوب الزبائن ؟!
فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه :
ـــ لو عرفته الفاجرة ، لقصت عليه قصة أبيه من الألف الى الياء !..
فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ :
ـــ لا قدر الله ولا كان ..
فتساءل ابراهيم الفار :
ـــ أتحسب أن الذى يستطيع أن يعرف أن جده الأول قرد يعجز عن معرفة أن أباه فاسق فاجر ؟ !
فضحك محمد عفت عاليا حتى سعل ، وصمت لحظات ثم قال :

ـ الحق ان مظهر كمال خداع ، رزين هادىء متزمت ، خوجة بكل معنى الكلمة ..

فقال على عبد الرحيم بلهجة الترضية :

ـ يا سيدى ربنا يخليه ويطول عمره ، ومن شابه أباه فما ظلم ...

فعاد محمد عفت يتساءل :

ـ المهم أهو « حلنج » كأبيه ؟ .. أعنى هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهن ؟

فقال على عبد الرحيم :

ـ أما هذا فلا أظن ! . يخيل الى أنه يظل متقدما برزانته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب ، ثم يأخذ نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار ، ثم يرتمى عليها ، وهو فى الغاية من الجد والتجهم ، ثم يرتدى ملابسه ويذهب بعين الجد والرزانة كأنما كان يلقى درسا خطيرا !

ـ يخلق من ظهر الحلنج دهل !

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط : لماذا يبدو لى الأمر غريبا ؟ ! . وصمم على أن يتناسى الخبر . ولما رأى الفار يذهب الى صندوق النرد ويعود به ، قال دون تردد أنه آن لهم أن يلعبوا . بيد أن أفكاره ظلت تدور حول الخبر الجديد . وقال لنفسه متعزيا أنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرسا محترما فله أن يفعل ما يشاء . ولعله من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين ! . ولو انصف الحظ لتزوج كمال منذ سنوات ، ولما تزوج ياسين أبدا ، ولكن من يدعى القدرة على حل هذه الرموز ؟ ! . واذا بالفار يسأله :

ـ متى رأيت زبيدة آخر مرة ؟

فأجاب أحمد بعد تذكر :

ــ فى يناير الماضى ، أى منذ عام تقريبا ، يوم جاءتنى فى الدكان لأبيع لها البيت . .

فقال ابراهيم الفار :

ــ اشترته جليلة ، ثم وقعت المجنونة فى حب عربجى كارو فتركها على الحديدة ، وهى الآن تقيم بحجـرة على سطح بيت سوسن العالمة فى حال من الاضمحلال يرثى لها !

فهز أحمد عبد الجواد رأسه فى أسف ، وتمتم :

ــ السلطانة فى حجرة فوق السطح ! . سبحان من له الدوام .

فقال على عبد الرحيم :

ــ نهاية محزنة ، بيد أنها كانت متوقعة . .

فندت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال :

ــ فليرحم الله من يأمن الى هذه الدنيا !

ثم دعا الفار الى اللعب فتحداه محمد عفت ، وسرعان ما التفوا جميعا حول النرد ، وأحمد عبد الجواد يقول :

ــ ترى من يكون حظه كجليلة ، ومن يكون كزبيدة ؟ !

٦

فى احدى حجرات قهوة احمد عبده ، جلس كمال واسماعيل لطيف ، وهى نفس الحجـرة التى كان كمال يجالس فيهـا فؤاد الحمزاوى فى مطلع شبابه . وبالرغم من برودة ديسمبر كان جو القهوة دافئا ، اذ أنه باغلاق مدخلها يسد المنفذ الوحيد لها الى سطح الأرض ، فكان من الطبيعى أن تدفأ وان انتشرت الرطوبة فى جنباتها بدرجة محسـوسة . ولم يكن اسماعيل لطيف ليرضى

بالجلوس فى قهوة أحمد عبده ، لولا رغبته فى مجاراة كمال . انه الصديق القديم الذى لم تنقطع بكمال أسبابه ، رغم أن مطالب الرزق دفعت به الى طنطا خبيرا محاسبا مذ تخرج فى مدرسة التجارة ، فكان اذا عاد الى القاهرة فى اجازة اتصل به تليفونيا بمدرسة السلحدار ، ونال منه موعدا للقاء فى هذا الركن الأثرى .
وجعل كمال ينظر الى صديقه القديم ، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المدببة الحادة ، ويعجب لما آل اليه حاله من رزانة وأدب واستقامة ، جعلته مثالا طيبا للزوج والأب ، هذا الذى كان يوما مثالا فذا للقحة والاستهتار والفظاظة . وصب كمال الشاى الأخضر فى قدح صاحبه ثم فى قدحه وهو يقول باسما :
ــ يبدو أن قهوة أحمد عبده لا تعجبك ؟
فارتفع رأس اسماعيل فى تطاوله المعهود ، وقال :
ــ انها غريبة حقا ، ولكن لماذا لا نختار مكانا فوق سطح الأرض؟!
ــ على أى حال هى أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك .
فضحك اسماعيل وهو يهز رأسه فى تسليم ، كأنما يقر بأنه أصبح جديرا حقا بفضيلة الاستقامة ، هو الذى كان وكان ، وعند ذلك سأله كمال مجاملا :
ــ كيف الحال فى طنطا ؟
ــ عال ، أما النهار فعمل متواصل فى المصلحة ، واما الليل فأقضيه مع زوجى وأولادى .
ــ وكيف حال الأنجال ؟
ــ نحمده ، ان راحتهم دائما على حساب تعبنا ، ولكن نحمده فى جميع الأحوال ...
فسأله كمال مدفوعا بحب الاستطلاع الذى يثيره فى نفسه حديث الأسرة بصفة عامة :
ــ وهل وجدتهم حقا السعادة الحقيقية ، كما يقول العارفون ؟
ــ نعم ، انهم لكذلك ...

ـ رغم متاعبهم ؟

ـ رغم كل شيء !

وجعل كمال ينظر الى صاحبه بفضول اشد . هذا شخص جديد لا يكاد يمت بصلة الى اسماعيل لطيف الذى زامله فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٧ ، تلك الفترة الفذة من حياته التى عاشها بكل جوارحه ، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد ، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة فى حسين شداد ، وعهد الحب الصادق متبلورا فى عايدة ، وعهد الحماســة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعــة ، ثم عهــد التجارب العنيفة التى قذف بها اليها الشك والمجون والأهواء ، وقد كان اسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير ، ودليله الخطير ، فأين هو اليوم من ذاك ؟ ! . وعاد اسماعيل لطيف يقول فى شيء من التذمر :

ـ بيد أن هناك أمورا تشغل بالنا باستمرار ، كالكادر الجديد ووقف الترقيات والعلاوات ، وأنت تعلم أننى تعودت على الحياة الرغيدة فى كنف أبى ، ولكن أبى لم يترك ميراثا ، ووالدتى بدورها تستهلك كل معاشها ، لذلك رضيت فى سبيل الرزق أن أعمل فى طنطا ، وهل كان مثلى يرضى بذلك ؟ ! .

فضحك كمال قائلا :

ـ مثلك ما كان يرضى بشيء !

فابتسم اسماعيل فيما يشبه الزهو اعتزازا بماضــيه الحافل الذى هجره بمحض اختياره . وسأله كمال :

ـ ألا تنازعك نفسك الى معاودة شيء من الماضى ؟

ـ كلا شبعت من كل شيء ، وأستطيع أن أقول بأنى لم أضجر من حياتى الجديدة بعــد ، كل المطلوب منى أن أبدى شــيئا من المهــارة بين حين وآخر ، حتى أفوز ببعض النقود من والدتى ،

كذلك على زوجى أن تلعب نفس الدور مع أبيها ، اذ أنى لا زلت مغرما بالحياة الرغيدة ..

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكا :

ــ علمتنا وتركتنا وحدنا فى الطريق ..

فضحك اسماعيل ضحكة عالية أعادت الى وجهه الرزين كثيرا من ملامح الماضى الماكرة ، وقال :

ــ أآسف أنت على ذلك ؟ . كلا ، أنت تحب هذه الحياة باخلاص عجيب ، غير أنك رجل معتدل ، انى فعلت فى سنوات لعبى القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك (ثم بلهجة جدية) .. تزوج وغير حياتك !

فقال كمال بلهجة عابثة :

ــ هذا أمر جدير بالتفكير !

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خلق اسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب ، على أى حال انه الصديق القديم الباقى ، أما حسين شداد فقد اختطفته فرنسا من وطنه ، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه ، لم يعد لهما من سبب فى القلب وا أسفاه ، ولم يكن اسماعيل لطيف يوما صديق الروح ، ولكنه ذكرى حية من الماضى العجيب ، لذلك فهو خليق بأن يعتز به ، وأعتز به أيضا لوفائه ، لا مسرة روحية فى مصاحبته ، ولكنه آية حية على أن الماضى لم يكن خيالا ، ذلك الماضى الذى أحرص على اثبات حقيقته حرصى على الحياة نفسها ، ترى ماذا تصنع عايدة فى هذه اللحظة من الزمان ؟ . وأين هى من عالم المكان ؟ . وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبها ؟ ! . كل أولئك أعاجيب .

ــ انى معجب يا سيد اسماعيل ، أنت شخص جدير بكل توفيق ..

وألقى اسماعيل نظرة على ما حوله ، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحالمة والعاكفين على السمر واللعب ، ثم تساءل :

ــ ماذا يعجبك فى هذه القهوة ؟

فلم يجبه كمال على سؤاله ، ولكنه قال بلهجة آسفة :

ــ أما علمت ؟ ! . سوف تهدم فى القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة ، سيختفى هذا الأثر الى الأبد !

ــ مع ألف سلامة ، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد .

أنطق بالحق ؟ . ربما ، ولكن للقلب لواعجه ، يا قهوتى العزيزة أنت قطعة من نفسى ، فيك حلمت كثيراً وفكرت كثيراً ، وفيك سكن ياسين أعواما ، واجتمع فهمى بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل ، ثم انى أحبك لأنك مصنوعة من مادة الحلم ، ولكن ما جدوى هذا كله ؟ . وما قيمة الحنين الى الماضى ؟ . ربما ظل الماضى أفيونة أصحاب القلوب ، وأشقى ما تصاب به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك ; فلنقل أى كلام مادمنا لا نؤمن بشىء .

ــ فى هذا صدقت ، انى أقترح أن يهدموا الهرم اذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل !

ــ الهرم ! . ما دخل الهرم فى قهوة أحمد عبده ؟ !

ــ أعنى الآثار ، أعنى أن نهدم كل شىء فى سبيل اليوم والغد .

فضحك اسماعيل لطيف ، وتطاول بعنقه ــ كما كان يفعل قديما كلما تحدى ــ ثم قال :

ــ أحيانا تكتب كلاما يناقض هذا القول ، انى كما تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلة الفكر اكراما لك ، وسبق أن صارحتك برأيى ، أى نعم ، مقالاتك عسيرة ، المجلة كلها جافة والعياذ بالله ، لم أستطع المثابرة على اقتنائها لأن زوجتى لا تجد فيها شيئا يقرأ ، ولا

تؤاخذنى فهذا قولها ! . أقول انى وجدت أحيانا فيما تكتب نقيض ما تقول الآن ، ولكنى لا ازعم أنى أفهم كثيراً - وبينى وبينك ولا قليلا - مما تكتب ، وبهذه المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب المحبوبون ؟ . لو فعلت الوجدت جمهورا كبيرا ، ولربحت مالا وفيرا . . .

فى زمن مضى كان يحتقر مثل هذا الرأى فى عناد وثورة ، الآن لا زال يحتقره ولكن دون ثورة ، لكنه يشك فى هذا الاحتقار ، لا لشبهة فى انه فى غير موضعه ، ولكن لأنه يرتاب أحيانا فى قيمة ما يكتب ، وربما ارتاب فى ارتيابه نفسه ، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قد ضاق بكل شىء ذرعا ، وأن الدنيا تبدو أحيانا كلفظة قديمة اندثر معناها .

- انك لم ترض يوما عن عقلى !

اسماعيل وهو يقهقه :

- أتذكر ؟ . يا لها من أيام .

أيام مضت ، لم تعد نيرانها تحرق ، لكنها مصونة فى موضعها كالجثة العزيزة ، أو كعلبة الملبس المستكنة فى مكانها منذ ليلة عائدة .

- ألم يبلغك شىء عن حسين شداد أو حسن سليم ؟ !

رفع اسماعيل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

- ذكرتنى ! . حدثت أمور فى العام الماضى الذى قضيته بعيدا عن القاهرة . . .

ثم استطرد فى اهتمام متزايد :

- علمت حال عودتى من طنطا أن أسرة شداد انتهت .

تفجرت فى قلب كمال ثورة اهتمام طاغية ، وعانى كثيرا وهو يغالب آثارها الظاهرة ، ثم تساءل :

- ماذا تعنى ؟

ـ أخبرتني والدتي أن شداد بك أفلس ، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته ، انتهى شـداد ، ثم انه لم يتحمل الصدمة فانتحر !

ـ يا له من خبر ! . متى حدث ذلك ؟

ـ منذ أشهر ، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع ، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمنا لا ينسى ..

أى زمن ، وأى قصر ، وأى حديقة ، أى ذكريات ، أى ألم نسى ، أى نسيان مؤلم ، الأسرة الرفيعة ، الرجل العظيم ، الحلم الكبير ، أليس هـذا الجيشـان أضخم مما ينبغي أن يستدعيه الحال ؟! . وهذه الخفقة التي تمخض عنها القلب أشد مما تستحق ذكريات عفى عليها النسيان ؟ .

قال كمال بصوت حزين :

ـ انتحر البيك ، وضاع القصر ، ولكن ما مصير أهله ؟

قال اسماعيل في امتعاض :

ـ لم تعد لأم صديقنا الا خمسة عشر جنيها شهريا من ريع وقف ، وقد انتقلت الى شقة متواضعة بالعباسية ، وقد زارتها والدتي فعادت تصف حالها وهي تبكي ، تلك السيدة التي تقلبت في نعيم لا يتصوره الخيال ، ألا تذكر ؟

يذكر ولا شك ، أم يظنه نسى ؟ . يذكر الحديقـة والكشك والنعيم الذي كان يترنم به الهـواء ، ويذكر السرور والحزن ، بل انه الساعة حزين حقا ، ان الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية ، ولن يحق له أن يحزن بعد السـاعة على قهوة أحمـد عبده التي يتهددها الزوال ، فكل شيء ينبغي أن ينقلب رأسا على عقب .

ـ انه لشيء محزن ، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم بواجب العزاء ، ترى ألم يعد حسين من فرنسا ؟

ـ لا شك أنه عاد عقب الحادث ، كذلك حسن سليم وعايدة ، ولكن لا أحد منهم فى مصر الآن .

ـ وكيف عاد حسين تاركا أسرته على حالها ؟ . ومن أين له أن ينفق بعد افلاس والده ؟

ـ سمعت أنه تزوج هناك ، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملا فى أثناء اقامته الطويلة فى فرنسا ، لا أدرى شيئا عن هذا ، فأنا لم أره منذ ودعناه معا ، كم مضى على ذلك ؟ . عشرة أعوام على وجه التقريب . أليس كذلك ؟ . انه تاريخ قديم ، كم أثار شجونى !

كم وكم ، أما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية ، انها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدأ ، وقلبه يقطر حزنا ، فيذكر بذلك القلب الذى اتخذ من الحزن شعارا ، ان هذا الخبر قد رجه رجا عنيفا حتى كاد ينفض عنه الحاضر كله ، ويكشف عن الانسان القديم الذى كان حبا خالصا وحزنا خالصا ، أهذه هى نهاية الحلم القديم ؟ الافلاس والانتحار ! . كأنما قضى بأن تؤدبه هذه الأسرة بأدب الآلهة الساقطين ! . الافلاس والانتحار ، واذا كانت عايدة لا تزال فى بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجها ، فماذا طرأ على كبريائها الملائكى ؟ . وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة الى ...

ـ كان لحسين أخت صغيرة ، ما اسمها ؟ . انى أذكره حينا وأنساه أحيانا كثيرة !

ـ بدور ، انها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة ..

تصور آل عايدة فى حياة متواضعة ! . كحياة هؤلاء الناس حولنا ، فهل تمضى بدور يوما بجورب مرفو ؟ . أو هل تتخذ من الترام مركبا ؟ . أو تتزوج من موظف بمصلحة كذا ؟ . ولكن ماذا

يهمه من ذلك كله ؟ . . آه . . . لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ، ومهما يكن لعقلك من رأى فى الطبقات وفوارقها ، فانك تشعر من جراء هذا الانقلاب بانهيار مخيف ، ويعز عليك أن تسمع بأن مثلك العليا تتمرغ فى التراب ، فلتهنأ على أى حال بأنه لم يبق من الحب شيء ، أجل . . ماذا بقى من الحب القديم ؟ . اذا قال لا شيء فان قلبه يخفق فى حنان عجيب عند تردد أى أغنية من أغانى ذلك العهد ، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها ، فما معنى ذلك ؟ . لكن مهلا ، انها ذكرى الحب لا الحب نفسه ، ونحن نحب الحب فى جميع الأحوال ، خاصة الأحوال التى لا حب فيها ، أما فى هـذه اللحظـة فانى أشـعر كأنى غريق فى بحر الهوى ، ذلك أن المرض الكامن ينفث سمومه حين الضعف الطارىء ، وما الحيلة ما دام الشك الذى زلزل الحقائق جميعا يقف عند الحب فى حذر ، لا لأنه شيء فوق الشك ، ولكن احتراما للحزن ، وحرصـا على حقيقة الماضى .

وعاد اسماعيل الى المأساة سائقا كثيرا من التفاصـيل ، حتى ضاق بها فيما بدا ، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها :

— الدوام لله ، انه شيء مؤسف حقا ، ولكن حسبنا نكد . .

ولم يحاول كمال أن يدعوه الى مزيد . كان فيما قال الكفاية . الى أنه وجد رغبة الى الصمت والتأمل . وكان يبكى بكاء صامتا بدموع غير منظورة يذرفها قلبه . وأدهشه ذلك بصفته مريضا قديما قد برىء من مرضـه . وقال لنفسه متعجبا : تسعة أعوام أو عشرة ! . ما أطولها وما أقصرها ، ترى ما صورة عايدة الآن ؟ . كم يود أن يديم اليها النظر ليطلع على سر ذلك المـاضى السـاحر ، بل ليقف على سر نفسه . انه الآن لا يراها الا لمحا خاطفا فى نغمة قديمة معادة ، أو صورة فى اعلان صابون ، أو من سباته كالفزع وهو يهمس : هذه هى ! . ولـكن ما هى على الحقيقة قسمة من

قسمات نجمة سينمائية ، أو ذكرى متسللة ، فيستيقظ والواقع ؟ ! ونبا به مجلسه ، فتاقت نفسه الى رحلة مغامرة فى دنيا الغيب ، فقال لاسماعيل :

ــ أتقبل دعوتى الى كأسين فى مكان لطيف مأمون ؟

فقهقه اسماعيل قائلا :

ــ ان زوجتى تنتظرنى لنذهب معا الى زيارة خالتها . .

ولم يكترث لرفض دعوته . طالما كانت نفسه نديمه . وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث . أى حديث . وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه : قد نضيق بالحب اذا وجد ، ولكن شد ما نفتقده اذا ذهب .

٧

مليح هذا المجلس . . غير أن اليد قصيرة ، من هذا الموضع الدافىء ترى الغادى والرائح . . من شارع فاروق واليه . . ومن الموسكى واليه . . ومن العتبة واليها ، ولولا برودة يناير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة ، تاركا رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة فى الطوار المقابل ، ولكن سيأتى الربيع يوما . . أجل سيأتى غير أن اليد قصيرة ، ستة عشر عاما أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة ، دكان الحمزاوى بيعت بأبخس الأثمان . . وربع الغورية على ضخامته لا يدر الا جنيهات . . أما بيت قصر الشوق فمسكنى ومأواى ، واذا كان لرضوان جد غنى فكريمة لا عائل لها غيرى ، رب أسرة وعشيق ، ولكن للأسف اليد قصيرة .

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذى شارب مربع ونظارة ذهبية ، يخطر فى معطفه الأسود قادما من

الموسكى متجها نحو العتبة ، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما يهم بالقيام ، ولكنه لم يفارق مجلسه . ولولا أن الشاب كان مسرعا لمضى اليه ودعاه الى مجالسته . كمال خير سمير حين الضجر ، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين ، لم تعجلت الزواج قبل الأوان ؟ . ولم وقعت فيــه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى ؟ . ولكن منذ الذى لا يشكو : أعزب كان أم متزوجا ؟ . وكانت الأزبكية ملاذا ومتعة ، ثم حل بها البوار فهى اليوم بؤرة الحثالة والسفلة ، لم يبق لك من عالم المسرات الا لذة المشاهدة فى هذا المفرق من الطرق ، ثم الصيد الرخيص ، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات فى الأسر الافرنجية . . فهى فى الغالب مهذبة المظهر نظيفة ، أما سيد مزاياها دون منازع فضعف الخلق ، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضــار بميدان الأزهار .

كان قد فرغ من حسو قهوته ، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه الى ملتقى الطرق ، يتابع كل ذات حســن ، فتنطبع على عدسة عينه صور النساء من ذوات المعاطف والملاءات اللف ، يراهن كلا وأجزاء فى مثابرة لا تعرف الكلال . كان يجلس أحيانا فيطول به الجلوس حتى العاشرة ، وفى أحيان أخرى ربمــا لم يطل به الجلوس الا ريثما يشرب قهوته ، ثم ينهض مسرعا فى أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصا ، كأنه تاجر روبابكيا . ولكنه كان يقنع فى الغالب بالمشاهدة ، وربما تبع الحســناء دون مقصــد جدى ، أما الاقدام الحق ، كان يصطاد خادما خليعة أو أرملة فوق الأربعين ، فكان يقع على فترات وفى حرص شديد . اذ أنه لم يعد الرجل الذى كان ، لا لأن الموارد قد ناءت بالأعباء فحسب ، ولكن لسن الأربعين التى نزلت به ضيفا دون دعوة أو استئذان . يا لها من حقيقة مرعبة ! . « وشعرة بيضاء فى عارضى

طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها ، وقال الحلاق إن أمر الشعرة هين ، ولكن الشيب لا يلبث أن ينفجر . تبا لهما ، للحلاق وللشيب ، ووصف الرجل صبغة مفيـدة ولكنى لن ألجأ اليها ، بيد أن أبى بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة ، أين أنا من أبى ؟ ! . لا فى الشيب وحده ، كان شابا فى الأربعين ، وكان شابا فى الخمسين ، أما أنا ! . رباه لم أفرط أكثر مما فرط أبى » . أرح رأسك من الأفكار بمشاهدة هذه المرأة ، أرح رأسك واتعب قلبك ، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقا كما يرويها الرواة ؟ . أين زنوبة من هذا كله ؟ ! . جانب من الزواج خدعة بنت كلب ، ولكن قوته فى أنك تحتضن الخدعة ما حييت ، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان ، ولم يزل الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل جاد فى أثرها ، الشباب لعنة ، والكهولة لعنات ، فأين راحة القلب أين ؟ . وأتعس ما فى الدنيا أن تتساءل يوما ذاهلا أين أنا ! .

وغادر القهوة فى منتصف العاشرة ، فقطع العتبة متمهلا الى شارع محمد على ، ثم مال الى حانة « النجمة » ، وحيا « خالو » الماثل وراء البار فى وقفته التقليدية ، فرد الرجل تحيته بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مثرمة ، ثم أشار بذقنه الى الحجرة الداخلية كأنما ليخبره بأن أصحابه فى الانتظار . وكان يمتد أمام البار دهليز ينتهى الى ثلاث حجرات متداخلة يضج جوها بالعربدة ، فمضى الى الأخيرة منها ، ولم يكن بها آلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطل على عطفة الماوردى ، قد صفت بهـا ثلاث موائد متفرقة فى الأركان ، خلت اثنتـان وأحدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهللين ، شأنهم كل مساء . كان ياسين — رغم شكواه — أصغرهم سنا ، أما أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات ، يليه فى مجلسه باشكاتب بالأوقاف ، فرئيس المستخدمين بادارة الجامعة ، ثم محام من ذوى الأملاك غير مشتغل . كان الادمان

يلوح فى سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالفة الشحوب ، وكانوا يتوافدون الى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها الا فى الهزيع الأخير من الليل ، يتجرعون أردأ أنواع الخمر وأشدها مفعولا وأرخصها ثمنا ، غير أن ياسين لم يكن يلازمهم من البداية الى النهاية ، أو لم يكن يفعل ذلك الا فى القليل النادر ، وفيما عدا ذلك فكان يمضى معهم ساعتين أو ثلاثا كيفما اتفق . وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلا :

ـ أهلا بالحاج ياسين ...

وكان يصر على وصفه بالحاج اكراما لاسمه المبارك ، أما المحامى وكان أشدهم ادمانا فقال :

ـ تأخرت يا بطل ، حتى قلنا لقد عثر فى امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلها ....

فعلق الأعزب العجوز على كلام المحامى متفلسفا :

ـ لا يفرق بين الرجل والرجل الا امرأة !.

فقال له ياسين مداعبا ، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف :

ـ لا خوف عليك من هذه الناحية ..

فقال العجوز وهو يرفع الكأس الى فيه :

ـ الا لحظات شيطانية ، فقد تستثيرنى بنت فى الرابعة عشرة ...

فقال الباشكاتب :

ـ الاسم لطوبة والفعل لأمشير ! .

ـ لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد .

ـ ولا أنا فاهم !.

وجاء خالو بالكأس والترمس ، فتناول ياسين الكأس وهو يقول :

ــ يناير هذا العام شايف كيفه .

فقال رئيس المستخدمين :

ــ لله فى خلقه شئون ، جاء يناير بالبرودة ولكنه ذهب بتوفيق نسيم الى غير رجعة ! .

فصاح المحامى :

ــ أنقذونا من السياسة ، ما زلنا نسكر ونمز بالسياسة حتى أخمدت أنفاسنا ، شوفوا حكاية ثانية ..

فقال رئيس المستخدمين :

ــ حياتنا فى الواقع سياسة ولا شىء غير هذا ..

ــ أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة ، مالك أنت والسياسة ؟.

فقال الرئيس محتدا :

ــ درجة سادسة قديم من فضلك ، من أيام سعد ! .

فقال الأعزب العجوز :

ــ أنا درجتى السادسة من أيام مصطفى كامل ، لذلك أحلت بها على المعاش اكراما لذكراه ... اسمعوا ، أليس الأفضل أن نسكر ونغنى ؟.

فقال ياسين وهو يهم بافراغ كأسه :

ــ لنسكر أولا يا والدى ..

لم يتمتع ياسين فى حياته بنعمة الصداقة العميقة ، ولكنه كان له فى كل مجلس ــ قهوة أو حانة ــ أصحاب ، وكأن يألف بسرعة ويؤلف بأسرع من ذلك . ومنذ اتخذ هذه الحانة ــ تبعا لتطور حالته المادية ــ مجلسا ليليا مختارا عرف هذه الجماعة ، وتوثقت أسباب السمر بينهم ، غير أنه لم يقابل أحدا منهم فى الخارج ، ولم يسع الى ذلك . جمع بينهم الادمان والاسترخاص ، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزا ، ولكنه كان كثير العيال ، أما المحامى

فقد جاء هذه الحانة جريا وراء سمعة خمرها القوية ، بعد أن لم تعد تؤثر فيه الخمور النظيفة الا فى النادر ، ثم الفها واعتادها . وجعل ياسين يشرب ويثرثر ، قاذفا بنفسه فى دوامة العربدة التى تجتاح المكان وترتطم بأركانه . وكان العجوز الأعزب أحب أفراد الجماعة اليه ، ولم يكن يشبع من مداعبته خاصة فيما يتعلق بالرموز الجنسية ، فكان الرجل يحذره من الافراط ، ويذكره بمسئولياته العائلية ، فيقول له ياسين فى استهانة ومباهاة « نحن قوم خلقنا لهذا ، هكذا أبى ، وهكذا كان جدى من قبل » ، وأعاد هذا القول فى هذه السهرة ، فتساءل المحامى مازحا :

ـ وأمك ؟ . . أكانت كذلك أيضا ؟ . .

وضحكوا كثيرا ، وضحك ياسين ، غير أن قلبه غاص فى صدره متوجعا . وأفرط فى الشراب . وخيل اليه رغم نشوته أنه يتدهور ، فلا المكان مكانه ، ولا الخمر خمره ، ولا اليوم يومه « وفى كل مكان يتغامزون على ، فأين أنا من أبى ؟ ، ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك ، بيد أن رحمة الشراب واسعة ، تفيض عليك أنسا ، أنسا رقيقا وعزاء جميلا يهون عنده كل خطب ، فقل ما أعظم مسرتى ، لن يعود العقار الذى ضاع ، ولا الشباب الذى انقضى ، ولكن الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر ، رضعتها شابا يافعا ، وها هى تؤنس رجولتى ، وسوف يهتز لها طربا رأسى المجلل بالمشيب ، بذلك يفرح منى القلب رغم العناء ، وغدا عندما يستوى رضوان رجلا وتتهادى كريمة عروسا ، أشرب أنخاب السعادة فى العتبة الخضراء ، فما أعظم مسرتى » .

واذا بالجماعة تغنى « أسير العشق يا ما يشوف هوان » ثم غنت « يا جارة الوادى » فى جو صاخب وأصوات معربدة ، فردد الغناء أقوام من ستائر الحجرات والدهليز . ثم ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدث عن استقالة توفيق نسيم ،

ويتساءل عن المعاهدة التى تهدف الى حماية مصر من خطر ايطاليا ، ذلك الجار الثقيل القائم فى ليبيا ، فما كان من الجماعة الا أن رددت فى صوت واحد « ارخى الستارة اللى فى ريحنا .. أحسن جيرانا تجرحنا » ، ورغم انفراط العجوز فى الشراب والعربدة ، فقد احتج على هذه الاجابة الماجنة ، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجد . فأجابوه فى صوت واحد مرددين « صحيح خصامك وآلا هزار » فلم يسع الشيخ الا أن يضحك ، وأن يعود الى مشاركتهم بلا تحفظ .

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل ، فبلغ بيته فى قصر الشوق حوالى الواحدة صباحا . وكعادته كل ليلة جعل يمر بحجرات شقته كأنما يقوم بجولة تفتيشية ، فوجد رضوان فى حجرته يذاكر ، وقد رفع الشاب رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة . وكان الحب بينهما عميقا ، كذلك الاحترام رغم أن رضوان كان يعلم أن والده لا يعود هذه الساعة الا ثملا . أما ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيما اعجاب ، كما يعجب بذكائه واجتهاده ، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذى سيرفع من شأنه ، ويعز من كبريائه ، ويعزيه عن أمور كثيرة . سأله :

ــ كيف تجد دروسك ؟ .

وأشار الى نفسه كأنما يقول له « نحن هنا » . فابتسم رضوان ، وابتسمت فيه عينا جدته هنية المكحولتين ، فعاد أبوه يسأل :

ــ أيزعجك اذا أدرت الفونوغراف ؟ .

ــ أما عنى فلا . ولكن الجيران نائمون فى هذه الساعة المتأخرة ؟ .

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئا :

ــ نوم العافية ! .

ومر بحجرة نوم « الأولاد » فوجد كريمة تغط فى نومها على فراش صغير ، على حين بقى فراش رضوان فى الجانب الآخر من الحجرة خاليا ينتظر فراغه من مذكراته . وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها ، ولكنه ذكر ما يصحب ايقاظها فى تلك الساعة من تذمر فعدل عن خاطرته . واتجه صوب حجرته . أجمل الليالى فى هذا البيت حقا هى ليلة الجمعة ، تلك العطلة المقدسة . فاذا عاد الى بيته ليلة الجمعة — بصرف النظر عن الساعة التى يعـود فيها — فانه لا يتردد فى أن يدعو رضوان الى مجلسه بالصالة ، ثم يوقظ كريمة وزنوبة ، ويدير الفونوغـراف ، ويمضى فى محـادثتهم — وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل . كان مغرما بأسرته — خاصة رضوان — أجل لم يكن يشغل نفسه — أو لم يكن لديه الوقت — ليتابعهم برعايته وتوجيهه ، تاركا أمرهم لعناية زنوبة وحكمتهم الفطرية !. ومهما يكن الأمر فانه لم يطق لحظة واحدة أن يمثل حيالهم الدور القاسى الذى مثله أبوه حياله ، وكره من صميم قلبه أن يخلق فى قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذى كان يجده نحو أبيه !. والحق أنه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراده . وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ ، وهو فى نشوة من الخمر والحب ، كان يمازحهم ويسامرهم ، وربما قص عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم فى الحانة ، غير عابىء بأثر ذلك فى الأنفس البريئـة ، مستهينا باحتجاجات زنوبة التى تومىء بها اليه من وراء وراء ، فيبدو وكأنما قد نسى نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة .

وفى حجرته وجد زنوبة — كالعادة — نائمة وليست بنائمة . هكذا كانت أبدا ، فقبل أن يلج الحجرة يترامى اليه شخيرها ، حتى اذا توسـطها تحركت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة

« حمد الله على السلامة » . ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها . وقد بدت فى صورتها الطبيعية أكبر من سنها ، وكثيرا ما ظنها تماثله سنا . ولكنها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره . تلك الغانية القديمة التى نجحت فى معاشرته فيما لم تنجح فيه سيدة من قبل ، فأرست حياته الزوجية الى أساس متين . نعم لقد انتابت حياتهما فى أول الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنها بدت دائما حريصة على حياتهما الزوجية كل الحرص . ومع الأيام صارت أما ، ومنيت بالثكل ، فلم يبق لها الا كريمة ، غير أن ذلك دعاها الى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجية ، خاصة بعد أن تهددها الذبول وناوأها الكبر المبكر . ثم علمتها الأيام أن تتحلى بالصبر والمهادنة ، وأن تتمرس بدور «السيدة» بكل معنى الكلمة ، وغالت فى ذلك الى حد أنها لم تكن تتبرج خارج بيتها حتى فازت أخيرا باحترام بين القصرين ، والسكرية الى حد ما !. وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة ، على الرغم من أنها لم تكن تجد نحوه حبا ، خاصة بعد أن ثكلت فى الذكر الوحيد الذى أنجبته لياسين ، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقتها ونظافتها ، وقد لاحظها ياسين باسما وهى تعيد ترتيب شعرها أمام المرآة ، ومع أنه كان يضيق بها أحيانا الى حد الضجر ، الا أنه كان يشعر بحق بأنها أصبحت شيئا ثمينا فى حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال . وجاءت بشال فتلفعت به وهى تفقفق من البرد ، وقالت متشكية :

— ما أشد البرد !. هلا رحمت نفسك من السهر فى الشتاء ؟!.

فقال ساخرا :

— الخمر تغير الفصول كما تعلمين ، الم تتعبين نفسك بالاستيقاظ ؟ .

فنفخت قائلة :

ــ فعلك متعب وكلامك متعب !.

بدا فى جلبابه كالمنطاد ، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو الى المرآة فى ارتياح ، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان ، ثم ضحك فجأة قائلا :

ــ لو رأيتنى وانا أتبادل التحية مع العساكر ! . أمسى عساكر آخر الليل أصدقائى الأعزاء !.

فغمغمت وهى تتنهد :

ــ يا فرحتى !..

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير فى الغورية بخطواته المتئدة مما يلفت الأنظار حقا . كان فى السابعة عشرة من عمره ، مكحول العينين ، متوسط القامة مع ميل خفيف الى الامتلاء ، أنيق الملبس الى حد التبرج ، ينتسب ببشرته الوردية الى آل عفت ، فهو يشع بهاء ونورا ، وتنم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله . وعندما مر بالسكرية اتجه رأسه اليها فيما يشبه الابتسام ، وذكر لتوه عمته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد ، فوجد لذكرهما شعورا لا يخلو من فتور ، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجعا ــ ولو مرة ــ على أن يتخذ أحدا من أقربائه صديقا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وسرعان ما اجتاز بوابة المتولى ، ثم مال الى الدرب الأحمر ، حتى بلغ به المسير بباب بيت قديم فطرقه وانتظر ، وفتح الباب عن وجه حلمى عزت ، صديق صباه ، وزميله اليوم بكلية الحقوق ، ومنافسه ــ فيما بدا ــ فى الجمال . وتهلل

وجه حلمى لرؤياه ، ثم تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء . ومضينا معا يصعدان السلم ، وفى أثناء ذلك جعل حلمى ينوه بربطة رقبة صديقه وتجاوب لونها مع قميصه وجوربه ، وكان يضرب بهما المثل فى الأناقة وحسن الذوق ، فضلا عن أن اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون . وانتهيا الى حجرة كبيرة عالية السقف ، دل وجود الفراش والمكتب بها على أنها معدة للنوم والمذاكرة معا . والحق أنهما طالما سهرا بها يذاكران ، ثم ناما جنبا الى جنب على الفراش الكبير ذى الأعمدة السوداء والناموسية . ولم يكن بيات رضوان خارج البيت بالشىء الجديد ، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى الى أكثر من بيت لقضاء عدة أيام ، كبيت جده محمد عفت بالجمالية ، أو بيت أمه بالمنيرة ، التى لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حسن ، ولذلك ، ولميل أبيه الطبيعى الى اللامبالاة ، وترحيب زنوبة الخفى بكل ما يبعده عن بيتها ولو الى حين ، لم يجد معارضة فى البيات عند صديقه فى مواسم المذاكرة ، ثم صار الأمر بعد ذلك مألوفا فلم يكن أحد ليعيره أى اهتمام . وفى مثل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمى عزت . توفى أبوه — وكان مأمور قسم — منذ عشرة أعوام . وفى ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوجن ، فعاش وحده مع أمه العجوز . ووجدت المرأة صعوبة فى بادىء الأمر فى السيطرة عليه ، ثم ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كله . وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير ، وايجار الدور الأول من بيتها القديم ، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب ، ولكن حلمى لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكلية الحقوق ، محافظا فى أثناء ذلك كله على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام . وكان سرور حلمى بلقاء صديقه لا يعادله سرور ، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة الا به ، لذلك بعث وجوده فى

نفسه نشاطا وحماسة ، فأجلسه على الكنبة الملاصقة لباب المشربية وجلس الى جانبه ، وراح يفكر فى اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع - لمحادثته ، غير أن نظرة واجمة لاحت فى عينى رضوان اعترضت تيار حماسه ، فرنا اليه متسائلا ، ثم خمن ما هنالك فتبمتم :

- زرت والدتك ؟. أراهن أنك قادم من هناك ..

أدرك رضوان أن صدق تخمين صاحبه يرجع الى وجهه هو ، فلاح الضجر فى عينيه ، وهز رأسه بالايجاب دون أن يتكلم ، فسأله حلمى :

- وكيف حالها ؟.

- عال ...

ثم وهو يتنهد :

- ولكن هذا المدعو محمد حسن !! ، أنت لم تعرف معنى أن يكون لأمك زوج غير أبيك !

فقال حلمى مواسيا :

- كثيرا ما يقع هذا ، لا عيب فيه ، ثم انه شىء قديم !

فهتف رضوان حانقا :

- لا لا لا ، انه دائماً فى البيت ، لا يبرحه الا الى عمله فى الوزارة ، نفسى مرة ازورها فأجدها وحدها ، ويطيب له أن يمثل دور الوالد والمرشد ، سحقا له ، وعند كل مناسبة يذكرنى بأنه رئيس أبى فى ادارة المحفوظات . ولا يتردد عن انتقاد مسلكه فى عمله ، ولكنى من ناحيتى لا أسكت له ..

وصمت دقيقة حتى يهدأ انفعاله ، ثم واصل حديثه :

- أمى حمقاء اذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل ، الم يكن الأفضل أن تعود الى أبى ؟

وكان حلمى يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة ، فقال باسما :

- فى العشق يا ما كنت أنوح !

فلوح رضوان بيده معاندا ، وهو يقول :

- ولو ! ، ان ذوق النساء سر مخيف والأدهى من ذلك أنها فيما يبدو راضية !

- لا تسع وراء ما ينغص صفوك . .

فقال رضوان فى نبرات حزينة :

- يا للعجب ، أن جانبا عريضا من حياتى ينضح بالتعاسة ، انى أمقت زوج أمى ولا أحب امرأة أبى ، جو مشحون بالبغضاء ، ان أبى - كأمى - لم يحسن الاختيار ، ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل ؟ ! ، وامرأة أبى تحسن معاملتى ولكنى لا أتصور أنها تحبنى ، هذه الحياة ما أرذلها !

وجاءت خادم عجوز بالشاى ، فتحلب ريق رضوان الذى عانى فى الطريق من رياح فبراير القاسية . وساد الصمت وهما يذيبان السكر . وتغير تعبير وجه رضوان فآذن ذلك بانهاء السيرة المحزنة ، ورحب حلمى بذلك فقال فى ارتياح :

- تعودت المذاكرة معك ، فلا أدرى كيف أذاكر وحدى . .

فابتسم رضوان متجاوبا مع هذا الشعور الرقيق . ولكنه سأله فجأة :

- هل اطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضة ؟

- نعم ، ولكن كثيرين يلغطون متشائمين بالجو الذى يحيط بالمفاوضة ، ويبدو أن ايطاليا - التى تهدد حدودنا - هى محور المفاوضة الحقيقى ، والانجليز من جانبهم يهددون فى حال فشل الاتفاق !

- أن دماء الشهداء لم تبرد بعد ، وعندنا دماء جديدة !

فهز حلمى رأسه قائلا :

- هذا كلام يقال ، لقد سكت القتال وبدأ الكلام ، ما رأيك ؟

— على أى حال فان للوفد أغلبية ساحقة فى هيئة المفاوضة ، تصور أنى سألت محمد حسن زوج أمى عن رأيه فى الموقف ، فقال لى ساخرا « أتتوهم حقا أن الانجليز يمكن أن يخرجوا من مصر ؟! » ، هذا هو الرجل الذى ارتضته أمى زوجا !

فضحك حلمى عزت عاليا وسأله :

— وهل يختلف رأى أبيك عن ذلك ؟

— ان أبى يكره الانجليز ، وحسبه ذالك .

— أيكرههم من صميم قلبه ؟

— ان أبى لا يكره ولا يحب شيئا من صميم قلبه !

— انى أسألك عن رأيك أنت ، فهل أنت مطمئن ؟

— لم لا ، حتى متى تبقى القضية معلقة ؟ ، أربعة وخمسون عاما من الاحتلال ، أف ، لست أنا التعيس وحدى !

فتناول حلمى عزت آخر رشفة من قدحه ، وقال باسما :

— يبدو لى أنك كنت تحادثنى بهذه الحماسة عندما وقعت عيناه عليك !

— من ؟

فابتسم حلمى ابتسامة غريبة ، وقال :

— كلما تحمست تورد وجهك وبرز جمالك فى أحسن أحواله ، وفى لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شك وأنت تحادثنى ، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة الى بيت الأمة داعين الى الاتحاد ، الا تذكر ذلك اليوم ؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول اخفاءه :

— نعم ، ولكن من هو ؟

— عبد الرحيم باشا عيسى !

فتفكر رضوان قليلا ثم تمتم :

— رأيته مرة عن بعد . .

ـ أما هو فقد رآك ذلك اليوم لأول مرة .

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام ، فعاد حلمى يقول :

ـ وعندما قابلنى عقب انصرافك سألنى عنك ، وطلب الى أن أقدمك اليه فى أول فرصة !

وتبسم رضوان ثم قال :

ـ هات كل ما عندك .

فقال حلمى وهو يربت منكب صاحبه :

ـ دعانى وسألنى بخفته ـ على فكرة هو خفيف جدا ـ : « من المليح الذى كان يحدثك ؟ » فأجبته أنه زميل فى الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الخ . فسألنى باهتمام : « ومتى تقدمه الى ؟ » فسألته بدورى متجاهلا غرضه : « ولمه يا باشا ؟ » فانفجر قائلا كالغاضب ـ هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانا ـ : « لأعطيه درسا فى الديانة يابن الكلب » . فضحكت بدورى حتى كتم فمى بيده ..

وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح فى الخارج ، وترامى صوت ارتطام ضلفة شباك بجدار ، ثم علا صوت رضوان وهو يتساءل :

ـ سمعت عنه كثيرا ، أهو كما يقال ؟

ـ وأكثر ...

ـ لكنه عجوز !

فقال حلمى عزت وأساريره تنطق بالضحك دون صوت :

ـ هذا فى المرتبة الأخيرة من الأهمية ، انه رجل كبير المقام ، ظريف ، ذو نفوذ ، ولعل شيخوخته أجل فائدة من الشباب ..

فعاود رضوان الابتسام ، ثم تساءل :

ـ أين منزله ؟

ــ ڤيلا هادئة فى حلوان .

ــ آه تكتظ بالقاصدين من كافة الطبقات !

ــ سنكون ضمن مريديه ، لم لا ؟ ! ، انه من شيوخ الساسة ونحن من شبابهم !

فتساءل رضوان فى شىء من الحذر :

ــ وزوجه وأولاده ؟

ــ يا لك من جاهل ، انه أعزب ، لم يتزوج قط ولا يحب هذه السيرة ، كان وحيد أبويه ، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنه مقطوع من شجرة ، واذا عرفته فلن تسلو عنه أبدا . .

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات ، حتى قال حلمى عزت فى شىء من الجزع :

ــ سلنى متى نذهب لزيارته من فضلك ؟

فقال رضوان وهو ينظر الى ثمالة الشاى فى قدحه :

ــ متى نذهب لزيارته ؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية فى البساطة والأناقة . ڤيلا سمراء مكونة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار ، ويستهل بسلاملك . وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة فى صمت مريح . وكان يجلس على أريكة عند الباب البواب وسائق السيارة ، بواب نوبى بارع القسمات ممشوق القوام ، وسائق فى ريق الشباب مورد الخدين . وهمس حلمى عزت فى أذن رضوان وهو يمد بصره نحو السلاملك :

— صدق الباشا فيما وعد ، فلا زائر اليوم غيرنا !

وكان حلمى عزت معروفا لدى البواب والسائق ، فوقفا لاستقباله فى أدب ، ولما داعبهما ممازحا انطلقا يضحكان دون كلفة . وكان الجو قارص البرودة رغم جفافه ، فدخلا بهو استقبال آية فى الفخامة ، تتصدره صورة كبيرة لسعد زغلول فى بدلة التشريفة. ومال حلمى عزت الى مرآة ممتدة طولا حتى السقف تتوسط الجدار الأيمن ، فألقى على صورته نظرة متفحصة طويلة ، فلم يتردد رضوان أن يلحق به ، وأن يمتحن منظره بنظرة مثلها ، حتى قال حلمى باسما :

— قمران يرتديان بدلة وطربوشا ، واللى يعشق جمال النبى يصلى عليه !.

وجلسا متجاورين على كنبة مذهبة ذات غطاء أزرق ومثير . ومرت دقائق ثم سمعت حركة آتية من وراء الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد ، فاتجه ناحيتها رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام . وما لبث أن تراءى الرجل فى بدلة سوداء أنيقة ، تنتشر بين يديه رائحة زكية ، وقد بدا داكن السمرة ، حليق الوجه ، نحيل الجسم ، مائلا الى الطول نوعا ، ذا قسمات دقيقة برأها الكبر ، وعينين صغيرتين ذابلتين ، أما طربوشه فقد مال الى الأمام حتى كاد يمس حاجبيه ، وكان يتقدم هادئا وقورا فى خطوات متقاربة وبطيئة معا ، فانعكس منه الى قلب الشاب اجلال وطمأنينة . ولازم الصمت حتى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستقباله ، ثم تفحصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلا حتى اختلج جفناه ، ثم ابتسم فجأة ، فشاع فى الوجه القديم ايناس وجاذبية قربت المسافة التى تفصل بينه وبينهما حتى لم تعد شيئا . ومد حلمى يده فتناولها الآخر واستبقاها فى يده ، ثم

مد بوزه وانتظر ، فأدرك حلمى غرضه ، وسرعان ما عرض له خده فقبله ، ثم نظر صوب رضوان قائلا بصوت رقيق :

ـ لا تؤاخذنى يا بنى ، فهذه هى طريقة السلام عندى . . .

ومد رضوان يده فى حياء ، فتناولها الرجل وهو يتساءل ضاحكا :

ـ وخدك ؟

فتورد وجه رضوان ، وهتف حلمى مشيرا الى نفسه :

ـ المخابرة يا سعادة الباشا مع ولى الأمر !

فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة رضوان ، ثم دعاهما الى الجلوس وهو يجلس على مقعد كبير على كثب منهما ، وقال باسما :

ـ ولى أمرك هذا ملعون يا رضوان ، أليس هذا هو اسمك ؟ ، أهلا وسهلا ، لقد رأيتك فى صحبة هذا الولد الشقى ، فراقنى أدبك وتمنيت القاءك ، وها أنت لم تضن على به . .

ـ انى سعيد بالتشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا .

فقال الرجل وهو يدير خاتما ذهبيا كبيرا فى بنصر يسراه :

ـ أستغفر الله يا بنى ، لا تستعمل عبارات التعظيم وألقاب التفخيم ، انى لا أحب شيئا من هذا كله ، الذى يهمنى حقا هو الروح اللطيف والنفس الصافية والاخلاص ، أما سعادة الباشا وسعادة البك فكلنا أبناء آدم وحواء ، الواقع لقد راقنى أدبك فوددت لو أدعوك الى بيتى ، فأهلا بك وسهلا ، أنت زميل حلمى فى كلية الحقوق ، أليس كذلك ؟

ـ نعم يا فندم ، اننا زملاء من عهد خليل أغا الابتدائية . .

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين فى اعجاب قائلا :

ـ زمالة صبا !. . (ثم وهو يهز رأسه) . . جميل ، جميل ، لعلك مثله من حى الحسين ؟

ــ نعم يا سيدى ، ولدت فى بيت جدى السيد محمد عفت بالجمالية ، وأقيم الآن بمنزل والدى بقصر الشوق ..

فقال الرجل فى سرور بلغ حد النشوة :

ــ أحياء مصر الأصيلة ، البقاع الطيبة ، ما رأيك لقد عشت فيها دهرا مع المرحوم أبى فى بيرجوان ، كنت وحيد أبوى ، وكنت عفريتا ، وطالما جمعت الصبيان فى شبه زفة ومضينا من حارة الى حارة نعاكس طوب الأرض ، ويا ويل الدنف لو رماه القــدر الى طريقنا ، وكان أبى يثور غضبه فيجرى ورائى بالعصا ، .. قلت يا بنى أن جدك هو محمد عفت ؟

فقال رضوان بفخار :

ــ نعم يا سيدى ..

فتفكر الباشا قليلا ثم قال :

ــ أذكر أنى رأيته مرة فى بيت نائب الجمالية ، رجل وجيه ووطنى صادق ، كاد يرشح نائبا فى الانتخابات القادمة لولا تنحيه فى آخر لحظة لصديقه النائب القديم ، ان آلاتحــاد الأخير أوجب الصداقة فى الانتخابات حتى يظفر اخواننا الأحرار الدستوريون ببعض المقاعد ، اذن أنت زميل حلمى فى الحقوق !. جميل ، القانون سيد الدراســات ، وهو يتطلب لدراســته ذكاء لماعا ، أما عن المستقبل فما عليك الا الاجتهاد !

وجد فى نبراته الأخيرة ما يوحى بالوعد والتشجيع ، فدب فى قلبه الطموح والحماسة فقال :

ــ نحن لم نفشل ولا مرة واحدة فى حياتنا الدراسية !.

ــ براڤو ، هذا هو الأساس ، بعدذلك تجىء النيابة ثم القضاء ، وسيوجد دائما من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين ، حياة القضاء شىء عظيم ، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحى ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين ، وقد تركت القضاء للاشتغال

بالسياسة ، فالوطنية تحتم علينا أحيانا أن نهجر أعمالنا المحبوبة ، ولكن الى اليوم تجد من يضرب بنا المثل فى العدالة والنزاهة ، فضع نصب عينيك فى الاجتهاد والنزاهة وأنت حر بعد ذلك فى حياتك الخاصة ، قم بواجبك وافعل ما تشاء ، أما اذا قصرت فى الواجب فلن يرى فيك الناس الا النقائص ، ألا ترى أنه لا يحلو لكثير من الفضوليين الا أن يقولوا فلان الوزين به الداء الفلانى ، وفلان الشاعر به الداء العلانى . حسن ، ولكن ليس كل المصابين وزراء وشعراء ، فكن وزيرا وشاعراً أولا وافعل بعد ذلك ما تشاء ، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . .

وهنا قال حلمى عزت بخبث :

ــ كفى المرء نبلا أن تعد معايبه ، أليس كذلك يا سعادة الباشا ؟

فثنى الرجل رأسه الى منكبه الأيمن ، وقال :

ــ طبعا ، سبحان من له الكمال وحده ، الانسان ضعيف جدا يا رضوان ، ولكن عليه أن يكون قويا فى الجوانب الأخرى . مفهوم ؟ . لو تشاء أحدثك عن كبار الرجال فى الدولة ولن تجد واحدا خاليا من داء ، وسوف نتحادث طويلا ونتدارس العبر كما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . .

فنظر حلمى الى رضوان قائلا :

ــ ألم أقل لك ان صداقة الباشا كنز لا يفنى ؟ .

فقال عبد الرحيم عيسى موجها الخطاب الى رضوان الذى لم تكد تتحول عنه عيناه :

ــ انى أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس ، وديدنى أن آخذ بيد الصغير حتى يكبر ، وأى شىء فى الدنيا خير من الحب ؟ . يجب اذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلها معا ، واذا فكرنا فى المستقبل أن نفكر معا ، واذا نازعتنا أنفسنا الى الراحة أن نرتاح

معا ، ما وجدت رجلا حكيما مثل حسن بك عماد ، اليوم هو من رجال السلك السياسى المعدودين ، ودعك من أنه من أعدائى السياسيين ، ولكنه كان اذا تفرغ لبحث قتله ، واذا طرب رقص عاريا ، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيما واسع .. الادراك ! ألست واسع الادراك يا رضوان ؟ .

فأجاب عنه حلمى عزت من فوره :

ـ اذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه ! .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفلية نمت عن رغبته التى لا حد لها فى المسرة ، وقال :

ـ هذا الولد عفريت يا رضوان ، لكن ما حيلتى ؟ . انه زميل صباك يا بخته ، ولست أنا القائل ان الطيور على أشكالها تقع ، لازم أنت أيضا عفريت ، خبرنى يا رضوان من أنت ؟ . هه . انك تركتنى أتكلم بلا وعى وأنت صامت كدهاة السياسة ، هه ؟ . قل يا رضوان ماذا تحب وماذا تكره ؟ .

عند ذاك دخل الخادم حاملا صينية القهوة ، وكان فتى أمرد شبيها بالبواب والسائق ، فشربوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر ، وجعل الباشا يقول :

ـ الماء بالزهر شراب أهل الحسين ، أليس كذلك ؟ .

فغمغم رضوان باسما :

ـ نعم يا سيدى .

فقال الباشا وهو يهز رأسه طربا :

ـ يا أهل الحسين مدد ! .

وضحكوا جميعا ، حتى الخادم ابتسم وهو يغادر البهو ، واستطرد الباشا متسائلا :

ـ ماذا تحب ؟ . وما تكره ؟ . تكلم بصراحة يا رضوان ، دعنى أيسر لك الجواب ، أأنت مهتم بالسياسة ؟ .

فقال حلمى عزت :

ــ كلانا فى لجنة الطلبة . .

ــ هذا أول سبب للمقاربة بيننا ، وهل لك فى الأدب ؟ .

فأجاب حلمى عزت :

ــ انه مغرم بشوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فنهره الباشا قائلا :

ــ اسكت أنت ، أريد يا أخى أن أسمع صوته . .

فضحكوا ، وقال رضوان باسما :

ــ انى أموت فى شوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فقال الباشا باعجاب :

ــ « أموت فى » ، يا له من تعبير ، لا تسمعه الا فى الجمالية ، أهى نسبة الى الجمال يا رضوان ؟ . اذن أنت من هواة « فضة ذهب » و « فى الليل لما خلى » و « من يكن » و « فنن يشيله وفنن يحطه » ، الله . . الله ، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية ، وهل تحب الغناء ؟ .

ــ انه من غواة . .

ــ اسكت أنت . .

فضحكوا مرة أخرى ، وقال رضوان :

ــ أم كلثوم .

ــ جميل ، لعلى من عشاق القديم ، ولكن الغناء كله جميل ، فأنا أحبه ثقيله وخفيفه كما يقول المعرى ، أو أموت فيه كما تقول حضرتك ، جميل جدا ، الليلة عجب . .

ودق جرس التليفون ، فنهض الباشا اليه ، ووضع السماعة على أذنه وهو يقول : آلو ! .

ــ أهلا أهلا معالى الباشا .

ــ . . . .

ـــ وما وجه العجب فى ذلك ! . ألا يجلس اسماعيل صدقى نفسه اليوم فى هيئة المفاوضات كزعيم من زعماء الوطن ؟ !

ـــ .. ..

ـــ أنا قلت رأيى للزعيم صراحة ، وهو رأى ماهر والنقراشى أيضـــا .

ـــ .. ..

ـــ آسف يا باشا ، لا أستطيع ، أنا لا أنسى أن الملك فؤاد هو الذى عارض فى ترقيـــتى يوما ، والملك فؤاد آخر من يتـــكلم فى الأخلاق ، وعلى أى حال سأقابلك غدا فى النـــادى ، سلام عليكم يا باشـــا ..

وعاد الرجل متجهم الوجه ، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلا :

ـــ نعم يا سيد رضوان ، تعارفنا وما أجمل التعارف ، أنصحك بالاجتهاد ، أنصحك بألا تتخلى عن الواجب والمثل الأعلى ، بعـــد ذلك أحدثك على الطرب والهناء ..

وهنا نظر رضـــوان فى ســـاعته ، فلاح الجزع فى وجه الباشا وقال :

ـــ الا هذا ! ، الساعة عدو مجالس الأنس .

فتمتم رضوان فى شىء من الارتباك :

ـــ ولكننا تأخرنا يا سعادة الباشا .

ـــ تأخرنا ! . أتعنى أنه تأخر بى العـــمر ؟ ! . أخطأت يا بنى ، ما زلت أحب الســـهر والجمال والغناء بعـــد الســـاعة الواحدة ، الســـهرة لم تبدأ بعـــد ، لم نقل الا بسم الله الرحمن الرحيم ، لا تعترض . الســـيارة تحت أمركما حتى الصباح ، وبلغنى أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة ، فلنذاكر ، لم لا ؟ . ما أحلى أن أعود الى المدخل فى القانون العام أو شىء من الشريعة ، بهـــذه المناسبة

من يدرس لكم الشريعة ؟ . الشيخ ابراهيم نديم ، مساه الله بالخير ، انه كابتن عظيم ، لا تدهش ، سنؤرخ يوما لكل رجال العصر ، يجب أن تفهم كل شيء ، ليلتنا ليلة محبة وصداقة ، خبرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة ؟ .

فقال حلمي باطمئنان :

ـ ويسكي وصودا وشواء .

فتساءل الباشا ضاحكا :

ـ وهل الشواء شراب يا شقي ؟ .

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغير . وهكذا جمعت الصالة بين الأب ابراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد ، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة دون عمل فقد جلست بينهم وهي تطرز غطاء مائدة ، وقد بدأ الكبر أخيرا على ابراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة ، فشاب شعره وترهل بعض الشيء ، وان حافظ فيما عدا ذلك على صحة يحسد عليها . وكان يدخن سيجارة ، ويأخذ مكانه بين ابنيه في هدوء وطمأنينة ، تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليدية ، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث ، فيما بينهما حينا ، أو مع الأب أو الأم التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها ، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم . لم يعد في الجو ما ينغص على خديجة صفوها ، اذ لم يبق من ينازعها السيادة على بيتها مذ توفيت حماتها . كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تخذلها أبدا ، وترعى سمانتها بعناية فائقة وهي

جوهر جمالها كله ، وتحاول فرض رعايتها على الجميع ، الأب والابنين ، فيطاوع الرجل ، وأما عبد المنعم واحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيذين بحبها من سطوتها . وقد نجحت منذ سنوات فى حمل زوجها على احترام تقاليد الدين ، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما ، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبا على ذلك من قبل ، غير أن أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين ، وجعل يتهرب من استجواب أمه كلما استجوبته أو يتعلل بعذر أو بآخر . وكان ابراهيم شوكت يحب ابنيه حبا جما ، ويعجب بهما أشد الاعجاب ، وينوه فى كل فرصة بنجاحهما المتواصل الذى بلغ بعبد المنعم كلية الحقوق وبأحمد نهاية المرحلة الثانوية ، وفى ذلك كانت خديجة تقول فى مباهاة :

ـ كل هذا ثمرة اهتمامى أنا ، لو ترك الأمر لك ما فلح أحدهما ولا كان له شأن ..

وقد ثبت أخيرا أنها نسيت مبادىء القراءة والكتابة لعدم الاستعمال مما جعلها هدفا لسخرية ابراهيم ، حتى اقترح ابناها أن يذكراها بما نسيت ردا لجميلها الذى تباهى به ، فغضبت قليلا وضحكت كثيرا ، ثم لخصت الحال فى كلمة قائلة :

ـ لا حاجة بامرأة الى الكتابة والقراءة ما ذامت لا تكتب رسائل غرام !

بدت فى أسرتها سعيدة راضية ، ولعل شهية عبد المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيرا ، كما أن نحافتهما كانت تغيظها فقالت باستياء :

ـ قلت ألف مرة انه يجب أن تغيرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيتكما ، يجب أن تأكلا جيدا ، الا تريان أباكما كيف يأكل ؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما ، فقال الرجل :

ـ ولماذا لا تضربين المثل بنفسك ، وانت تأكلين كالطاحونة ؟

فقالت باسمة :

ــ انى أترك لهما الحكم والخيار .

فقال ابراهيم محتجا :

ــ عينك يا شيخة ! ، أصابتنى ، لذلك نصحنى الدكتور بأن أخلع أسنانى ..

فلاحت فى عينيها نظرة رقيقة ، وقالت :

ــ لا تجزع ، ستذهب بشرها ، ولن تشكو ألما بعد ذلك ان شاء الله ..

وهنا خاطبها أحمد قائلا :

ــ جارنا الساكن فى الدور الثانى يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم ، قابلنى على السلم فرجانى فى ذلك !

فسألته وهى تنظر اليه مقطبة :

ــ وماذا قلت له ؟

ــ وعدته بأن أحدث أبى ..

ــ وهل حدثت أباك ؟

ــ ها انا أحدثك أنت !

ــ اننا لا نشاركه فى شقته فلا يجوز له أن يشاركنا فى رزقنا ، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأول ، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيما لا يعنيك ..

فنظر أحمد الى أبيه متسائلا :

ــ ما رايك يا بابا ؟

فابتسم ابراهيم شوكت قائلا :

ــ فى عرضك لا تصدع دماغى ، عندك أمك ..

فعاد أحمد الى أمه قائلا :

ــ اذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع ..

فقالت خديجة بامتعاض :

— لقد حدثتني زوجه وأجلت لها الدفع فليرتح بالك ، ولكنى أفهمتها أن أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب ، أفى ذلك خطأ ؟ ، انى ألام أحيانا لأنى لم أتخذ من جاراتى صديقات ، ولكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة ..

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه :

— وهل نحن خير من الناس ؟

فعبست خديجة قائلة :

— نعم ، الا اذا كان لك فى نفسك رأى آخر !

فقال عبد المنعم :

— رأيه فى نفســه انه خير الناس جميعا ، لا رأى الا رأيه ، والحكمة موقوفة على رأسه !

فقالت خديجة متهكمة :

— ومن رأيه أيضــا أن يستأجر النــاس البيوت دون دفع أجرتهــا !

فقال عبد المنعم ضاحكا :

— انه غير مقتنع بأنه من حق بعض النــاس أن يملكوا بيوتا على الاطلاق ...

فقالت خديجة وهى تهز رأسها :

— ياعينى على الرأى الفقرى ..

وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة ، فهز عبد المنعم منكبيــه باستهانة وهو يقول :

— راجع نفسك قبل أن تغضب ..

فقال أحمد محتجا :

— يحسن بنا الا نتناقش معا !

— بل انتظر حتى تكبر ..

— انك أكبر منى بعام لا أكثر ..

ـ أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة . .

ـ هذا المثل لا أومن به !

ـ اسمع ، لا يهمنى الا شيء واحد ، هو أن تعود الى الصلاة معى . . .

فهزت خديجة رأسها بأسف وهى تقول :

ـ صدق أخوك ، الناس تكبر تعقل أما انت فأعوذ بالله منك ، حتى أبوك صلى وصام ، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت ؟ ، انى اتساءل ليل نهار !

فقال عبد المنعم بصوت قوى شديد الثقة بنفسه :

ـ بالصراحة ان رأسه يحتاج الى تطهير من الداخل . .

ـ انه . . .

ـ اسمعى ، هذا الشاب لا دين له ، هذا ما بت أعتقده . .

فلوح أحمد بيده كالغاضب ، وهتف متسائلا :

ـ من أين لك الحق فى الحكم على القلوب ؟

ـ الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يدارى ابتسامة) يا عدو الله !

فقال ابراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته :

ـ لا تتهم أخاك ظلما .

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهى تلحظ أحمد :

ـ لا تسلب أخاك أعز ما يملك الانسان ، كيف لا يكون مؤمنا ؟!، ان آل أمه لا تنقصهم الا العمائم ليكونوا من رجال الدين ، وكان جده من صميم رجال الدين ، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبدون كأننا فى جامع !

فقال أحمد متهكما :

ـ مثل خالى ياسين . . !

وندت عن ابراهيم شوكت ضحكة ، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب :

ـ تكلم عن خالك بأدب ، ماله ؟ ، قلبه عامر بالايمان وربنا يهديه ، انظر الى جدك وجدتك ..

ـ وخالى كمال ؟

ـ خالك كمال من محاسيب الحسين ، أنت لا تدرى شيئا .

ـ بعض الناس لا يدرون شيئا ..

فسأله عبد المنعم محتدا :

ـ لو كان الناس جميعا مهملين فى دينهم ، فهل يشفع لك ذلك ؟

فقال أحمد فى هدوء :

ـ على أى حال اطمئن ، فلن تؤخذ يوما بذنبى !

وهنا قال ابراهيم شوكت :

ـ كفاكما خصاما ، نفسى أراكما كرضوان ابن خالكما ..

فحدجته خديجة بنظرة استياء ، كأنما عز عليها أن يعد رضوان خيرا من ابنيها ، فقال ابراهيم موضحا رأيه :

ـ هذا الشاب على صلة بكبار الساسة ، شاب ذكى ، وقد ضمن بذلك مستقبلا باهرا ..

فقالت خديجة غاضبة :

ـ لست من رأيك ، رضوان شاب سيىء الحظ ، ككل شاب يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه ، وزنوبة « هانم » لا تهتم فى الواقع بأمره ، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الانجليز ، لذلك لا يقر للمسكين قرار ، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته ، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها ، انه طالب مع عبد المنعم فى سنة واحدة ، فما معنى هذا التداخل الخطير ؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال ...

فرمقها ابراهيم بنظرة كأنما يقول لها : « لا يمكن أن تقرينى على رأى » ، ثم قال مواصلا ايضاح رأيه :

ـ ليس الشبان اليوم كما كانوا فى الزمن الماضى ، السياسة

غيرت كل شيء ، فكل كبير له مريدوه منهم ، والطموح الذى يريد أن يشق سبيله فى الحياة لا بد له من كبير يرجع اليـــه ، ان مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبرياء !

فقالت خديجة بكبرياء :

ــ أبى يسعى الناس الى التعرف به ولا يسعى هو الى أحد ، أما عن السياسة فأبنائى لا شأن لهم بها ، لو أتيح لهمـــا أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسهما معنى كلامى ، بين يحيا فلان ويسقط علان يهلك أبناء الناس ، ولو عاش المرحوم فهمى لكان من أكبر القضاة اليوم . . .

فقال عبد المنعم :

ــ لكل طريقته ، نحن لا نقلد أحـــدا ، ولو أردنا أن نـــكون كرضوان لكنا . . .

فقالت خديجة :

ــ أحسنت !

وقال له أبوه باسما :

ــ أنت كأمك ، وكلاكما لا تســاويان شيئا . .

ودق الباب ، فجاءت الخادم تؤذن بقـــدوم الجارة الساكنة فى الدور الأول ، فقالت خديجة وهى تهم بالقيام :

ــ ماذا تريد يا ترى ؟ . . ان كان فى الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا الا قسم الجمالية . . !

١١

كان الموسكى شديد الزحام ، اكتظ بأهله وما أكثرهم فضلا عما استجد عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة . وكانت شمس ابريل الصافية تقذف الهبا ، فشق عبد المنعم وأحمد سبيلهما فى جهد غير يسير وهما يتصببان عرقا. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه :

ـ حدثنى عن شعورك ..

فتفكر عبد المنعم قليلا ، ثم راح يقول :

ـ لا أدرى ، الموت رهيب ، فما بالك بموت ملك ، وكان طريق الجنازة مكتظا بالناس بصورة لم أشهدها من قبل ، أنا لم اشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنازتين ، ولكن يبدو لى أن أكثر الناس كان متأثرا على نحو ما ، وبعض النساء بكين ، نحن المصريين قوم عاطفيون ..

ـ لكنى أسألك عن شعورك أنت ؟ .

فعاد عبد المنعم يفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس ، ثم قال :

ـ لم أكن أحبه ، وهذا اعتنقناه جميعا فأنا لم أحزن ، ولكننى لم أسر كذلك ، تابعت النعش بعين من لا قلب له ، لا له ولا عليه ، غير أن فكرة الجبار فى النعش أثرت فى ، لا يمكن أن يمر منظر كهذا دون أن يؤثر فى ، لله الملك جميعا ، هو الحى الباقى فليت الناس يعلمون ، غير أنه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التى كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون جدا ، وأنت ما شعورك ؟ .

فقال أحمد باسما :

ـ أنا لا أحب الطغاة أيا كانت الحالة السياسية ! .

ـ هذا حسن ، ولكن منظر الموت ؟ .

ـ ولا أحب الرومانتيكية المريضة ! .

فتساءل عبد المنعم فى ضجر :

ـ أسررت اذن ؟ .

ـ تمنيت أن يمتد بى العمر حتى أرى العالم وقد خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم ...

وسكتا قليلا وكان التعب قد نال منهما كل منال ، ثم عاد أحمد يتساءل :

ـ وماذا عما بعد ذلك ؟ .

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التى اشتهر بها :

ـ فاروق غلام ، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق ، فاذا سارت الأمور سيرا حسنا ، فنجحت المفاوضات ، وعاد الوفد الى الحكم ، فسوف تستقر الأمور وينقضى عهد المؤامرات ، .. المستقبل حسن فيما يبدو ...

ـ والانجليز ؟ .

ـ اذا نجحت المفاوضات انقلب الانجليز أصدقاء ، وبالتالى ينقطع التحالف القائم بين السراى والانجليز ضد الشعب ، فلا يجد الملك بدا من احترام الدستور ...

ـ الوفد خير من غيره ...

ـ بلا شك ، انه لم يحكم طويلا حتى يعرف مدى قدرته ، وقريبا تكشف التجربة عن امكانياته الحقيقية ، انى أوافقك على أنه خير من غيره ، ولكن طموحنا لن يقف عنده ! .

ـ طبعا ، انى أومن بأن حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطور أعظم ، هذا كل ما هنالك ، ولكن هل نتفق مع الانجليز حقا ؟ .

ـ اما الاتفاق واما العودة الى عهد صدقى ، فى أمتنا احتياطى

من الخونة لا ينفد ، كل مهمته دائما تأديب الوفد اذا قال للانجليز « لا » ، وانهم لفى الانتظار وان انضموا اليوم الى صفوف الأمة ، صدقى ومحمد محمود وغيرهما فى الانتظار ، هذه هى المأساة . . .

وعندما بلغا السكة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدهما أحمد عبد الجواد الذى كان متجها صوب الصاغة ، فتقدما اليه ، وسلما عليه باجلال ، فسألهما باسما :

ـ من أين والى أين ؟ .

فقال عبد المنعم :

ـ كنا نتفرج على جنازة الملك فؤاد . . .

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

ـ سعيكما مشكور ! .

ثم صافحهما ومضى كل الى حال سبيله . واتبعه أحمد نظره قليلا ، ثم قال :

ـ جدنا ظريف وأنيق ، لقد ملأ أنفى شذا طيبا . . .

ـ نينة تروى عن جبروته الأعاجيب . . .

ـ لا أظنه جبارا ، هذا شىء لا يصدق .

فضحك عبد المنعم قائلا :

ـ ان الملك فؤاد نفسه بدا فى أواخر عهده لطيفا طيبا . . .

وضحكا معا . ومضيا الى قهوة أحمد عبده . وفى الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيخا مرسل اللحية حاد البصر يتوسط جمعا من الشبان يتطلعون اليه فى اهتمام ، فتوقف وهو يقول لأخيه :

ـ الشيخ على المنوفى صديقك ، أخرجت الأرض أثقالها ، ينبغى أن أتركك هنا . . .

فقال له عبد المنعم :

ــ تعال اجلس معنا ، أحب أن تجالسه وتسمع له ، ناقشه كيفما شئت ، كثير ممن حوله من طلبة الجامعة . .

فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه :

ــ لا يا عم ، كدت مرة اشتبك معه فى عراك ، أنا لا أحب المتعصبين ، مع السلامة . . .

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد ، ثم قال بحدة :

ــ مع السلامة ، ربنا يهديك . .

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية ، فنهض الرجل لاستقباله ــ وقد نهض معه جميع الجلوس حوله ــ وتعانقا ، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحصا عبد المنعم بعينيه الحادتين :

ــ لم نرك أمس ؟.

ــ المذاكرة . . .

ــ الاجتهاد عذر مقبول ، وما ل أخيك قد تركك وذهب ؟.

فابتسم عبد المنعم ولم يجب ، فقال الشيخ على المنوفى :

ــ ربنا الهادى ، لا تعجبوا له ، لقد صادف مرشدنا كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشد المخلصين لدعوته ، ذلك أن الله اذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان ، ونحن جنود الله ، ننشر نوره ونحارب عدوه ، وهبنا أرواحنا له من دون الناس ، فما أسعدكم جنود الله . . .

وقال أحد الجالسين :

ــ ولكن مملكة الشيطان كبيرة !

فقال الشيخ على المنوفى معاتبا :

ــ انظروا الى من يخاف دنيا الشيطان والله معه !. ماذا نقول له ؟ . نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف ؟. من من جنود الأرض يتمتع بقوتكم ؟. وأى سلاح أحد من سلاحكم ؟. الانجليز

والفرنسيون والألمان والطليان جل اعتمادهم على الحضارة المادية ، أما انتم فاعتمادكم على الايمان الصادق ، ان الايمان يفل الحديد ، الايمان أقوى قوة فى العالم ، املأوا قلوبكم الطاهرة بالايمان تخلص الدنيا لكم . . .

فقال آخر :

ـ نحن مؤمنون ، ولكننا أمة ضعيفة .

فكور الشيخ قبضته وشد عليها وهو يهتف :

ـ اذا كنت تستشعر ضـعفا فايمانك يعتوره نقص وأنت لا تدرى ، الايمان خالق القوة وباعثها ، أن القنابل تصنعها أيد كأيدينا وهى ثمرة القوة قبل أن تكون من مسبباتها ، كيف انتصر النبى على أهل الجزيرة ؟ . وكيف قهر العرب العالم كله ؟.

فقال عبد المنعم بحماسة :

ـ الايمان .. الايمان ..

غير أن صوتا رابعا تساءل :

ـ ولكن كيف كان للانجليز هذه القوة وهم قوم غير مؤمنين ؟ .

فابتسم الشيخ متخللا لحيته بأصابعه وهو يقول :

ـ لكل قوى ايمانه ، انهم يؤمنون بالوطن وبالمصلحة ، أما الايمان بالله فهو فوق كل شىء ، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا ، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها ، يجب أن يبعث الاسلام كما بعث أول مرة ، نحن مسلمون اسما فيجب أن نكون مسلمين فعلا ، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلة علينا ، فلنعد الى الكتاب ، هذا هو شعارنا ، العودة الى القرآن ، بذلك نادى المرشد فى الاسماعيلية ، ومن ساعتها ودعوته تسرى فى الأرواح ، غازية القرى والدساكر حتى تملأ القلوب جميعا . . .

ـ ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة ؟.

ـ الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة ، ان آلله أرحم من أن يترك أخطر أمور الانسانية دون تشريع وتوجيه ، وهـذا فى الواقع هو درسنا الليلة ...

كان الشيخ شديد الحماسة ، وكانت طريقته أن يقرر حقيقة ما ، ثم تدور حولها المناقشة ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه ، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث . وكان يتحدث وكأنه يخطب ، أو كأنه يخطب الجالسين فى القهوة جميعا ، فسمعه أحمد وهو جالس فى أقصى المكان ، يحتسى الشاى الأخضر ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة . وكان يقيس الشقة بينه وبين هذه المجموعة المتحمسة فى عجب ، ويجد نحوها ازدراء وغضبا . وثار به التحدى مرة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتى لا يعكر على رواد القهوة صفاء راحتهم ، ولكنه عدل عما هم به فى اللحظة التى تذكر وجود أخيه بينهم . وأخيرا لم يجد بدا من مغادرة القهوة ، فقام ساخطا وغادرها ...

١٢

عاد عبد المنعم الى السكرية حوالى الثامنة مساء . وكان الجو قد سكت حنقه فمـال الى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع . كان الدرس ما يزال يكبر فى رأسه ويتردد فى قلبه ، ولكن أعياه الجهد والفكر . وعبر حوش البيت فى ظلام دامس ثم اتجه الى السلم ، وفى تلك اللحظة فتح باب الدور الأول ، وعلى الضـوء المنبعث من داخل الشقة رأى شبحا يتسلل الى الخارج ثم أغلق الباب وراءه وسبقه الى السلم . وخفق قلبه وجرى دمه حارا كحشرة هيجها القيظ . رآها فى الظلام تنتظر عند أول بسطة

وتتطلع نحوه، فتطلع نحوها ، ولم يتحول عنها رأسه . وعجب كيف يستغفل الصغار الكبار ، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجة زيارة الجيران ، وسوف تزور الجيران ، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلم المستكنة فى الظلام . ولتوه وجد رأسه فارغا ، تبخر ما كان يصطرع فيه من أفكار ويتطاير ، وتركز هو فى رغبة واحدة هى أن يشبع النهم الذى بات يؤرق أعصابه وأعضاءه . أما ذلك الايمان الصادق فيبدو أنه ولى غاضبا ، أو غاص فى الأعماق يدمدم حانقا ولكن صوته ضاع فى أزيز النار المستعرة . أليست هى فتاته ؟ . بلى ، تشهد بذلك حنايا الحوش وبئر السلم وركن السطح المطل على السكرية . وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقى به فى اللحظة المناسبة . كل هذا العناء من اجله هو !. ومضى متعجلا حذرا حتى وقف ازاءها على البسطة ، لا يكاد يفصل بينهما شىء ، وقد سطع أنفه شذا شعرها ، ودغدغ عنقه تردد أنفاسها . وربت منكبها برقة هامسا :

ـ نصعد الى البسطة الثانية فنكون فى موضع آمن من هذا .

تقدمته دون أن تنبس فتبعها محاذرا . وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين . فوقفت مستندة الى الجدار ووقف بين يديها ، ثم أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثم سكنت فى حضنه . .

ـ حبيبتى . . .

ـ انتظرتك فى النافذة ، نينة مشغولة باستعدادات شم النسيم . .

ـ كل سنة وانت طيبة ، دعينى أسم النسيم بين شفتيك . .

والتقت شفتاهما فى قبلة طويلة جائعة . ثم تساءلت :

ـ أين كنت ؟.

ذكر فى سرعة خاطفة درس السياسة فى الاسلام ، ولكنه أجاب :

ـ مع بعض الأصدقاء فى القهوة . . .

قالت بلهجة تشى بالاحتجاج :

ـ القهوة ولم يبق على الامتحان الا شهر ؟.

ـ ولكنى أعرف واجبى ، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنك بى . . .

ـ صوتك عال ، أنسيت أين نحن ؟.

ـ نحن فى بيتنا ، فى غرفتنا ، هذه البسطة هى غرفتنا !.

ـ العصر وأنا ذاهبة الى خالتى نظرت الى فوق لعلى أراك فى النافذة ، فاذا بوالدتك تطل على الحارة فالتقت عينى بعينها فارتعدت من الخوف .

ـ ماذا خفت ؟.

ـ خيل الى أنها عرفت عمن أبحث وأنها كشفت سرى . .

ـ تعنين سرنا ، انه شىء واحد يربطنا ، ألسنا الآن شيئا واحدا ؟.

وضمها الى صدره بعنف فى رغبة جامحة ، وفى الوقت نفسه كأنما كان يجد هاربا من أصوات المعارضة الخافتة فى أعماقه باستسلام يائس ، فلفحته نيران متأججة ، واحتوته قوة قادرة على اذابة اثنين فى دوامة واحدة . .

وند عن الصمت تنهدة ثم تردد أنفاس ، وشعر أخيرا بأنه هو وأنها هى وأن الظلام يضم شبحين . ثم جاءه همسها الرقيق يقول فى استحياء :

ـ نتقابل غدا ؟.

فرد فى امتعاض حاول ما استطاع التستر عليه :

ـ نعم . . ، نعم ، ستعلمين فى حينه . .

ـ أخبرنى الآن ..

فقال والامتعاض يزداد ثقلا على قلبه :

ـ لا أدرى كيف يكون وقتى غدا !.

ـ لم ؟..

ـ اذهبى بالسلامة ، سمعت صوتا !.

ـ كلا ، لا صوت هناك ..

ـ لا ينبغى أن يجدنا أحد هكذا ..

وربت كتفها كأنما يربت خرقة ملوثة ، وتخلص من ذراعيها فى رقة مفتعلة ثم رقى فى السلم على عجل . كان والداه جالسين فى الصالة يستمعان الى الراديو ، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشراعة مما دل على أن أحمد يذاكر ، فحياهما تحية المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه . واستحم ، وتوضأ ، وعاد الى حجرته فصلى ، ثم تربع على سجادة الصلاة وراح فى تأمل عميق . كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة ، وكان صدره يضطرم شجنا ، وهفت نفسه الى البكاء . ودعا ربه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشد أزره فى مقاومة الغواية . ذلك الشيطان الذى يعترضه فى صورة فتاة ويندفع فى دمه رغبة جامحة . ودائما أبدا يقول عقله لا فيقول قلبه نعم ، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذى ينتهي بالهزيمة والندم . كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمتى ينقضى هذا العذاب ؟! . ان نضاله الروحى كله مهدد بالخراب وكأنما يبنى قصورا فى الهواء ولن يقر قرار لغارق فى الطين ، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت ..

١٣

اخيرا اهتدى أحمد ابراهيم شوكت الى مبنى مجلة « الانسان الجديد » بغمرة . كان المبنى يقع فى مكان وسط بين محطتى الترام ، وكان مكونا من دورين وبدروم ، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدل من الغسيل المعلق فى شرفته ، أما الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابه ، واما البدروم فقد خصص للمطبعة التى رأى آلاتها خلال قضبان النوافذ . وصعد درجات أربعا الى الدور الأول ، ثم سأل أول من التقى به — وكان عاملا يحمل بروفات — عن الأستاذ عدلى كريم صاحب المجلة ، فأشار الرجل الى باب مغلق فى نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير ، فمضى اليه وهو يتلفت فيما حواليه عله يجد حاجبا ولكنه ألفى نفسه منفردا بالباب فتردد لحظة ثم طرقه برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول « ادخل » ففتح الباب ودخل ، فالتقت عيناه فى نهاية الحجرة بعينين واسعتين تحدقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين ، فرد الباب وراءه وقال بصوت المعتذر :

— لا مؤاخذة ، دقيقة واحدة ..

فقال الرجل بصوت رقيق :

— تفضل ..

وتقدم أحمد من مكتب كدست فوقه الكتب والأوراق ، ثم سلم على الأستاذ الذى قام لاستقباله ، ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له فى الجلوس . شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو الى الأستاذ الكبير الذى تلقى عنه النور والعرفان فى الأعوام الثلاثة

الماضية ، سواء عن مؤلفاته أم مجلته ، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذى وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة الا عينان عميقتان تشعان بريقا نافذا . هذا أستاذه ، أو أبوه الروحى كما يدعوه ، وانه الآن فى حجـرة الوحى التى لا جدران لها ولكن رفوف من الكتب تمتد عاليا حتى السقف .

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل :

ـ أهلا وسهلا ؟

فقال احمد بلباقة :

ـ جئت لأسدد الاشتراك .

ولما اطمأن الى الأثر الطيب الذى أحدثه قوله استدرك قائلا :

وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها الى المجلة منذ أسبوعين . .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم وهو يتساءل :

ـ اسم حضرتك ؟

ـ أحمد ابراهيم شوكت .

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطيبة التذكر ثم قال :

ـ انى أذكرك ، أنت أول مشترك فى مجلتى ، نعم ، وجئتنى بثلاثة مشتركين ، هه ؟ ، انى أذكر اسم شوكت ، وأظننى أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة ؟

فقال أحمد فى ارتياح ممتنا لهذا التذكر الجميل :

ـ جاءنى كتاب من حضرتك اعتبرتنى فيه « صديق المجلة الأول » ! .

ـ هذا حق ، ان مجلة الانسان الجديد مجلة مبدأ ولابد لها من أصدقاء مؤمنين كى تشق طريقها فى زحمة مجلات الصـور والاحتكار ، فأنت صديق المجلة ، أهلا وسهلا ، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل ؟

ـ كلا ، انى لم آخذ البكالوريا الا فى هذا الشهر . .

فضحك الأستاذ عدلى كريم قائلا :

ـــ انت فاهم ان المجلة لا يزورها الا الحاصل على البكالوريا ؟!

فابتسم أحمد فى ارتباك وقال :

ـــ كلا طبعا ، أعنى أنى كنت صغيرا .

فقال الأستاذ جادا :

ـــ لا يليق بقارىء الانسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين ، فى بلادنا شيوخ قد جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شبانا بعقولهم ، وفيها شبان فى ربيع العمر ولكنهم معمرون ـــ منذ ألف عام أو أكثر ـــ بعقولهم ، وهذا هو داء الشرق .. (ثم بلهجة أرق) وهل أرسلت الينا مقالات من قبل ؟

ـــ ثلاث مقالات كان مصيرها الاهمال ، ثم مقالة أخيرة كنت أطمع فى نشرها !.

ـــ عن ماذا ؟ ، لا تؤاخذنى فانى أتلقى عشرات المقالات يوميا ؟

ـــ عن رأى لوبون فى التعليم وتعليقى عليه !

ـــ على أى حال ستبحث عنها فى السكرتارية ـــ الحجرة المجاورة لحجرتى ـــ وتعلم بمصيرها ..

وهم أحمد بالقيام ولكن الأستاذ عدلى أشار اليه بالاستمرار فى الجلوس وهو يقول :

ـــ المجلة اليوم فى شبه اجازة ، أرجو أن تمكث معى قليلا لنتحدث .

فتمتم أحمد بارتياح عميق :

ـــ بكل سرور يا فندم .

ـــ قلت انك أخذت البكالوريا هذا العام ، كم سنك ؟

ـــ ستة عشر عاما .

ـــ سن مبكرة ، حسن ، هل المجلة منتشرة فى المدارس الثانوية ؟.

ـ كلا للأسف ..

ـ اعلم هذا ، أكثرية قرائنا فى الجامعة ، القراءة فى مصر ملهاة رخيصة ، ولن نتطور حتى نؤمن بأن القراءة ضرورة حيوية ..

ثم بعد قليل من الصمت :

ـ وما حال التلاميذ ؟

فنظر اليه أحمد متسائلا كأنما يستزيده تفسيرا لقوله ، فقال الرجل :

ـ انى أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها ..

ـ الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون ..

ـ ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة ؟

ـ مصر الفتاة ؟.. لا وزن لها ، فرقة تعد على الأصابع ، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها الا الأقارب زعمائها ، وهناك قلة لا تهتم بشئون الأحزاب كافة ، وآخرون ـ وأنا منهم ـ نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمع فيما هو أكمل ..

فقال الرجل بارتياح :

ـ هذا ما أسأل عنه ، الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن ، كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا ، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب والخبائث ، الى أنه مدرسة الوطنية والديموقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لايقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة ، نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية ، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .

فهتف أحمد بحماس :

ـ ما اجمل هذا الكلام !

ــ ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا ، وهى ليست الا صدى للعسكرية الألمانية والايطالية التى تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزرى بالقيم الانسانية والكرامة البشرية ، ان الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله ..

فعاد أحمد يقول متحمسا :

ــ ان جماعة « الانسان الجديد » تؤمن بهذا كل الايمان ..

فهز الرجل رأسه الكبير فى أسف وهو يقول :

ــ ولذلك فالمجلة هدف للرجعيين من كافة النحل ، انهم يرموننى بأفساد الشباب !

ــ كما اتهموا سقراط من قبل ..

فابتسم الأستاذ عدلى كريم فى ارتياح وقال :

ــ وما وجهتك ؟ ، أعنى أى كلية تقصد ؟

ــ الآداب ..

فاعتدل الأستاذ فى جلسته ، وقال :

ــ الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى ، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية ، فاعرف سبيلك ، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت أجيالا على تجميد العقل وقتل الروح ، ومهما يكن من أمر ــ ولا تدهش أن يصارحك بهذا الرأى رجل معدود فى الأدباء ــ فالعلم أساس الحياة الحديثة ، ينبغى أن ندرس العلوم وأن نتشبع بالعقلية العلمية ، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا ، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه . لم يعد العلم وقفا على العلماء ، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف ، ولكن على كل مثقف أن يضىء نفسه

بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه ، ينبغى أن يحل العلم محل الكهانة والدين فى العالم القديم ..

فقال أحمد مؤمنا على قول أستاذه :

ــ ولذلك كانت رسالة « الانسان الجديد » هى تطوير المجتمع على أساس علمى ..

فقال عدلى كريم باهتمام :

ــ أجل ، على كل منا ان يقوم بواجبه ، ولو وجد نفسه وحيدا فى الميدان ..

فهز أحمد راسه موافقا فعاد الآخر يقول :

ــ ادرس الآداب كما تشاء ، واعن بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات ، ولا تنس العلم الحديث ، ولا يجب أن تخلو مكتبتك ــ الى جانب شكسبير وشوبنهور ــ من كونت وداروين وفرويد وماركس وانجلز ، لتكن لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغى أن تذكر أن لكل عصر أنبياءه ، وأن أنبياء هذا العصر هم العلماء ..

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحت بأنها تحية الختام فنهض أحمد مادا يده ، وسلم ثم غادر الحجرة ممتلئا حياة وسعادة . وفى الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فمال الى الحجرة المجاورة ، وطرق الباب مستأذنا ثم دخل . رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب ، اثنان خاليان ، والثالث جلست عليه فتاة . لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر اليها فى حيرة وتساؤل . كانت فى العشرين ، عميقة السمرة ، سوداء العينين والشعر ، وكان فى أنفها الدقيق وذقنها المدبب وفمها الرقيق ما يوحى بالقوة ، دون أن يفسد ملاحتها . تساءلت وهى تتفحصه :

ــ أفندم ؟.

فقال يعزز مركزه :

ــ الاشتراك ..

ودفع المبلغ وأخذ الايصال ، وفى أثناء ذلك كان قد تغلب على ارتباكه فقال :

ــ كنت قد أرسلت مقالة الى المجلة ، وأخبرنى الأستاذ عدلى كريم بأنها فى السكرتارية .

وهنا دعته الى الجلوس على كرسى أمام المكتب فجلس ثم سألت :

ــ عنوان المقالة من فضلك ؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة :

ــ التعليم عند لوبون .

ففتحت دوسيها ، وفرت أوراقا حتى استخرجت المقال ، ولمح أحمد خطه فخفق قلبه ، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنها وفرت عليه عناء المحاولة اذ قالت :

ــ موقع عليه بما يأتى « يلخص وينشر فى باب رسائل القراء » .

فشعر أحمد بخيبة أمل ، ولبث لحظات ينظر اليها دون أن ينبس ، ثم تساءل :

ــ فى أى عدد ؟

ــ فى العدد القادم .

فسأل بعد تردد :

ــ ومن الذى يلخصه ؟

ــ أنا .

وداخله شعور بالامتعاض ، لكنه سأل :

ــ ويوقع عليه باسمى ؟

فقالت ضاحكة :

ــ طبعا ، ينشر عادة ما يفيد بأنه جاءتنا رسالة من الأديب (ثم وهى تنظر فى الامضاء) أحمد ابراهيم شوكت ثم نورد تلخيصا وافيا لفكرتك !

فتردد قليلا ثم قال :

ــ كنت أفضل لو نشرت بأكملها . .

فقالت باسمة :

ــ المرة القادمة ان شاء الله . .

فجعل ينظر اليها صامتا ثم سألها :

ــ حضرتك موظفة هنا ؟

ــ كما ترانى !

نازعته نفسه الى أن يسألها عن مؤهلاتها ولكن شجاعته حدثته فى اللحظة الأخيرة فسألها :

ــ اسم حضرتك من فضلك لأطلبك فى التليفون اذا لزم الأمر !

ــ سوسن حماد .

ــ متشكر جدا .

ونهض محييا اياها بيده ، وقبل أن يغادر الحجرة التفت نحوها قائلا :

ــ أرجو أن تلخصيها بعناية . .

فقالت دون أن تنظر اليه :

ــ انى أعرف واجبى !

فغادر الحجرة نادما على قوله . .

١٤

كان كمال فى حجرة مكتبه عندما جاءت أم حنفى لتقول له :

ــ سى فؤاد الحمزاوى عند سيدى الكبير . .

ونهض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعا الى تحت . اذن عاد فؤاد الى القاهرة بعد غيبة عام ، عاد وكيل نيابة

قنا العتيد !. وكانت تجيش بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوائب من عدم الارتياح شابتها ، فصـداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوى على نوع من الصراع ، صراع من الحب والنفور ، بين المودة والغيرة ، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشده على رغمه الى الاسفاف الدنيوى . فلم يكن يشك وهو يهبط السلم فى أن هذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها فى الوقت نفسه ستنكأ جروحا كادت أن تندمل . وعندما مر فى الصالة بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع أمه وهى تهمس قائلة :

ـ سوف يطلب يد نعيمة ..

ولما شعرت بوجوده التفتت اليه قائلة :

ـ صديقك بالداخل ، ما ألطفه ، أراد أن يقبل يدى فمنعته !

ورأى والده متربعا على الكنبة وفؤاد جالسا على مقعد قبالته ، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول :

ـ حمد الله على السلامة ، أهلا وسهلا ، ... انت فى اجازة ؟

فأجاب عنه السيد أحمد باسما :

ـ بل نقل الى نيابة القاهرة ، نقل أخيرا بعد غربة طويلة فى الصعيد ..

فجلس كمال على الكنبة وهو يقول :

ـ مبارك ، من الآن فصاعدا نرجو أن نراك من آن لآخر .

فقال فؤاد :

ـ طبعا ، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية ، استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلى ..

لم تتغير هيئة فؤاد كثيرا ، ولكن صحته تقدمت بدرجة محسوسة فامتلأ عوده وتورد وجهه ، أما عيناه فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكى . وسأل السيد أحمد الشاب قائلا :

ـ وكيف حال والدك ؟.. لم أره منذ أسبوع ؟

ـ ليست صحته على ما يرام ، انه لا يزال آسفا على ترك المحل ، لكن المأمول أن يكون خليفته قائما بالواجب ؟

فضحك السيد قائلا :

ـ الأمر يقتضينى اليوم يقظة متواصلة ، كان والدك يقوم بكل شيء شفاه الله وعافاه ..

واعتدل فؤاد فى جلسته ووضع رجلا على رجل فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج ، أما السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها . أهكذا تتطور الأمور ؟ ، أجل انه وكيل نيابة قد الدنيا ، ولكن أنسى من يكون الشخص المتربع أمامه ؟ ، ربا ليس هذا فحسب ، لقد أخرج علبة سجائر وقدمها للسيد فاعتذر شاكرا ! ، حقا ان النيابة تنسى ، ولكن من المؤسف أن يمتد نسيانها الى ولى النعمة الذى يبدو أن فضله تبدد فى الهواء كدخان هذه السيجارة الفاخرة . ولم يكن فى حركات فؤاد تكلف من أى نوع كان ، كان سيدا قد تعود السيادة . وقال السيد مخاطبا كمال :

ـ وهنئه أيضا فقد رقى من مساعد الى وكيل نيابة .

فقال كمال باسما :

ـ مبارك .. مبارك ، أرجو أن أهنئك قريبا بكرسى القضاء ..

فقال فؤاد :

ـ الخطوة التالية ان شاء الله .

ربما استباح لنفسه ـ عندما يصير قاضيا ـ أن يبول أمام الرجل المتربع أمامه ! ، أما مدرس ابتدائى فيظل مدرسا ابتدائيا ، وحسبه شاربه الغليظ واطنان الثقافة التى عوجت راسه :

ونظر السيد أحمد الى فؤاد باهتمام وهو يسأل :

ـ وكيف حال السياسة ؟

فقال فؤاد بارتياح :

ـ وقعت المعجزة ! ، وقعت المعاهدة فى لندن ، أصغيت الى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفظات الأربعة فلم أصدق أذنى ، من كان يصدق هذا ؟

ـ اذن انت من الراضين على المعاهدة ؟

فقال وهو يهز رأسه هزة أصحاب الشأن :

ـ فى الجملة نعم ، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين ، فاذا تأملنا الظروف التى تحيط بنا ، وذكرنا أن شعبنا صبر على عهد صدقى رغم مرارته دون أن يثور عليه ، فينبغى أن نعد المعاهدة خطوة موفقة ، أزالت التحفظات ومهدت الطريق لالغاء الامتيازات الأجنبية ، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة ، انها خطوة عظيمة بلا شك . .

كان حماس السيد احمد للمعاهدة أقوى واحاطته بظروفها أقل ، وكان يود لو تجاوب الآخر معه تجاوبا أشد ، فلما خاب ظنه قال بعناد :

ـ على أى حال ينبغى أن نذكر أن الوفد قد أعاد الى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين . .

وفكر كمال : كان فؤاد دائما « باردا » فى الناحية السياسية ، ولعله لم يتغير ، ولكنه يبدو مائلا الى الوفد ، أما أنا فطالما كنت مندفعا مع العاطفة ، ثم انقلبت لا أومن بشىء ، والسياسة نفسها لم تسلم من شكى النهم ، ولكن قلبى لا زال ينبض بالوطنية رغم عقلى .

وعاد فؤاد يقول ضاحكا :

ـ ان النيابة فى عهود الانقلاب تنكمش الى الوراء على حين يحتل البوليس المقدمة ، اذ أن عهود الانقلاب عهود بوليسية ، فاذا

عاد الوفد الى الحكم ردت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده ، ففى عهد الحكم الطبيعى يكون القانون هو الكلمة العليا ..

فعلق السيد على ذلك قائلا :

ــ وهل يمكن أن ننسى عهــد صدقى ؟ ! ، لقــد كان الجنود يجمعون الأهالى بالعصى أيام الانتخابات ، وكثير من الأعيــان من أصدقائنا خربت بيوتهم واشهروا افلاسهم ثمنا لثباتهم على مبدأ الوفد ، ثم اذا بنا نرى « الشيطان » ضمن هيئة المفاوضات فى لباس الوطنيين الأحرار !

فقال فؤاد :

ــ كانت الظروف توجب الاتحــاد ، ولم يكن هــذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضم اليه الشيطان وأعوانه ، والعبرة بالخواتيم .

ولبث فؤاد فى حضرة السيد فترة غير يسيرة ، احتسى فى أثنائها القهوة ، وجعل كمال يتفحصه بعنـاية فانتبه الى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة ، والوردة الحمراء التى تزين عروتها ، والى الشخصية القوية التى أضفتها عليه الوظيفة ، فشعر فى أعماقه بأنه سيسر ــ رغم كل شىء ــ اذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته ، غير أن فؤاد لم يطرق هذا الموضــوع ، وبدا عليه أنه يرغب فى الذهاب وما لبث أن قال للسيد :

ــ آن وقت ذهابك الى الدكان ، سأمكث بقيــة الوقت مع كمال ، وسوف أزور حضرتك قبل سفرى الى الاسكندرية ، اذ اننى قررت أن أقضى بقية أغسطس وبعض سبتمبر فى المصيف ..

ونهض قائما فصافح السيد مودعا ثم غادر الحجرة يتقدمه كمال . وصعدا معا الى الدور الأعلى حيث اســتقرا فى حجرة المكتب . وجعل فؤاد يتصفح الكتب المصفوفة على الأرفف باسما ثم تســاءل :

ــ الا أستطيع أن أستعير منك كتابا ؟ .

فقال كمال وهو يدارى عدم ارتياحه .

ــ بكل سرور ، ماذا تقرأ عادة فى أوقات فراغك ؟ .

ــ عندى دواوين شـــوقى وحافظ ومطران ، وبعض كتب الجاحظ والمعرى ، وأحب بصفة خاصة « أدب الدنيا والدين » ، الى مؤلفات كتابنا المعاصرين ، هذا الى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل ، ولكن أنكبابى على القانون يلتهم أكثر وقتى ..

ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئا عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلا :

ــ مكتبة فلسفية قحة ، لا ناقة لى فيها ولا جمل ، انى أقرأ مجلة الفكر التى تكتب فيها ، وأتابع مقالاتك التى تظهر تباعا منذ سنوات ، لا أزعم انى قرأتها جميعا ، أو انى أذكر منها شيئا ، ان المقالة الفلسفية أثقل ما يقرأ ، ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل ، لماذا لا تكتب فى الموضوعات الجذابة ؟ .

طالما سمع بأذنه نعى مجهــوده ، ولكنه لم يحزن لذلك كثيرا كأنما اعتاده ، ان الشك يلتهم فيما يلتهم الحزن نفسه ، والشهرة ما هى ؟ . والجاذبية ما هى ؟ . ولكن مما يسره حقا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه . وســـأله :

ــ ماذا تعنى بالموضوعات الجذابة ؟ .

ــ الأدب مثلا .

ــ قرأت لطائف منه مذ كنا معا ولكننى لست أديبا ..

فضحك فؤاد قائلا :

ــ اذن ابق فى دنيا الفلسفة وحدك ، ألست فيلسوفا ؟

ألست فيلسوفا ؟ ! . عبارة مطبوعة فى أعماقه ، ارتجف من هول وقعها قلبه ، هكذا هى مذ ألقيت عليه فى شارع السرايات من ثغر عايدة ! . ولكى يدارى جيشة صدره ضحك ضحكة عالية ، ثم ذكر الأيام التى كان فؤاد يتودده ويتبعه كظله ، ها هو الآن

يطالعه رجلا خطيرا جـديرا بالتودد والولاء ! . ماذا جنيت من حياتي ؟ » وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجأة قائلا :

ـ ولو ! ...

فتساءل كمال بعينيه عن معنى هذا فعاد الآخر يقول :

ـ كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوج ، جيلنا مكتظ بالعزاب ، جيل الأزمة ، ألا زلت عند رأيك ؟ .

ـ لا أتزحزح ..

ـ لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبدا .

ـ أنت بعيد النظر طول عمرك ..

فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفا عما سيقول :

ـ أنت رجل أناني ، تأبى الا أن تستأثر بكل حياتك لنفسك ، يا أخي لقد تزوج النبي ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة ...

ثم مستدركا وهو يضحك :

ـ لا تؤاخذني على ضرب المثل بالنبي ، كدت أنسى أنك ... ، ولكن مهلا ، انك لم تعد الملحد القديم ، أنت الآن تشك حتى في الالحاد ، وهذه خطوة كسب للايمان ..

فقال كمال بهدوء :

ـ دعنا من التفلسف فانك لا تحبه وخبرني لم لم تتزوج أنت ما دام هذا هو رأيك في العزوبة ؟ .

وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنه استدراج له الى الكلام في خطبة نعيمة ! . ولكن فؤاد لم يبد عليه أنه فكر في هذا ، بل ضحك ضحكة عالية وان لم تخرج به عن حد الوقار ، وقال :

ـــ أنت تعلم أنى لم أفسد الا متأخرا ، لم أفسد مثلك فى زمن مبكر ، فأنا لم أشبع بعد ! .

ـــ أتتزوج اذا شبعت ؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب وقال بلهجة المعترف :

ـــ ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى ، أصبر حتى أرقى قاضيا مثلا فيسعنى أن أصاهر وزيرا اذا شئت . .

يا بن جميل الحمزاوى ! . عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة ! . أتحدى ليبنتز أن يبرر هذا ولو كما برر وجود الشر فى الخليقة ! .

ـــ أنت تنظر الى الزواج نظرة . .

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكا :

ـــ خير من الذى لا يعيره نظرة على الاطلاق ! .

ـــ ولكن السعادة . . .

ـــ لا تتفلسف ! . السعادة فن ذاتى ، قد تجدها عند كريمة وزير بينما لا تجد الا التعاسة فى وسطك ، الزواج معاهدة كالتى وقعها النحاس بالأمس ، مساومة وتقدير ودهاء وبعد نظر وفوائد وخسائر ، وفى بلدنا لا تأتى الرفعة الا عن هذا السبيل ، فى الأسبوع الماضى عين مستشارا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره ، وقد أخدم القضاء عمرى مجتهدا ناصبا دون أن أظفر بهذا المركز السامى ! .

ومعلم ابتدائى ما قوله ؟ . فى الدرجة السادسة ينقضى عمره ، ولو طفح بالفلسفة رأسه .

ـــ أن مركزك يغنيك عن أمثال هذه المغامرات . .

ـــ لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلف وزارته ! .

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال :

ـ أنت فى حاجة الى شىء من الفلسفة ، تحتاج الى جرعة من سبينوزا .

ـ اشبع منه أنت ، لكن دعنا من هذا ، وخبرنى عن أماكن اللهو والشراب ، فى قنا كنت أختلس اللذة فى حذر ، ان مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر ، والصراع الأبدى بيننا وبين البوليس يوجب الحذر أكثر ، وكيل النيابة مركز خطير متعب ..

عودة الى الحديث الذى يهدد مرارتى بالانفجار ، حياتى فى ضوئك تأديب وتهذيب وأشد امتحان لفلسفتى الحائرة فى هذه الحياة ..

ـ تصور أن الظروف تجمعنى بكثير من الأعيان ، ثم يدعوننى الى سراياتهم ، فأجد أن الواجب يقضى بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثر فى قيامى بواجبى ، ولكن عقليتهم لا تفهم هذا ، فأعيان الاقليم جميعا يرموننى بالكبر وأنا منه براء ..

« بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معا » . وقال موافقا :

ـ نعم ..

ـ ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس ، أنا لا أرضى عن طرقهم الملتوية ، لذلك أقف لهم بالمرصاد ، ورائى القانون ، ووراءهم همجية القرون الوسطى ، ان الجميع يكرهوننى ولكن الحق معى ..

الحق معك ، هذا ما أعرفه فيك من قديم ، الذكاء والنزاهة ، ولكنك لا تحب ولا يمكن أن تحب ، أنت لا تتمسك بالحق لوجه الحق وحده ولكن لوجه الحق والغرور والكبرياء والشعور بالنقص ، هكذا الانسان ، انى أصطدم بأمثالك حتى فى الوظائف الحقيرة ، الانسان العذب القوى أسطورة ، ولكن ما قيمة الحب ؟ . وما المثالية ؟ . وما اى شىء ؟ ! .

وهكذا طال بهما الحديث . وعنـدما هم فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسـائلا :

ــ أنا جديد فى القـاهرة ، طبعا أنت تعرف بيتـا بل بيوتا ، مستورة طبعا ؟ .

فقال كمال باسما :

ــ ان المدرس كوكيل النيابة يتحرى الستر دائما . .

ــ عال ، سنلتقى قريبا ، اننى مشغول الآن بترتيب الشقة الجديدة ولا بد أن نسهر كم مرة معا ! .

ــ اتفقنا . . .

وغادرا الحجرة معا فلم يتركه حتى أوصله الى باب السكة . وعند ما مر بالدور الأول فى أثناء عودته التقى بأمه واقفة تنتظره عند المدخل ، فسألته بلهفة :

ــ ألم يكلمك ؟ .

فأدرك ما تسأل عنه ، وشعر لذلك بألم لم يشعر بمثله ، ولكنه تجاهل الأمر وتساءل بدوره :

ــ عن ماذا ؟ .

ــ نعيمة ؟ .

فأجاب ممتعضا :

ــ كلا . .

ــ عجيبة ! .

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم عادت أمينة تقول :

ــ ولكن الحمزاوى كلم أباك ! .

فقال كمال وكان يدارى ما استطاع ثورة حنقه :

ــ لعله لم يكن فيما قال نائبا عن ابنه . .

فقالت أمينة غاضبة :

ـ هذا عبث لا يليق .. ألا يدرى من يكون هو ومن تكون هى ؟ ، كان ينبغى أن يفهمه جدك حقيقة مركزه .

ـ ان فؤاد برىء ، لعل والده أسرع دون تدبر بحسن نية ..

ـ ولكن حدث ابنه دون شك فهل رفض الآخر ؟ . ذلك الذى جعلناه موظفا محترما بنقودنا .. !

ـ لا داعى للكلام فى هذا الموضوع ...

ـ ان هذا يا بنى أمر لا يتصوره العقل ، ألا يدرى أن مصاهرته لا تشرفنا ؟ ! ..

ـ اذن لا تأسفى عليها ..

ـ لست آسفة ، ولكنى غاضبة للاهانة ..

ـ لا اهانة هنالك ، ليس الا سوء تفاهم ..

وعاد الى حجرته حزينا خجلا . وجعل يحدث نفسه : نعيمة وردة جميلة ، بيد أنى رجل لم يبق لى من الفضائل الا حب الحقيقة فينبغى أن أسائل نفسى أهى حقا كفء لوكيل نيابة ؟ . يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك فى حياته من هى أجل ثقافة وأعز محتدا واكثر مالا وجمالا أيضا ، لقد تسرع أبوه الطيب وليس هذا خطأه ، ولكنه كان وقحا فى حديثه معى ، وهو وقح بلا شك ، انه رجل ذكى نزيه كفء وقح مغرور ، وما هذا بذنبه ولكن الذنب ذنب هذه الفوارق التى تخلق فينا شتى الأمراض ...

١٥

كانت مجلة « الفكر » تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز . وكانت حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطى تطل بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار . والحق انه كلما أقبل كمال على ادارة

المجلة ذكره موضعها الأرضى المظلم ورثاثة أثاثها بمكانة « الفكر » فى بلده ، وبمكانته هو فى مجتمعه ، واستقبله الأستاذ عبد العزيز بإبتسامة ترحيب وود ، ولا عجب فقد أتصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أى منذ بدأ كمال يبعث اليه بمقالاته الفلسفية ، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور ، والواقع أن جميع كتاب المجلة كانوا من المتعاونين فى سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده ! . .

وكان عبد العزيز يرحب بكافة الكتاب المتطوعين حتى المختصين - مثله - فى الفلسفة الاسلامية ، ومع أنه كان أزهرى النشأة الا أنه سافر الى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلا ومستمعا دون أن يحصل على درجة علمية . وكان فى غنى عن السعى للرزق بعقار يملكه يدر عليه شهريا خمسين جنيها ولكنه أنشأ مجلة « الفكر » فى عام ١٩٢٣ ، وثابر على اصدارها بالرغم من أنها لم تكن تزيد دخله شيئا يضاهى بعض ما يبذله فيها من جهد . وما كاد يستقر المجلس بكمال حتى دخل الحجرة رجل فى مثل سنه ، يرتدى بدلة من التيل الرمادى ، طويل القامة وان كان دون كمال طولا ، نحيفا ، ولكنه أكثر امتلاء منه ، مستطيل الوجه ، متوسط الجبين ، ممتلىء الشفتين ، ذو أنف دقيق وذقن مدبب اضفى على سمنته طابعا خاصا . تقدم خفيفا باسم الثغر فمد يده الى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثم قدمه الى كمال قائلا :

- الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف ، انضم حديثا الى جماعة كتاب « الفكر » ، وقد أمد مجلتنا العلمية بدم جديد بتلخيصه الشهرى للمسرحيات العالمية وكتابة القصص القصيرة . .

ثم قدم كمال قائلا :

- الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد ، لعلك من قراء مقالاته ؟ .

فتصافح الرجلان ورياض يقول باعجاب :

ـ انى أقرأ مقالاته منـــذ سنوات ، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة ..

فشكره كمال متلقيا ثناءه بحذر ، ثم جلســا على كرسيين متقابلين امام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذى مضى يقول :

ـ لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يرد عليك بالمثل قائلا انه قرأ قصصك القيمة ، انه لا يقرأ قصصا البتة ..

فضحك رياض ضحكة جذابة كشــفت عن أسنان نضــيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال :

ـ ألا تحب الأدب اذن ؟ . ما من فيلســوف الا وله فلســفة خاصة عن الجمال ، وهى لا تتأتى له الا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعا ..

فقال كمال فى شىء من الارتباك :

ـ لست أكره الأدب ، طالما ارتحت فى جنات شعره ونثره ، ولكن أوقات الراحة قليلة ! .

ـ معنى ذلك أنك قرأت ما استطعت من القصص اذ أن الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصة والتمثيلية .. ؟

فعاد كمال يقول :

ـ قرأت عددا وفيرا منها على مدى العمر ، بيد أننى ..

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطى قائلا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدا أن تقنعه بأفكارك الجديدة ، وحسبك أن تعلم الآن انه فيلسوف ، وأن ولعه مركز فى الفكر .

ثم التفت الى كمال متسائلا :

ـ جئت بمقال الشهر ؟

فأخرج كمال ظرفا متوسطا ووضعه فى سكون أمام الأستاذ الذى تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثم تصفح العنوان وهو يقول :

— عن برجسون ؟ . . حسن !

فقال كمال :

— فكرة تقديم عامة تبين الدور الذى لعبته فلسفته فى تاريخ الفكر الحديث ، وربما ألحقتها بمقالات أخر تفصيلية . .

وكان رياض قلدس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدج كمال بنظرة لطيفة :

— تتبعت مقالاتك منذ سنوات ، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الاغريق ، وهى مقالات متنوعة وأحيانا تكون متناقضة بالقياس الى ما تعرض من فلسفات ، فأدركت أنك مؤرخ ، بيد أننى حاولت عبثا أن أهتدى الى موقفك أنت مما تكتب ، وأى فلسفة تنتهى اليها . . ؟

فقال عبد العزيز الأسيوطى :

— نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام ، ولعل الأستاذ كمال يتمخض فيما بعد عن فلسفة جديدة ، ولعلك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم !

فضحكوا جميعا ، وخلع كمال نظارته وراح يجلو ناظريها ، وكان سرعان ما يندمج فى الحديث خاصة اذا آنس الى محدثه . وبدا الجو صافيا عذبا . وقال كمال :

— انى سائح فى متحف لا أملك فيه شيئا ، مؤرخ فحسب ، لا أدرى أين أقف . .

فقال رياض قلدس فى اهتمام يتزايد :

— أى فى مفترق الطرق ، وقفت فى ميدانك عهدا قبل أن أعرف وجهتى ، ولكنى أرجح أنه موقف ذو قصة ، لأنه عادة يكون

نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة ، ألم تعرف ألوانا من الايمان قبل موقفك هذا ؟

نغمة هذا الحديث تعيد اليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب ، هذا الشاب وهذا الحديث ، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتى اعتاد أن يحدث نفسه كلما افتقد من يحدثه ، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أحد أن يبعث هذا النشاط الروحى فى صدره ، لا اسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوى ولا عشرات المدرسين ، هل آن للمكان الذى خلا بذهاب حسين شداد أن يشغل ؟ ! . وأعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلا :

ـ لذلك قصة طبعا ، وكالعادة كان لى ايمانى الدينى ، ثم ايمانى بالحقيقة ..

ـ أذكر أنك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة ..

ـ كان حماسا صادقا ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابا ..

ـ لعلها الفلسفة العقلية ؟

ـ ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابا ، الفلسفات عصور جميلة هادئة ولكنها لا تصلح للسكنى ..

فقال عبد العزيز باسما :

ـ وشهد شاهد من أهلها !

فهز كمال كتفيه استهانة ، أما رياض فواصل تحقيقه قائلا :

ـ هنالك العلم فلعله نجا من شكك ؟

ـ انه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف الا بعض نتائجها القريبة ، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون فى مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال . وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة ، فلم ألبث أن حركت رأسى مرتابا ! .

فابتسم رياض قلدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول :

ـ حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذنى ، ودار رأسى ، وما زال يدور ، فى فضاء مخيف ، ما الحقيقة ؟ ، ما القيم ؟ ، ما أى شىء ؟ ، انى أحيانا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذى أشعر به عند الوقوع فى الشر !

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية ، وقال :

ـ لقد انتقم الدين منك ، هجرته جريا وراء الحقائق العليـا فعدت صفر اليدين !

وقال رياض قلدس ، وكان يبدو فى قوله مجاملا لا أكثر :

ـ موقف الشك هذا لذيذ ! ، مشاهدة وتأمل وحرية مطلقة ، وأخذ من كل شىء أخذ السائح !

فقال عبد العزيز مخاطبا كمال :

ـ أنت أعزب فى فكرك ، كما أنت أعزب فى حياتك !

وانتبه كمال الى هذه الملاحظة العابرة باهتمام ، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح ؟ أم أن الاثنين نتيجة لشىء ثالث ؟ . وقال رياض قلدس :

ـ العزوبة حال مؤقتة ، وربما كان الشك كذلك !

فقال عبد العزيز :

ـ ولكنه فيما يبدو لن يميل الى الزواج أبدا ..

فقال رياض متعجبا :

ـ ما الذى يحول بين الشك والحب ؟ ، وما الذى يمنع محبـا من الزواج ؟ ، أما الاصرار على العزوبة فليس من الشك فى شىء ، الشك لا يعرف الاصرار !

فتساءل كمال ، وهو غير جاد فى باطنه :

ـ الا يحتاج الحب الى شىء من الايمان ؟

فقال رياض قلدس ضاحكا :

ـ كلا ، ان الحب كالزلزال الذى يرج الجامع والكنيسة والماخور على السواء ...

زلزال ؟ ، ما أصدقه من تشبيه ، زلزال يهدم كل شيء ثم يغرقه فى صمت الموت .

ـ وانت يا أستاذ قلدس ، لقد أطريت الشك ، فهل أنت من أهله ؟

فقال عبد العزيز ضاحكا :

ـ انه ذلك نفسه !

وضجوا بالضحك ، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه :

ـ لبثت فيه فترة ثم مرقت منه ، لم أعد أشك فى الدين لأنى كفرت به ، ولكنى أومن بالعلم والفن ، الى الأبد ان شاء الله !

عبد العزيز متسائلا فى تهكم :

ـ ان شاء الله الذى لا تؤمن به ؟

فقال رياض قلدس باسما :

ـ الدين ملك الناس ، أما الله فلا علم لنا به ، منذا الذى يستطيع أن يقول لا أومن بالله ، أو يقول أومن بالله ؟ ، الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون ، وذلك انهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه !

فقال كمال :

ـ ولكنك تؤمن بالعلم والفن ؟

ـ نعم ..

ـ الايمان بالعلم له وجاهته ، ولكن الفن .. ؟ ! ، أنا أفضل أن أومن بالأرواح عن أن أومن بالقصة مثلا !

فحدجه رياض بنظرة عاتبة ، وقال بهدوء :

ـ العلم لغة العقول ، والفن لغة الشخصية الانسانية جميعا !

ـ ما أشبه هذا الكلام بالشعر !

فتقبل رياض تهكم كمال بابتسامة متسامحة ، وقال :

ــ العلم يجمع البشر فى نور أفكاره ، والفن يجمعهم فى عاطفة سامية انسانية ، وكلاهما يطور البشرية ويدفعها الى مستقبل أفضل ..

يا للغرور ! ، يكتب قصة من صفحتين كل شهر ، ويظن أنه يطور البشرية ؛ وأنا لست دونه سماجة ، فلأننى ألخص فصلا من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج ، أطالب فى أعماقى بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوى وكيل نيابة الدرب الأحمر ، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك ؟ ، مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء ؟ ، أف من كل شيء !

ــ وما قولك فى العلماء الذين لا يشاركونك فى حماستك للعلم ؟.

ــ لا ينبغى أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس ، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزتها ، وهو دين المستقبل .

ــ والقصة ؟

بدا رياض لأول مرة وهو يدارى استياءه ، فاستدرك الآخر كالمعتذر :

ــ أعنى الفن عموما ؟

فقال رياض قلدس متسائلا فى حماسة :

ــ أتستطيع أن تعيش فى وحدة مطلقة ؟ ، لابد من النجوى ، من العزاء ، من المسرة ، من الهداية ، من النور ، من الرحلة فى أنحاء المعمورة والنفس ، هذا هو الفن ..

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز :

ــ خطر لى خاطر ، أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث فى شتى الفكر ، على أن ينشر حديثنا بعنوان « محاورة شهر كذا » ...

فقال رياض قلدس ، وهو يرمق كمال بنظرة ودية :

ــ ان حديثنا لن ينقطع ، أو هــذا ما أوده ، أنعد أنفسنا أصدقاء ؟

فقال كمال بحماسة صادقة :

ــ بكل تأكيد ، يجب أن نتقابل فى كل فرصة ...

شمل كمال احساس بالسعادة لهذه « الصداقة الجديدة » ، كان يشعر بأن جانبا ساميا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق ، فاقتنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذى تلعبه الصداقة فى حياته ، وبأنها عنصر حيوى لا غنى له عنه ، أو يظل كالظامىء المحترق فى صحراء ..

١٦

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة ، فعاد كمال من الموسكى والساعة تدور فى الثامنة مساء ، يتنفس جوا خانقا شديد الحرارة . وتمهل عند عطفة الجوهرى ثم مال اليها ، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل . ورقى فى الدرج حتى الدور الثانى ، ثم دق الجرس ، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين ، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية ، وفتحت الباب فدخل صامتا . أما المرأة فقالت ترحب به :

ــ أهلا بابن الحبيب ، أهلا بابن أخى ..

وتبعها الى صالة تتوسط حجرات ، فيها كنبتان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة ، وشذا بخور فى الأركان . كانت المرأة بدينة ، هشة من كبر ، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر ، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشى بوطأة الكيف ، وفى تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار

مقيم . تربعت على الكنبة أمام النارجيلة ، وأومأت اليه ليجلس الى جانبها ، فجلس وهو يسأل باسما :

ـ كيف حال الست جليلة ؟

فهتفت محتجة :

ـ قل عمتى ..!

ـ كيف حالك يا عمتى ؟

ـ الحال معدن يا بن عبد الجواد ، .. (ثم بصوت مرتفع أجش) .. بنت يا نظلة ...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعين ووضعتهما على الخوان ، فقالت جليلة :

ـ اشرب ، طالما قلتها لأبيك فى الأيام الحلوة الماضية ..

فتناول كمال الكأس ، وهو يقول ضاحكا :

ـ من المؤسف حقا أنى جئت بعد فوات الأوان ..

وهى تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التى تغطى ساعديها :

ـ يا عيب الشوم ، أكنت تريد أن تعيث فسادا حيث سجد أبوك ؟ !.

ثم مستدركة :

ـ ولكن أين أنت من أبيك ؟ ، كان متزوجا للمرة الثانية حين عرفته ، تزوج مبكرا على عادة أهل زمان ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقنى زمنا كان أحلى الحياة ، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها ، ثم عشرات غيرنا سامحه الله ، أما أنت فلا تزال أعزب ، ولا تزور بيتى مع ذلك الا كل ليلة جمعة ، يا عيب الشوم ، أين الرجولة أين ؟ !

أبوه الذى عرفه عن لسانها غير أبيه الذى عُرفه بنفسه ، بل غير أبيه الذى حدث عنه ياسين ، رجل الغريزة ، والحياة العارمة ، لم

تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه ؟ ، حتى ليلة الجمعة التى يزور فيها هذا البيت لا يصفو له « الحب » فيها الا بالخمر ، فلولا السكر لبدا له الجو متجهما باعثا على الانهزام ، وأول ليلة رمت به المقادير الى هذا البيت ليلة لا تنسى ، رأى المرأة لأول مرة فدعته الى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة ، ولما جره الحديث الى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة : أأنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين ؟ ، نعم أتعرفين أبى ؟ . يا ألف أهلا وسهلا .. أتعرفين أبى ! .. أعرفه اكثر مما تعرفه أنت .. مازج عرقه عرقى .. وزففت له أختك .. كنت فى أيامى كأم كلثوم فى أيامك الكالحة .. سل عنى طوب الأرض ، تشرفنا يا ستى ، اختر من بناتى من تعجبك وليس بين الخيرين حساب ، هكذا فسق اول مرة فى هذا البيت على حساب والده ، وجعلت تنظر الى وجهه طويلا حتى انقبض قلبه ، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها ، اذ اين هذا الراس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدرى المورد ؟ ، ثم طال الحديث كل مطال ، فعرف عنها تاريخ أبيه السرى ، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفى صفاته ، « وأنا من شدة الحيرة متردد أبدآ بين وهج الغريزة ونسمة التصوف ! » .

قال كمال يجيبها :

ـ لا تبالغى يا عمتى ، أنامدرس والمدرس يحب الستر ، ولا تنسى أنى فى العطلة أزورك كل أسبوع مرات لا مرة ، ألم أكن عندك أول أمس ؟ ، انى ازورك كلما ..

« كلما لجت بى الحيرة ، ان الحيرة تدفعنى اليك قبل الشهوة . »

ـ كلما ماذا يا سيد نينة ؟

ـ كلما فرغت من العمل ..

ـ قل غير هذا الكلام . أف من زمانكم أف ، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس ، وطربنا كان من لحم

ودم وطربكم راديو ، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء ، عندك كلام يا خوجة البنات ؟

وأخذت من النارجيلة نفسا ثم غنت :

يا خوجة البنات علمهم ضرب الآلات ونغمـــهم

فضحك كمال ، ومال نحوها فقبل خـدها قبلة جمعت بين المودة والمداعبة ، فهتفت :

ـ شاربك كالشوك ، كان الله فى عون عطية !

ـ انها تحب الأشواك . .

ـ بهذه المناسبة كان عندى بالأمس ضابط النقطة على سن ورمح ، ولا فخر ، كافة زبائنى من ســادة القوم ، أم تظن أنك تتصدق على بزياراتك !

ـ يا ست جليلة ، انك لجليلة . .

ـ أحبك اذا سكرت ، فان السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويردك الى شىء من أبيك ، لكن خبرنى ألا تحب عطية ؟ ، . . انها تحبك !

هذه القلوب التى حجرتها فظاظة الحياة كيف تحب ؟ ، ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التى تجود بالحب وتستطيبه ؟؟ ، فاما أن تحبه بنت صاحب المقلى فيعرض عن حبها ، واما أن يحب عايدة فتعرض عن حبه ، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم ، ذلك الألم العجيب الذى يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المتقدة عجائب من أسرار الحياة ، ثم لا تخلف وراءها الا حطاما . قال يعلق على قولها متهكما :

ـ أحبتك العافية . .

ـ لم تعمل فى المقدر الا منذ طلاقها !

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـ الحمد لله فى جميع الأحوال .

وابتسم ابتسامة ذات معنى ، فأدركت معناها وقالت كالمحتجة :

- أتستكثر على أن أنوه بحمد الله ؟ ، آه منك يا بن عبد الجواد ، اسمع ، لا ابن لى ولا بنت ، وقد شبعت من الدنيا ، وعند الله العفو .

من عجب أن حديث المرأة تتردد فيه كثيرا هذه النغمة الموحية بالزهد !. وجعل يختلس اليها النظر وهو يتجرع بقية كأسه . وكانت الخمر تأخذ فى نفث سحرها معه من أول كأس . ووجد نفسه يتذكر عهدا مضى أيام كان للكأس فرحة سماوية ، ما أكثر الأفراح التى ولت ، فى البدء كانت الشهوة ثورة وانتصارا ، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء ، ثم أخمد نشواتها الزمن والعادة ، ولم تخل فى أحايين كثيرة من عذاب المتردد بين السماء والأرض ، ذلك قبل أن يسوى الشك بين الأرض والسماء ..

ودق الجرس . ودخلت عطية ، بيضاء بدنة ممتلئة ، لحذائها أطيط ولضحكتها رنين ، فقبلت يد المعلمة ، ثم ألقت نظرة باسمة على الكأسين الفارغين وهى تقول مداعبة كمال :

- خنتنى !

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلا ، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة ، وسارت الى الحجرة الى يمين مجلس المعلمة ، فلكزته جليلة قائلة :

- قم يا نور العين ..

تناول طربوشه ومضى الى الحجرة . ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينية عليها زجاجة وكأسان ومزة خفيفة ، فقالت لها عطية :

- هاتى لنا رطلين من العجاتى ، أنا جوعانة !

خلع الجاكتة ومد ساقيه فى ارتياح ، ثم جلس يراقبها وهى

تخلع حذاءها وفستانها ، ثم وهى تسوى قميصها أمام المرآة وتسرح شعرها . الجسم الذى يحبه ، الأبيض اللدن الممتلىء ، ترى كيف كان جسم عايدة ؟ ، كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنما لم يكن لها جسم ، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فانما تستقر فى روحه كالمعانى المجردة ، أما مايلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر البتة أن حواسه اتجهت الى شىء منها ، واليوم لو عرضت له حسناء كل ميزاتها الرشاقة والسمرة والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال ، فكيف كان هذا الحب ؟ ، وكيف ظلت ذكراه مصونة بالاجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شىء ؟!.

ـ الدنيا حر ، أف . .

ـ اذا لطستنا الخمر أستوى لدينا الحر والبرد !

ـ لا تأكلنى بعينيك ، وارفع نظارتك !

مطلقة ذات بنين ، تغطى كآبتها المعتمة بالعربدة ، وتمتص الليالى النهمة أنوثتها وانسانيتها دون مبالاة ، يختلط فى أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت ، وهى للاستعباد شر صورة ، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هى نجاة من الفكر !

وارتمت الى جانبه ومدت يدها البضة الى الزجاجة وأخذت تملأ الكأسين . هذه الزجاجة تباع فى هذا البيت بضعف ثمنها ، كل شىء هنا غال الا المرأة ، الا الانسان ، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس ، كى يغيب عن عين البشرية المحملقة فى اشمئزاز ، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر ، منهم وزراء وكتاب !

وبحلول الكأس الثانية فى جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرة . « هذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتى متى لا أدرى ، الشهوة سلطان مستبد أما الحب فشىء آخر ، وكم يبدو فى لباس عجيب اذا برىء من الشهوة ، واذا أتيح لى يوما أن أجدهما فى كائن بشرى

عرفت الاستقرار المنشود ، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لى عناصر يعوزها الانسجام ، فأنا أنشد « الزواج » فى الحياتين العامة والخاصة ، لا أدرى أيهما أصل الأخرى ، ولكنى متأكد أنى تعس رغم سلوكى فى الحياة الذى ضمن لى حظى من مسرات الفكر ولذات الجسد ، كالقطار الذى ينطلق فى قوة ولكنه لا يدرى من أين ولا الى أين . والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف ، ويهتف القلب ناشدا فى يأس أليم السعادة السرمدية ، عبثا ، لذلك فالشكوى لا تنقطع ، والحياة خدعة كبرى ، وينبغى أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كى نتقبل هذه الخدع راضين ، فتكون كالممثل الذى يعى دوره الكاذب على المسرح . ولكنه رغم ذلك يعبد فنه » .

وتجرع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية فى الضحك . وهى تحب السكر من صميم قلبها ولكنه يفعل بها الأفاعيل ، فاذا لم يوقفها عند حدها علا صوتها فتشنجت ثم بكت وتقايأت . ولعبت الخمر برأسه فاهتز طربا ، ومد اليها بصره فانبسطت أساريره . هى الآن امرأة فحسب لا مشكلة ، وكأنه لم تعد ثمة مشكلة فى الوجود ، الوجود نفسه — أثقل مشكلة فى الحياة — لم يعد مشكلة ، ولكن أشرب وأغرق فى القبل . .

— ما ألطفك اذا ضحكت بلا سبب !

— اذا ضحكت بلا سبب فاعلمى أن الأسباب أجل من أن تذكر . .

١٧

عاد عبد المنعم الى السكرية ملتفا فى معطفه ، يحبك من آن لآخر طاقته ليتقى برد الشتاء القارص ، وكان الظلام شاملا رغم أن الساعة لم تجاوز السادسة مساء . وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور الأول وتسلل الشبح اللطيف الذى كان ينتظر . وخفق قلبه وجعل يحملق فى الظلام بعينين متقدتين . وتابع شبحها وهو يرقى فى السلم فى خفة وحذر أن يحدث صوتا ، فوجد نفسه موزعا بين رغبة تغريه بالاستسلام وارادة تحثه على السيطرة على أعصابه التى تلوح بالخيانة والانهيار . وذكر — الآن فقط ! — انها واعدته الليلة من قبل ، وقد كان بوسعه أن يقدم موعد عودته أو يؤخره فيتجنب هذا اللقاء ، ولكنه نسى ذلك كله ، لشد ما ينسى !. ولم يكن ثمة وقت للتدبر والتذكر ، فليترك هذا الى حينه ، عندما يخلو الى نفسه فى حجرته ، الى تلك اللحظة التى ستشهده . منتصرا ظافرا أو منهزما مغلوبا على أمره . وارتقى السلم فى أعقابها دون أن يعزم على أمر ، ملقيا بنفسه فى خضم الامتحان ، ولم يكن شىء لينسيه آلام صراعه الأبدى . وفوق البسطة خيل اليه أن شبحها يضخم حتى ملأ عليه المكان والزمان . وقال وهو يخفى قلقه ويضمر الصمود مهما كلفه الأمر :

— مساء الخير ...

فجاء الصوت الرقيق يقول :

— مساء الخير ، أشكرك لأنك سمعت نصيحتى ولبست معطفك ..

فغلبه التأثر لرقتها ، وذابت فى حلقه كلمة أوشك أن يجبهها بها ، ثم قال مداريا ارتباكه :

ـ خشيت أن تمطر السماء ..

فرفعت رأسها الى أعلى كأنما تنظر الى السماء ، وقالت :

ـ ستمطر عاجلا أو آجلا ، ليس فى السماء نجم ، وقد ميزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة .

فاستجمع قواه المتلاطمة ، وقال فيما يشبه التحذير .

ـ الجو بارد ، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة !.

فقالت الصغيرة بصراحة تعلمتها على يديه :

ـ لا أشعر بالبرد فى قربك ..

فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل ، ونم حاله على أنه سيعاود الخطأ على رغمه ، وجعل يستعدى ارادته ليتغلب على الرجفة السارية فى بدنه ، فسألته :

ـ ما لك لا تتكلم ؟.

وأحس بيدها على منكبه تضغطه برقة ، فما تمالك أن طوقها بذراعه ، وقبلها قبلة طويلة ، ثم أمطرها قبلات حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثا :

ـ لا أطيق البعد عنك ..

فواصل عناقه متداويا فى حضنها ، وهى تهمس فى أذنه :

ـ أتمنى لو أبقى هكذا الى الأبد ..

فشد عليها الوثاق قائلا بصوت متهدج :

ـ ياللأسف !.

فتباعد رأسها فى الظلام قليلا ، وهى تتساءل :

ـ علام تأسف يا حبيبى ؟.

فقال بعد تردد :

ـ على الخطأ الذى نتردى فيه ..

ـ أى خطأ يالله ؟.

تخلص منها برقة ، وراح يخلع معطفه ، فطواه ، ثم هم بأن

يضعه على الدرابزين ، ولكنه عدل عن فكرته فى اللحظة الأخيرة
ـ لحظة هائلة ـ فثناه على ذراعه ثم تراجع الى الوراء خطوة .
كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزمة اعترضت تيار استسلامه
فقلبت كل شيء . وعادت يدها تتلمس السبيل الى عنقه فأمسك
بها ، وانتظر حتى هدأت أنفاسه ، ثم قال بهدوء :

ـ هذا خطأ كبير ...

ـ أى خطأ ؟ ! ، لست أفهم شيئا ..

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، انت تعبث بها
اشباعا لرغبة لا ترحم ، ولن يكون لهذا العبث من غاية ، ليس الا
عبثا تجلب به غضب الله ومقته .

ـ يجب أن تفهمى ، أنستطيع أن نعلن ما نفعل ؟ .

ـ نعلنه ؟ .

ـ انظرى كيف تستنكرين !. ولكن لماذا لا نعلنه ان لم يكن
عيبا مزريا ؟ .

وشعر بيدها تتصيده ، فارتقى الى أولى درجات السلم
التالية ، وكان مطمئنا الى أنه جاز منطقة الخطر بسلام .

ـ اعترفى بأننا مخطئان ، فلا ينبغى أن نصر على الخطأ ..

ـ عجيب أن أسمع منك هذا الكلام .

ـ لا عجب ، ان ضميرى لم يعد يتحمل الخطيئة ، انها تعذبنى
وتفسد على صلاتى ...

« صامتة !. آذيتها فليسامحنى الله ، يا للألم ، ولكنى لن
أتراجع ، أحمد الله على أن الخطأ لم يدفعك الى ما هو شر منه .. » .

ـ يجب أن يكون ما حصل درسا لنا فلا نعود الى مثله ، أنت
صغيرة ، وقد اخطأت ، فلا تجرى مرة أخرى وراء الخطأ .

وقالت فى نبرات باكية :

ـ لم أخطىء ، أتنوى هجرى ؟ . ماذا تقصد ؟ .

وكان قد تمالك قوته فقال :

— عودى الى بيتك ، لا تفعلى شيئا ترين وجوب التستر عليه ، لا تقابلى أحدا فى الظلام ..

فقال الصوت متهدجا :

— أتهجرنى ؟. أنسيت كلامك عن حبنا ؟.

— كلام من لا عقل له ، أنت مخطئة ، ليكن هذا درسا لك ، احذرى الظلام فقد تكون فيه نهايتك ، أنت صغيرة ، فمن أين لك هذه الجرأة ؟ !.

تردد فى الظلام انتحابها ، ولكنه لم يرقق قلبه ، كان منتشيا بلذة نصر قاسية :

— عى كل كلمة ، ولا تغضبى ، واذكرى اننى لو كنت نذلا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضى عليك . استودعك الله ..

ورقى فى السلم وثبا . انتهى من العذاب ، ولن يكون طعمة لأنياب الندم ، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ على المنوفى : ان مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة ، أجل ليذكر هذا . وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب ، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة :

— أريد أن أخلو الى والدى فى حجرة المكتب ، فانتظر قليلا من فضلك .

وفى طريقه الى الحجرة رجا والده أن يتبعه ، فرفعت خديجة رأسها أليه متسائلة :

— خير ؟...

— سأحدث أبى أولا ، ثم يأتى دورك ..

وتبعه ابراهيم شوكت صامتا . كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد ، وعاودته طمأنينته الخاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة . وجلسا جنبا الى جنب والأب يقول :

ــ خير ان شاء الله ؟.

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد :

ــ أريد يا أبى أن أتزوج !.

فحملق الرجل فى وجهه ، ثم قطب باسما كأنه لم يفهم شيئا ، وهز رأسه فى حيرة ، ثم قال :

ــ الزواج ؟ ، كل أمر رهن بوقته ، لماذا تحدثنى عن ذلك الآن ؟

ــ أريد أن أتزوج الآن ..

ــ الآن ؟! ، ما زلت فى الثامنة عشرة من عمرك ، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك ؟.

ــ لا أستطيع ...

وهنا فتح الباب ودخلت خديجة ، وهى تتساءل :

ــ ماذا يدور وراء ذلك الباب ؟ ، هل توجد أسرار تحل لأبيك وتحرم على ؟

فقطب عبد المنعم متنرفزا ، على حين راح ابراهيم يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول :

ــ عبد المنعم يريد أن يتزوج ..

فتفحصته خديجة كأنما تخاف عليه الجنون ، وهتفت :

ــ يتزوج ! ، ماذا أسمع ؟ ، هل قررت أن تترك الجامعة ؟

فقال عبد المنعم بصوت قوى غاضب :

ــ قلت انى أريد أن أتزوج لا أن أهرب من المدرسة ، سأواصل الدراسة متزوجا ، هذا كل ما هنالك ..

فقالت خديجة وهى تردد عينيها بينه وبين أبيه :

ــ عبد المنعم أأنت جاد حقا ؟

فصاح :

ــ كل الجد ...

فضربت المرأة كفا على كف وقالت :

ـ أصابتك عين ، ماذا حصل لعقلك يا ابنى ؟

فنهض عبد المنعم غاضبا وهو يقول :

ـ ما الذى جاء بك ؟ ، كنت أريد أن أختلى بأبى أولا ولكنك لا صبر لك ، أصغيا الى ، أريد أن أتزوج ، أمامى عامان حتى أنتهى من دراستى ، وأنت يا يا أبى تستطيع أن تعولنى هذين العامين ، لولا تأكدى من هذا ، ما عرضت طلبى . .

فجعلت خديجة تقول :

ـ يا لطف الله ! ، أكلوا عقله !

ـ من هم الذين أكلوا عقلى ؟

ـ الله بهم أعلم ، منهم لله ، أنت أدرى بهم ، وسنعرفهم عما قليل . .

فخاطب الشاب أباه قائلا :

ـ لا تصغ اليها ، انى لا أدرى حتى الساعة من التى ستكون من نصيبى ، أختاروها بأنفسكم ، أريد زوجة لائقة ، أى زوجة !

فسألته داهشة :

ـ أتعنى أنه لا توجد واحدة بالذات هى السبب فى هذه البلوى ؟

ـ أبدا ، صدقينى ، اختارى لى بنفسك . .

ـ وما الداعى الى السرعة اذن ؟ ، دعنى اختار لك ، أعطنى مهلة ، انها مسألة عام أو عامين ؟

فعلا صوته وهو يقول :

ـ أنا لا أهزل ، دعينى لأبى فهو يفهمنى خيرا منك !

فسأله أبوه بهدوء :

ـ ما وجه السرعة ؟

فقال عبد المنعم وهو يغض بصره :

ـ لا أستطيع البقاء دون زواج . .

فتساءلت خديجة :

ــ وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون ؟

فقال الشاب مخاطبا أباه :

ــ لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون !

فتفكر ابراهيم قليلا ، ثم قال حسما للموقف :

ــ يكفى هذا الآن ، وسنعود الى الموضوع فى فرصة أخرى .

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها ، وأخذها من يدها فغادرا الحجرة الى مجلسهما فى الصالة . وتحادث الزوجان مقلبين الأمر على جميع وجوهه . وبعد أخذ ورد طويلين مال ابراهيم الى تأييد مطلب ابنه ، وتولى بنفسه اقناع زوجه ، حتى سلمت بالمبدأ ، وعند ذلك قال ابراهيم :

ــ عندنا نعيمة بنت أخى ، فلن نتعب فى البحث عن عروس .

فقالت خديجة باستسلام :

ــ أنا التى أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث المرحوم اكراما لعائشة ، فلا اعتراض لى على اختيار نعيمة زوجة لابنى ، ان سعادة عائشة تهمنى جدا كما تعلم ، ولكنى أخاف تفكيرها ، وأحسب ألف حساب للشذوذ الذى طرأ عليها ، ألم تلمح أمامها مرات عن رغبتنا فى تزويج نعيمة من عبد المنعم ؟ ، ومع ذلك خيل الى أنها كانت ترحب بابن جميل الحمزاوى عندما قيل ان والده طلب له يدها ..

ــ هذا تاريخ قديم ، مضى عليه عام أو أكثر ، والحمد لله انه لم يتم ، فما كان يشرفنى أن يأخذ بنت أخى شاب مثله مهما تكن وظيفته ، الأصل عندى كل شىء ، نعيمة عندنا على العين والرأس .

فقالت خديجة وهى تتنهد :

ــ على العين والرأس ، ترى ماذا يقول أبى عن هذا اللعب اذا علم به ؟ !

فقال ابراهيم :

ــ سيرحب به دون شك ، كل شيء يبدو كالحلم ، ولكنى لن أندم ، فانى موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يغتفر ، ما دام فى الامكان تحقيقها !.

١٨

لم يطرأ على البيت القديم فى بين القصرين أى تغيير يذكر ، الا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وبيومى الشرباتلى ، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن اليوم تزوج حفيدة السيد أحمد من ابن عمها ــ وخالتها ــ عبد المنعم . حافظ السيد أحمد على تقاليده القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام ، فاقتصر على دعوة الأهل ، غاية الأمر أن أعدت العدة لوليمة عشاء . وكان الوقت فى مطلع الصيف ، وقد اجتمعوا جميعا فى حجرة الاستقبال ، السيد أحمد عبد الجواد وأمينة وخديجة وابراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد وياسين وزنوبة ورضوان وكريمة ، ما عدا نعيمة التى كانت تأخذ زينتها فى الدور الأعلى بمعاونة عائشة . ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقى على الاجتماع العائلى ظلا من الوقار الذى لا تستسيغه المناسبة السعيدة ، فانتقل عقب الاستقبال بقليل الى حجرته ، حيث لبث ينتظر حضور المأذون . وكان السيد قد صفى تجارته وباع الدكان مؤثرا الراحة لشيخوخته ، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب ، ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوى اضطره الى بذل نشاط مضاعف لم يعد يحتمله ، فقرر انهاء حياته العملية ، قانعا بما تخلف له من تصفية دكانه وما ادخر من مال

من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر . وكان حدثا هاما فى حياة الأسرة ، جعل كمال يتساءل عن حقيقة الدور الذى كان يلعبه جميل الحمزاوى فى حياتهم عامة وحياة أبيه خاصـــة . ولبث السيد فى حجرته منفردا ، يتأمل أحداث اليوم فى صمت ، كأنما لا يصدق حقا أن العريس هو عبد المنعم حفيده . ويوم فاتحه ابراهيم شوكت فى الأمر عجب ، واستنكر ، كيف تسمح لابنك بأن يحدثك بهذه الصراحة وأن يملى ارادته عليك ، انكم آباء خلقتم لافساد الأجيال ، ولو فى غير الظرف الذى يدرك دقته لقال لا ، ولكن كانت هناك عائشة ، فحيال تعاستها تخلى عن عناده التقليدى كله ، ولم يطق — خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوى من تعليقات — أن يخيب لها رجاء ، واذا كان زواج نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلا به وسهلا . هكذا دفعه الحرج الى أن يقول نعم ، وأن يسمح للصبيان أن يملوا ارادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة . ودعا عبد المنعم الى مقابلته ، وطلب اليه أن يتعهد باتمام دراسته ، فتكلم عبد المنعم كلاما جميلا مريحا مستشهدا فى أثناء ذلك بالقرآن والحديث ، فترك فى نفس جده آثارا متباينة من الاعجاب والسخرية . هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر فى الزواج بعد ، وعلى حين رفض هو يوما أن تعلن خطبة المرحوم فهمى — مجرد اعلان خطبة — الذى مات قبل أن يجنى ثمرة شبابه الغض ، وهكذا يبدو أن العالم قد انقلب على رأسه ، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب ، وأننا غرباء بين أهلينا ، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندرى ماذا يصنعون غدا .

وفى حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل :

— لذلك خلينا الدور الثانى من سكانه ، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال .

فقال لها ياسين بلهجة غادرة :

ــ عندك كافة المواهب التى تجعل منك « حماة » لا نظير لها ، ولكنك لن تستطيعى استغلال مواهبك الفذة مع هذه العروس !

فأدركت ما يرمى اليه ، ولكنها تجاهلته قائلة :

ــ العروس ابنتى وابنة اختى . . .

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين :

ــ خديجة هانم سيدة كاملة !

فشكرتها خديجة ، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام اكراما لياسين ، على الرغم من احتقارها الباطنى لها . وكانت كريمة تتألق فى سنها العاشرة مما جعل ياسين ينوه بأنوثتها المنتظرة ! . أما عبد المنعم فراح يحادث جدته أمينة المعجبة بتدينه ، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له . وسأل كمال أحمد ممازحا :

ــ وأنت تتزوج فى العام المقبل ؟

فقال أحمد ضاحكا :

ــ الا اذا اتبعت سنتك يا خالى !

وكانت زنوبة تتابع حديثهما ، فقالت موجهة الخطاب الى كمال :

ــ لو سمح لى سى كمال فانى أعد بأن أزوجه فى أيام !

فقال لها ياسين وهو يشير الى نفسه :

ــ انى مستعد لأن أسمح لك عن نفسى !

فقالت وهى تهز رأسها تهكما :

ــ لقد تزوجت بما فيه الكفاية ، وأخذت نصيبك ونصيب اخيك . . .

وانتبهت أمينة الى موضوع الحديث ، فقالت لزنوبة :

ــ اذا زوجت كمال ، فسأحاول أن أزغرد لأول مرة فى حياتى !

وتخيل كمال أمه وهى تزغرد فضحك ، ثم تخيل نفسه فى مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم . الزواج يهيج دوامة فى

أعماقه كما يهيج الشتاء الربو عند المريض ، وهو يرفضه عند كل مناسبة ، لكنه لا يستطيع أن يتجاهله ، وهو خالى القلب ولكنه يضيق بخلوه كما كان يضيق قديما بامتلائه ، واليوم اذا أراد الزواج فليس أمامه الا الطريق التقليدى الذى يبدأ بالخاطبة ، وينتهى بالأسرة والأطفال والاندماج فى ميكانيزم الحياة ، فلا يكاد يجد المولع بالتأمل موضعا للتأمل ، وسوف يرى الزواج دائما أبدا فى مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى ، أما فى نهاية العمر فلن تجد الا الوحدة والكآبة ..

السعيدة حقا فى ذلك اليوم كانت عائشة . لأول مرة منذ تسع سنوات تحلت بثوب جميل وعقصت شعرها . وكانت ترقب ابنتها التى تبدت كقبضة من نور بعينين حالمتين ، فاذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل . وقد لمحتها أمها مرة وهى تبكى ، فنظرت اليها معاتبة وهى تقول :

ـ لا يصح أن تترك نعيمة البيت وفى قلبها حزن !

فانتحبت عائشة قائلة :

ـ ألا ترينها وحيدة فى هذا اليوم لا أب ولا أخ ؟

فقالت أمينة :

ـ البركة فى أمها ، ربنا يخليها لها ، وهى ذاهبة الى خالتها وعمها ، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله ..

فجففت عائشة عينيها وهى تقول :

ـ ذكريات الأموات الأعزاء تغمرنى من طلعة الصبح ، ووجوههم تلوح لى ، ثم اننى بعد ذهابها سأبقى وحيدة ...

فقالت أمينة فى عتاب :

ـ لست وحيدة ..

وكانت نعيمة تربت خد أمها وتقول :

ـ كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما ؟

فتجيبها عائشة بحنان وهى تبتسم :

ــ سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين !

فقالت نعيمة بقلق :

ــ ستزورينني كل يوم ، كنت تتحاشين الاقتراب من السكرية ، ولكن يجب أن تتخلى عن هذه العادة منذ اليوم .

ــ طبعا ، هل تشكين فى ذلك ؟

واذا بكمال يقبل عليهما قائلا :

ــ استعدا ، جاء المأذون . .

وعلقت عيناه بنعيمة فى اعجاب . يا للجمال ، والرقة ، والشفافية ، كيف يكون للحيوانية دور فى هذا الكائن اللطيف ! ؟

ولما عرف أن الكتاب قد كتب ، تبودلت التهانى ، واذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع فى جوه الصامت ، فاتجهت الرءوس فى دهش الى حيث وقفت أم حنفى فى نهاية الصالة . ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون الى المائدة ، انقبض صدر عائشة وتركز تفكيرها فى الفراق الوشيك ، فلم تنفتح نفسها للطعام . ثم جاءت أم حنفى فأبلغت أن الشيخ متولى عبد الصمد جالس على الأرض فى الحوش ، وانه طلب عشاءه خاصة من اللحوم ، فضحك السيد وأمر بأن تهيأ له صينية وتحمل اليه . وما لبث أن ترامى اليهم صوته صاعدا من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيبه « ابن عبد الجواد » ، ويتساءل فى الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم ! فقال السيد باسما :

ــ يا للخسارة ! . . نسى الشيخ متولى أسماءكم ، سامح الله الشيخوخة . .

فقال ابراهيم شوكت :

ــ انه فى المائة من عمره ، أليس كذلك ؟ .

فأجاب أحمد عبد الجواد بالايجاب ، وعند ذاك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح :

ـ باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم !

فضحك السيد قائلا :

ـ سر ولايته قاصر اليوم على اللحوم !

وحين ساعة الوداع سبق كمال الى الحوش ليتجنب ذلك المنظر . ومع أنه لم يزد على انتقال يسير الى السكرية الا أنه كان ذا وقع شديد كالصدع فى قلبى الأم وابنتها . والواقع أن كمال كان ينظر الى هذا الزواج بعين ملؤها الشك ، بالنظر الى جدارة نعيمة للحياة الزوجية . وفى الحوش رأى الشيخ متولى عبد الصمد جالسا على الأرض تحت المصباح الكهربائى المثبت فى جدار البيت ليضىء المكان ، مادا ساقيه ، مرتديا جلبابا أبيض باهتا وطاقية بيضاء ، خالعا نعليه مستندا الى الجدار كالنائم ليريح جوفه مما امتلأ به من طعام . ورأى بين ساقيه ماء يسيل ، فأدرك من النظرة الأولى أن الشيخ يبول وهو لايشعر ، وكانت أنفاسه تتردد فتسمع كالفحيح . حدجه كمال بنظرة جمعت بين التقزز والرثاء ، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغمه ، وقال لنفسه :

ـ لعله كان طفلا مدللا عام ١٨٣٠ !

١٩

فى اليوم التالى مباشرة ذهبت عائشة لزيارة السكرية . طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم الا لزيارة القرافة ، فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابنى ياسين الصغيرين . وقفت قليلا عند مدخل السكرية تلقى على المكان نظرة شاملة ، حتى غطى الدمع ناظريها . على الأرض أمام مدخل البيت التى أشبعتهما أقدام عثمان ومحمد جريا ولعبا ، والحوش الذى

ازدان يوما بحفل عرسها البهيج ، والمنظرة التى كان يجلس فيها خليل يدخن غليونه ويلعب الطاولة والدومينو ، ذلك شذا الماضى العطر المشبع بالحنان والحب المفقودين ، وهى سعيدة ، سعادة سارت مسير الأمثال ، حتى قيل عنها الضاحكة المترنمة التى لا شغل لها الا مضاحكة المرآة ومصاحبة الزينة ، والزوج يناجى والأطفال يشبون ، تلك الأيام الماضية . وجففت عينيها حتى لا تلقى العروس باكية . جففت عينين ما تزالان زرقاوين وان تساقطت أهدابهما وذبلت جفونهما . ووجدت الشقة قد جددت مرافقها وطليت جدرانها فبدت ثغرا باسما فى جهاز العروس الذى أنفق عليه بسخاء . واستقبلتها نعيمة فى فستان أبيض هفاف ، وقد أرسلت شعرها الذهبى حتى مست أهدابه باطن الساقين ، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف ساحر ، فتعانقتا عناقا طويلا حارا ، حتى قال عبد المنعم ، وكان ينتظر دوره فى السلام فى روب جنزارى شمل به جلبابه الحريرى :

ـــ كفاية ، أقل سلام يكفى هذا الفراق الوهمى !

ثم عانق خالتـــه ، ومضى بهـــا الى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول :

ـــ كنا فى سيرتك يا خالتى ، فقد رأينا على أن ندعوك للاقامة معنـــا ... ؟!

فابتسمت عائشة قائلة :

ـــ أما هذا فلا ، سأزوركم كل يوم فتكون فرصة للفسحة ، ما أحوجنى الى الحركة ..

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة :

ـــ نعومة قالت لى انك لا تحتملين المكوث هنـــا خشية أن تطاردك الذكريات ، ان الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن ، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد ، ونحن أولادك فقد عوضك الله !

هذا الشـــاب طيب صريح ولكنه لا يبالى أن يقع كلامه من القلوب الجريحة .

ــ طبعا يا عبد المنعم ، ولكنى مرتاحة فى بيتى ، هذا أفضل . .

واذا بخديجة وابراهيم واحمد يدخلون ، فيصافحونها ، ثم تقول خديجة لعائشة :

ــ لو عرفت أن هذا الذى يعيدك الى زيارتنا لزوجتهما قبل البلوغ ! .

فضحكت عائشة ، وقالت تذكر خديجة بالماضى البعيد :

ــ المطبخ واحد ؟ ! . ألم تطالب العروس بالاســـتقلال من حماتهـــا ؟ .

فضحكت خديجة وابراهيم معا ، وقالت خديجة بلهجة لم تخل من معنى :

ــ العروس كأمها لا تعنى بالسفاسف ! .

وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة :

ــ بدأت المعارك بين أمكما وأمى بسبب مشكلة المطبخ الذى كانت أمى تستقل به ، ومطالبة أمكما بالاستقلال المطبخى . .

فقال العريس متعجبا :

ــ كنت تتعاركين يا نينة بسبب المطبخ ! .

فقال أحمد ضاحكا :

ــ وهل من سبب للمعارك التى تدور بين الأمم الا هذا المطبخ ؟! .

فقال ابراهيم فى تهكم :

ــ أمكما قوية كانجلترا ، أما أمى فرحمة الله عليها . .

وجاء كمال ، كان يرتدى بدلة بيضاء أنيقة ؛ أما وجهه فيتكون من الطاقم المألوف المركب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ ، وكان يحمل بيده لفة كبيرة بشرت بهدية ممتازة ، فقالت خديجة باسمة وهى تتفحص الهدية :

ــ حذار يا أخى ، اذا لم تتدارك نفســك بالزواج فستظل تجىء بالهدايا دون أن يرد لك الجميل ، الأسرة كلها اليوم موشكة على الزواج ، هذا أحمد ، وهناك رضوان وكريمة ، تدارك نفسك بالتى هى أحسن ! .

وسأله أحمد :

ــ بدأت العطلة المدرسية يا خالى ؟ .

فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو الى العروس الجميلة :

ــ لم تبق الا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح فى الابتدائية !

وغابت نعيمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى ، مختلفة الألوان والطعوم ، فمضت فترة لم تسمع خلالها الا التمطق والمصمصة . ثم راح ابراهيم يحكى ذكريات فرحه ، الحفل ، والمغنى ، والعالمة . وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون ، وتابعه كمال بشغف اذ كان يعيد عليه صــورا ما زال يذكر بعضها ويود لو يعرف ما فاته منها . قال ابراهيم ضاحكا :

ــ السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشد ، ولكن أمى رحمها الله قالت بحزم : ليفعل السيد ما يشاء فى بيته ، أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء ، وقد كان . وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير جميعــا ، أذكر منهم الســيد محمد عفت جد رضوان ، فجلسوا جميعا فى المنظرة بعيدا عن الزياط ! .

وقالت خديجة :

ــ أحيت الليلة جليلة أشهر عالمة فى عصرها . .

وابتسم قلب كمال ، وذكر البدرونة العجــوز التى ما تزال تنوه بعهد أبيه ! . . . .

وقال ابراهيم مسترقا النظر الى عائشة :

- وكان لنا عالمة خصوصية لبيتنا ، ولكن صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة ، كان يذكرنا بصوت منيرة المهدية فى عزها ! .

فتورد وجه عائشة ، وقالت بهدوء :

- سكت صوتها منذ عهد بعيد ، حتى نسيت الغناء ..

فقال كمال :

- نعيمة تغنى كذلك . ألم تسمعها ؟ .

فقال ابراهيم :

- سمعت عنها ولكنى لم أسمعها بعد ، الحق انا عرفناها شيخة لا عالمة ! . بالأمس قلت لها : زوجك شيخ المؤمنين ، ولكن ينبغى أن تؤجلى الصلاة والعبادة الى حين !

وضحكوا جميعا ، وقال أحمد مخاطبا أخاه :

- لا ينقص عروسك الا أن تضمها الى شعبة الشيخ على المنوفى معك ..

فقال العريس :

- ان شيخنا أول من نصحنى بالزواج ..

فقال أحمد مخاطبا أخاه :

- لعل الاخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسى!.

والتفت ابراهيم الى كمال قائلا :

- أما أنت فكنت - أقصد أيام دخلتى - صغيرا ، وكان شعرك غزيرا لا كما هو اليوم ، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبدا ..

« كنت ميدانا خاليا لم تبدأ به المعارك بعد ، يتحدثون عن سعادة الزواج ، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون ! ، نعيمة أعز على من أن يملها مخلوق ، أى شىء لا ينكشف عن خدعة فى هذه الحياة ؟ ! » .

قالت خديجة معلقة على قول زوجها :

ـ كنا نظن ذلك حبا لنا ، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس الا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر ! .

وضحك كمال كما ضحكوا جميعا . انه يحب خديجة ، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له ، أما تعصب العريس فشد ما يزعجه ، ولكنه من ناحية أخرى يحب أحمد ويعجب به ، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به فى كل مناسبة ، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به ، فانتشى قلبه وحواسه ، ووجد حنينا وان يكن بلا هدف ، ثم تساءل كأنما يتساءل لأول مرة : ماذا يمنعنى من الزواج ؟ .. حياة الفكر كما كان يزعم قديما ؟ ! ، انى اشك اليوم فى الفكر والمفكر معا ، أهو الخوف ، أم الانتقام ، أم الرغبة فى الألم ، أم رد الفعل الصادر من الحب القديم ؟ . فى حياتى مسوغ لأى من هذه الأسباب ! .

وسأل ابراهيم شوكت كمال :

ـ أتدرى لماذا آسف على عزوبتك ؟ .

ـ نعم ؟ ...

ـ انى أعتقد أنك زوج مثالى اذا تزوجت ، فأنت رجل بيت بطبعك ، منظم ، مستقيم ، موظف محترم ، ولا شك أنه توجد فتاة فى مكان ما من الأرض تستحقك ، وأنت مضيع عليها حظها ! .

حتى البغال تنطق أحيانا بالحكم ، فتاة فى مكان ما من الأرض ولكن أين ؟ أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو الا كافر فاسق سكير منافق ! ، فتاة فى مكان ما من الأرض ، فلعله غير بيت جليلة بعطفة الجوهرى ، وهذه الآلام التى تتطاحن فى قلبه ما علتها ؟ . والحيرة التى لا مهرب منها الا بالخمر والشهوات ! ، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد ، وشد ما طمح الى الخلود فى شتى أشكاله وألوانه ، فهل يركن يائسا فى النهاية الى هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة ؟ . وثمة أمل أن يجىء الموت بلا ألم يشوه راحته الأبدية ، كم بدا الموت

مخيفا لا معنى له ؛ ولكنه — بعد أن فقدت الحياة كل معانيها — يبدو اللذة الحقيقية فى الحياة ، ما أعجب العاكفين على العلم فى معاملهم ، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم فى المهالك فى سبيل الدستور ، أما الذين يدورون حول أنفسهم فى حيرة وعذاب فالرحمة لهم ! ، وردد بصره بين أحمد وعبد المنعم فى اعجاب مقرون بالغبطة ، ان الجيل الجديد يشق سبيله العسير الى هدف بين دون شك أو حيرة ، ترى ما سر دائى الوبيل ؟ ! .

قال أحمد :

— سأدعو العروسين ووالدى وخالتى الى لوج فى الريحانى الخميس القادم .

فتساءلت خديجة :

— الريحانى ؟ . .

فقال لها ابراهيم مفسرا :

— كشكش بك ! .

فضحكت خديجة وقالت :

— كاد ياسين يطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضوان ليلة الى كشكش ! .

فقال أحمد باستهانة :

— كان زمان وجبر ، جدى الآن لا يمانع فى ذهاب جدتى الى كشكش بك ! .

فقالت خديجة :

— خذ العروسين وأباك ، أما أنا فكفاية على الراديو . .

وقالت عائشة :

— وكفاية على أنا بيتكم . .

وراحت خديجة تقص قصة ياسين وكشكش بك حتى حانت

من كمال نظرة الى ساعته فتـذكر موعد رياض قلدس ، فنهض مستأذنا فى الانصراف .

٢٠

— أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقا بالرغم من أن الامتحان لم يبق عليه الا أيام ؟ .

كان السائل طالبا ، والمسئول طالبا كذلك ، فى جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف دائرة فوق هضبة خضراء فى اعلاها كشك خشبى احتله طلاب آخرون ، وعلى مرمى البصر تراءت جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخللها مماشى الفسيفساء ، قال الطالب المسئول :

— كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية ، رغم اقتراب الامتحان .

كان عبد المنعم شوكت جالسا فى محيط نصف الدائرة ، وكذلك أحمد شوكت ، فقال عبد المنعم :

— الزواج ، بخلاف ما تظنون ، يهيىء للطالب أحسن فرصة للنجاح .

فقال حلمى عزت ، وكان يجلس لصق رضوان ياسين فى الطرف الآخر من نصف الدائرة :

— هذا اذا كان الزوج من الاخوان المسلمين ! .

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤى ، رغم ما أثاره الحديث فى نفسه من غم . أجل ان سيرة الزواج تثير قلقه ، فلا يدرى ان كان يقدم يوما على هذه المغامرة أم لا ، مغامرة مخيفة يقدر ما هى ضرورية ، ولكن ما أبعدها عن روحه وجسده ! . وتساءل طالب :

— وما الاخوان المسلمون . ؟

فأجابه حلمى عزت :

— جمعية دينية تهدف الى احياء الاسلام علما وعملا ، الم تسمع بشعبها التى بدأت تتكون فى الأحياء ؟ .

— غير الشبان المسلمين ؟ .

— نعم ...

— وما الفرق ؟ .

فأجاب وهو يشير الى عبد المنعم شوكت :

— سل الأخ ...

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

— لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب ، ولكننا نحاول فهم الاسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم ..

— أهذا كلام يقال فى القرن العشرين ؟ .

فقال الصوت القوى :

— وفى القرن العشرين بعد المائة ..

— احترنا يا هوه بين الديموقراطية والفاشستية والشيوعية ، هذا خازوق جديد ! .

فقال أحمد ضاحكا :

— لكنه خازوق ربانى ! .

فعلت ضجة ضحك ، الا أن عبد المنعم حدجه بنظرة غاضبة ، وكان رضوان ياسين ساءه التعبير ، فقال :

— خازوق تعبير غير موفق .

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم :

— وهل ترجمون الناس اذا خالفوكم ؟

— ان الشبان يتهددهم زيغ فى العقيدة ، وانحلال فى الخلق ، وليسن الزجم بأشد ما يستحقونه ، ولكننا لا نرجم ، وانما بالموعظة

الحسنة والمثال الطيب نهدى ونرشد ، وآية ذلك أن بيتنا يضم ، أخا ممن يستحقون الرجم ، وها هو يمرح أمامكم ، ويتطاول على خالقه سبحانه ! .

فضحك أحمد ، وقال حلمى عزت مخاطبا اياه :

ـ اذا آنست من أخيك خطرا ، فانى أدعوك للاقامة معى فى الدرب الأحمر . . .

ـ االنت مثله ؟ .

ـ كلا ، ولكنا معشر الوفديين قوم متسامحون ، المستشار الأول لزعيمنا قبطى ، هكذا نحن . . .

وعاد الطالب الأول يقول :

ـ كيف تدعون الى هذا الهراء فى نفس الشهر الذى الغيت فيه الامتيازات الأجنبية ؟ .

فقال عبد المنعم متسائلا :

ـ أنبطل ديننا اكراما للأجانب ؟

واذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان فى واد آخر :

ـ الغيت الامتيازات ، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون . .

فقال حلمى عزت :

ـ هؤلاء النقاد غير مخلصين ، انها الكراهية والحسد ، ان الاستقلال الحقيقى الكامل لا يؤخذ الا بالحرب ، فكيف يطمعون فى أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا ؟ .

فجاء صوت يقول فى ضجر :

ـ دعونا نتساءل عن المستقبل ! .

ـ المستقبل لا يبحث فى شهر مايو والامتحان على الأبواب ، أريحونا . . لن أعود الى الكلية بعد اليوم حتى يتسع لى الوقت للمذاكرة . .

ـ مهلا ، ان الوظائف لا تنتظرنا ، ما مستقبل الحقوق أو

الآداب ؟ .. التسكع أو الوظائف الكتابية ، تساءلوا عن المستقبل اذا شئتم ...

ـ أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب ! .

ـ الأبواب ؟ ! . السكان أكثر من الأبواب ..

ـ اسمعوا ، النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة ، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف ، فهل يعجز عن توظيفنا ؟ .

ولاح فى أقصى الحديقة سرب ، فانعقدت الألسنة واتجهت نحوه الرءوس ، كان مكونا من أربع فتيات قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة . لم تكد تميزهن الأبصار بعد ، ولكنهن تقدمن متمهلات يسقن الأمل فى رؤيتهن عن قريب ، اذ كان الممر الذى يسرن فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب فى مسيره نحو الشمال . وصرن فى مجال البصر ، ورددت الألسن أسماءهن وأسماء كلياتهن ، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب ، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر نحو احداهن « علوية صبرى » ، وجذب الاسم شوارد نفسه ، فتاة ذات جمال تركى ممصر ، معتدلة الطول نحيلة ، بيضاء ذات شعر أسود فاحم ، وعينين سوداوين واسعتين عاليتى الجفون ، مقرونة الحاجبين ، ذات سمت أرستقراطى ولفتات رفيعة ، والى ذلك كله فهى زميلة فى القسم الاعدادى ، وقد علم ـ والباحث يظفر بمعلومات شتى ـ انها سجلت اسمها مثله فى قسم الاجتماع ، ولم تكن تهيأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة ، ولكنها أثارت اهتمامه من أول نظرة . طالما رمق ملامحه نعيمة باعجاب ولكنها لم تهز أعماقه ، هذه الفتاة لها شأن ، فيبشر قريبا بصداقة العقل ، والقلب .. ؟ !

قال حلمى عزت عقب توارى السرب عن الأنظار :

ـ عما قريب تصبح كلية الآداب وكأنها كلية بنات ! .

فقال رضوان ياسين وهو يردد بصره بين طلاب الآداب فى نصف الدائرة :

ـ لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون من زياراتكم فى كليتكم فيما بين الحصص ، فالغرض مفضوح ! .

ثم ضحك ضحكة عالية ، ولكنه لم يكن سعيدا فى تلك اللحظة ، فان حديث الفتيات يثير فى نفسه اضطرابا وحزنا .

ـ لم يقبل الفتيات على كلية الآداب . ؟

ـ لأن وظيفة التدريس هى أوسع الوظائف صدرا لهن ..

فقال حلمى عزت :

ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائية ، الروج والمانيكور والكحل والشعر والقصص ، كلها باب واحد ! .

فضحكوا جميعا حتى احمد ، وبقية طلاب الآداب ضحكوا رغم توثبهم للاحتجاج ، ثم قال أحمد :

ـ يصدق هذا الحكم الجائر على الطب ، فطالما كان التمريض نسائيا ، أما الحق الذى لم يستقر بعد فى نفوسكم فهو الايمان بالمساواة بين الرجل والمرأة .

قال عبد المنعم باسما :

ـ لا أدرى ان كان مدحا أم ذما أن تقول للنساء انهن مثلنا ! .

ـ اذا تعلق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذم ..

فقال عبد المنعم :

ـ لقد سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث .

فقال أحمد متهكما :

ـ حتى فى الرق ساوى بينهما !

فاحتد عبد المنعم قائلا :

ـ أنتم لا تعرفون دينكم ، هذه هى المأساة ! .

والتفت حلمى عزت الى رضوان ياسين ، وسأله باسما :

- ماذا تعرف عن الاسلام ؟

فسأله الآخر بنفس لهجته :

- وماذا تعرف أنت عنه ؟ .

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد :

- وأنت ماذا تعرف عنه حتى لا تهرف بما لا تعرف ؟ .

فقال أحمد بهدوء :

- أعرف أنه دين ، وحسبى ذلك ، لا أومن بالأديان ! . .

فتساءل عبد المنعم مستنكرا :

- ألديك برهان على بطلان الأديان ؟ .

- ألديك أنت برهان على حقيقتها ؟ .

فقال عبد المنعم ، وقد ارتفع صوته حتى جعل الشاب الذى يجلس بينه وبين أخيه يردد رأسه بينهما كالمنزعج :

- عندى ، وعند كل مؤمن ، ولكن دعنى أسألك أولا كيف تعيش ؟ .

- بايمانى الخاص ، ايمانى بالعلم والانسانية وبالغد ، وبما ألتزمه من واجبات ترمى فى النهاية الى تمهيد الأرض لبناء جديد .

- هدمت كل ما الانسان انسان به . .

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوتها ، ولكن على حطة بعض بنى الانسان ، ذلك ضد معنى الحياة المتجددة ، ما يصلح لى وأنا طفل يجب أن أغيره وأنا رجل ، طالما كان الانسان عبدا للطبيعة والانسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان بالمذاهب التقدمية ، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة !

فقال عبد المنعم ، وكان فى تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له :

ــ الالحاد سهل ، حل سهل هروبى ، هروبى من الواجبات التى يلتزمها المؤمن حيال ربه ونفسه والناس ، وليس من برهان على الالحاد يمكن أن يعد أقوى من البرهان على الايمان ، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا ..

وتدخل رضوان قائلا :

ــ لا تستسلما لعنف المناقشة ، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد ..

واذا بحلمى عزت يندفع قائلا ، وكان أحيانا تعتريه نوبات ثائرة غامضة :

ــ ايمان .. انسانية .. الغد ! ، كلام فارغ ، النظام القائم على العلم وحده ينبغى أن يكون كل شىء ، يجب أن نؤمن بشىء واحد هو استئصال الضعف البشرى بكافة أنواعه ، ومهما بدا عملنا قاسيا ، وذلك للوصول بالبشرية الى مثال قوى نظيف !

ــ أهذه مبادىء الوفد الجديدة بعد المعاهدة ؟

فضحك حلمى عزت ضحكة عادت به الى حالته الطبيعية ، وقال عنه رضوان :

ــ انه حقا وفدى ، ولكن تطوف به أحيانا مذاهب طارئة غريبة فيدعو الى القتل بالجملة ، وربما دل ذلك على أنه لم ينم أمس نوما مريحا !

وكان لشدة الخصام رد فعل فساد الصمت ، فسر بذلك رضوان ، وسرح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأة المدومة فى السماء ، أو يرنو الى أسراب النخيل . الكل يعلن رأيه حتى ما يتهجم به على الخالق ، ولكنه لا يسعه الا أن يكتم ما يضطرم فى أعماق نفسه ، وسيظل سرا مرعبا يتهدده ، فهو كالمطارد ، أو كالغريب ، من الذى قسم البشر الى طبيعى وشاذ ؟ ، وكيف تكون

الخصم والحكم فى آن ؟ ، ولم نهزأ كثيرا بالتعساء ؟ . قال رضوان مخاطبا عبد المنعم :

ـــ لا تزعل ، ان للدين رباً يحميه ، أما أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبا !

حقا . . . ؟ !

فقال أحمد مداعبا أخاه ليمسح عنه آثار الحدة :

ـــ أهون على أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك !

ثم مضى أحمد يحدث نفسه : غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته الى السكرية صدرا حانيا ، أمن المستحيل أن أعود يوما فأجد علوية صبرى فى الدور الأول بالسكرية ؟

وندت عنه ضحكة ، ولكن أحدا لم يخمن السبب الحقيقى لضحكته . .

٢١

بدأ بيت عبد الرحيم باشا عيسى فى حركة غير مألوفة ، ففى الحديقة وقف أناس كثيرون ، وفى الڤراندا جلس آخرون ، وكثر الداخل والخارج ، فلكز حلمى عزت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت ، وقال له بارتياح :

ـــ لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم . .

وعندما أخذا يشقان سبيلهما الى الداخل ، هتف بعض الشبان « يحيا التضامن » فتورد وجه رضوان تأثرا . كان متحمسا ثائرا مثلهم ، بيد أنه ساءل نفسه فى قلق : ترى ألا يشك أحد فى الجانب غير السياسى من زياراته ؟ . وقد أفضى مرة بمخاوفه الى حلمى عزت ، فقال له : « أن الريبة لا تلحق الا

بالخواف ! ، سر مرفوع الرأس ثابت الأقدام ، يجدر بالذين يعدون أنفسهم للحياة العامة ألا يكترثوا لآراء الناس أكثر مما يجب ! » .
وكان بهو الاستقبال مكتظا بالجالسين ، منهم طلبة وعمال بعض أعضاء الهيئة الوفدية ، وفى صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى ، متجهما على غير عادته ، جاداً صارما ، تكتنفه هالة الرجل السياسى الخطير . وتقدما اليه فنهض لاستقبالهما فى رزانة ، وصافحهما ثم أشار لهما بالجلوس . وقال أحد الجالسين ، وكان قد توقف عن الحديث أثناء استقبال الشابين :

ـ شد ما فوجىء الرأى العام وهو يطلع على أسماء الوزراء الجدد ، فلا يجد بينهم النقراشى !

فقال عبد الرحيم باشا عيسى :

ـ توقعنا عند الاستقالة أمرا ، خاصة وأن الاختلاف كان قد ذاع حتى تحدثت به المقاهى ، ولكن النقراشى ليس كغيره من أعضاء الوفد ، لقد فصل الوفد من قبل كثيرين فلم تقم لهم قائمة ، أما النقراشى فله شأن آخر ، ولا تنسوا أن النقراشى معناه أحمد ماهر أيضا ، هما الوفد ، الوفد المجاهد المناضل المحارب ، سلوا المشانق والسجون والقنابل ، وليس الخلاف هذه المرة بالذى يشين الخارج ، هى نزاهة الحكم ، قضية القنابل ، واذا وقع المحذور وانشق الوفد ، فالوفد هو الذى سيخرج لا النقراشى ولا ماهر !

ـ لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرا . .

ووقع هذا القول من أذنى رضوان موقفا غريبا ، فلم يكن مما يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب فى بيئة وفدية صميمة . واذا بآخر يقول :

ـ مكرم عبيد هو أس هذا الشر كله يا سعادة الباشا . .

فقال عبد الرحيم باشا :

ـ ليس الآخرون أصفارا !

ـ لكنه هو الذى لا يطيق منافسيه ، انه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك ، واذا خلا له الجو من ماهر والنقراشي فلن يقف فى سبيله شيء ..

ـ لو أمكنه ازالة النحاس نفسه لأزاله .

فقال شيخ من الجلوس :

ـ أرجوكم ، لا تسرفوا فى القول ، قد تعود المياه الى مجاريها .

ـ بعد أن تألفت الوزارة دون النقراشي ؟

ـ كل شيء ممكن ..

ـ كان من الممكن هذا على عهد سعد ، أما النحاس فرجل عنيد ، وهو اذا ركب رأسه ...

وهنا دخل البهو رجل مهرولا ، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل :

ـ متى عدت ؟ ، كيف الحال فى الاسكندرية ؟

ـ عال .. عال ، استقبل النقراشي فى محطة سيدى جابر استقبالا شعبيا منقطع النظير ، هتفت له الجماهير المثقفة من الأعماق ، الجميع غاضبون ، الكل ثائر لنزاهة الحكم ، هتفوا : يحيا النقراشي النزيه .. يحيا النقراشي ابن سعد .. وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمة ..

وكان الرجل يتكلم بصوت مرتفع ، فردد هتافه كثيرون حتى اضطر عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيا الى التزام الهدوء . وعاد الرجل يقول :

ـ الرأى العام ساخط على الوزارة ، غاضب لاخراج النقراشي منها ، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوض ، وارتضى أن يؤيد الشيطان ضد الملاك الطاهر ..

وهنا قال عبد الرحيم باشا :

ـ نحن الآن فى أغسطس ، وفى اكتوبر تفتتح الجامعة ، فليكن

افتتاح الجامعة موقعة فاصلة ، يجب أن نستعد منذ الآن للمظاهرات فاما أن يثوب النحاس الى رشده ، واما فليذهب الى الهاوية ..

فقال حلمى عزت :

ــ أستطيع أن أؤكد أن مظاهرات الجامعيين ستتدفق على بيت النقراشى ...

فقال عبد الرحيم باشا :

ــ كل شيء يحتاج الى التنظيم ، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدوا العدة ، وفضلا عن هذا فان الأخبار التى عندى تؤكد أن كثرة لا تصدق من النواب والشيوخ سينضمون الينا ..

ــ النقراشى هو خالق لجان الوفد ، لا تنسوا ذلك ، ان تلغرافات الولاء تتسابق الى مكتبه صباح مساء ..

وتساءل رضوان ماذا يحدث فى الدنيا ؟ ، ترى أينقسم الوفد مرة أخرى ؟ ، وهل يتحمل مسئولية ذلك حقا مكرم عبيد ؟ ، وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذى نهض برسالته ثمانية عشر عاما ؟ . وطال الأخذ والرد ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصة بالدعاية وتدبير المظاهرات ، ثم أخذوا فى الانصراف حتى لم يبق فى البهو الا الباشا ورضوان وحلمى عزت . وعند ذلك دعاهما للجلوس فى الفراندا ، فمضيا وراءه ، وجلس ثلاثتهم حول منضدة ، وسرعان ما حملت اليهم أقداح الليمون . وما لبث أن تراءى عند الباب رجل فى الأربعين ، عرفه رضوان فى بعض زياراته السابقة ، يدعى على مهران ، يعمل وكيلا للباشا ، وكان منظره يوحى بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون . وكان يصطحب معه شابا فى العشرين من عمره ، جميل المحيا ، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنه من أهل الفن . وقد أقبل على مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا ، وصافح الشابين ، ثم قدم الشاب قائلا :

ـ الأستاذ عطية جودت ، مغنى ناشىء لكنه موهوب ، وقد سبق أن حدثتك عنه يا معالى الباشا !

فلبس الباشا نظارته التى كان وضعها على المنضدة ، وتفحص الشاب بعناية ، ثم قال باسما :

ـ أهلا وسهلا يا سى عطية ، سمعت عنك كثيرا ، فلعلنا نسمعك هذه المرة . .

فدعا له الباشا باسما ، ثم جلس ، على حين مال على مهران على الباشا وهو يقول :

ـ كيف حال عمى ؟

هكذا كان يخاطب الباشا اذا زالت دواعى الكلفة ، وأجابه الرجل باسما :

ـ أحسن منك ألف مرة !

فقال على مهران جادا على خلاف عادته :

ـ يتهامسون فى بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة برياسة النقراشى ؟.

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم :

ـ لسنا من المستوزرين !

وتساءل رضوان باهتمام وقلق :

ـ على أى أساس ؟ ، طبعا لا أستطيع أن أتصور أن يقوم النقراشى بانقلاب سياسى كمحمد محمود أو اسماعيل صدقى ؟

فقال على مهران :

ـ انقلاب ! ، كلا . المسألة تنحصر الآن فى اقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام الينا ، ولا تنس أن الملك معنا ، فعلى ماهر يعمل بحكمة وأناة !

وعاد رضوان يتساءل فى كآبة :

ـ أنكون فى النهاية من رجال السراى ؟

فقال عبد الرحيم باشا :

ـ العبارة واحدة ، ولكن المعنى تغير ، فاروق غير فؤاد ، والظرف غير الظرف ، الملك شاب وطنى متحمس ، وهو مجنى عليه أمام هجمات النحاس الجائرة !

ففرك على مهران يديه فى حبور وهو يقول :

ـ ترى متى نهنى الباشا بالوزارة ؟ ، وهل تختارنى وكيلا لوزارتك كما اخترتنى وكيلا لأعمالك ؟

فقال الباشا ضاحكا :

ـ بل أعينك مديرا عاما للسجون ، فان مكانك الطبيعى هو السجن .

ـ السجن ؟ ، لكنهم يقولون أن السجن للجدعان ؟!

ـ ولغيرهم ، فليطمئن بالك !

ثم ركبه الضجر فجأة فهتف :

ـ حسبنا سياسة ، غيروا الجو من فضلكم . .

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلا :

ـ ماذا تسمعنا ؟

فأجاب عنه على مهران :

ـ الباشا سميع وابن حظ ، واذا رقت فى نظره تفتحت لك أبواب الاذاعة . .

فقال عطية جودت برقة :

ـ لحنت أخيرا أغنية « شبكونى وشبكوه » وهى من تأليف الأستاذ مهران !

فرمق الباشا وكيله ، وسأله :

ـ منذ متى تؤلف أغانى ؟ .

ـ ألم أجاور فى الأزهر سبع سنوات ، غرقت فيها فى مفاعيل وفعلاتن ؟ .

ــ وما للأزهر وأغانيك الخليعة ؟ ، شبكونى وشبكوه ! ، من هو يا حضرة المجاور ؟.

ــ المعنى يا معالى الباشا فى ذقن الباشا !.

ــ يا بن الهرمة !.

ونادى على مهران السفرجى ، فسأله الباشا :

ــ لماذا تناديه ؟.

ــ ليهيىء لنا مجلس الطرب !.

فقال الرجل وهو ينهض :

انتظروا حتى أصلى العشاء !.

فتساءل مهران باسما فى خبث :

ــ ألم ينقض سلامنا وضوءك ؟ .

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته . ناقلا خطاه على مهل ، متوكئا على عصاه . لم يعد اليوم كالأمس ، فمنذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته الا مرة واحدة فى اليوم ، كى يعفى نفسه ما استطاع من الجهد الذى يتحمله قلبه عند ارتقاء السلم . ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر الا أنه رأى أن يرتدى ملابسه الصوفية ، اذ أن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذى كان يمرح فيه الجسم البدين القوى الذى كان . والعصا التى صاحبته منذ الصغر رمزا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكأه فى مشيته المتمهلة ، التى لا يطيقها قلبه الا بجهد ومشقة . ولكن بقى له رونقه وأناقته ، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة ، ويتطيب بالعطر الفواح متمتعا بجمال الشيخوخة ووقارها .

وعندما اقترب من الدكان مالت نحوها عيناه بحركة لا ارادية . رفعت اللافتة التى حملت اسمه واسم ابيه أعواما وأعواما ، وتغير مظهر الدكان ومخبرها ، فانقلب دكان طرابيش للبيع والكى ، وتقدمها الوابور والقوالب النحاسية . وتخايلت لعينيه لافتة وهمية ، لم ترها عين سواه ، عالنته بأن زمانه قد ولى ، زمان الجد والكفاح والمسرات ، وها هو فى ركن المعاش ينزوى ، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار ، وتقبض القلب الذى طالما — ومازال — يهيم بحب الدنيا وأفراحها ، حتى أن الايمان نفسه لم يكن فى نظره الا مسرة من مسراتها ودافعا الى أحضانها ، فلم يعرف — حتى اليوم — العبادة الزاهدة التى تدير الظهر للدنيا وتتطلع الى الآخرة وحدها . لم تعد الدكان دكانه ، ولكن كيف تمحى ذكراها من ذهنه وهى التى كانت مركز النشاط ، ومحط الأنظار ، وملتقى الأصحاب والأحباب ، ومبعث العزة والجاه ؟ . « ولك أن تعزى نفسك فتقول : زوجنا البنات ، وربينا الصبيان ، ورأينا الأحفاد ، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت ، وذقنا حلو الدنيا سنين — سنين حقا ؟ — وآن لنا أن نشكر ، والشكر لله واجب ، دائما أبدا ، ولكن آه من الحنين ، وسامح الله الزمن ، الزمن الذى مجرد حياته — حياته التى لا تتوقف لحظة — خيانة وأى خيانة للانسان . لو أن الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدثنى عن الماضى ، لتخبرنى أحقا كان هذا الجسم يهد الجبال ؟ ، وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان ؟ ، وهذا الثغر لا يمسك عن الضحك ؟ ، وهذا الشعور لا يعرف الألم ؟ ، وهذه الصورة معلقة فى كل قلب ؟ ، ومرة أخرى سامح الله الزمن ! » .

وعندما انتهى به المسير الوئيد الى جامع الحسين ، خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة . ومضى الى المنبر حيث وجد فى انتظاره

محمد عفت وابراهيم الفار فصلوا المغرب جميعا ، ثم غادروا المسجد متجهين نحو الطمبكشية لزيارة على عبد الرحيم . كان ثلاثتهم قد اعتزلوا العمل ليتفرغوا لمقاومة الأمراض ، غير أنهم كانوا أحسن حالا من على عبد الرحيم الذى لم يعد بوسعه أن يفارق الفراش ، وقال السيد أحمد متنهدا :

— يخيل الى أنى عما قريب لن أستطيع الذهاب الى الجامع الا راكبا . . .

— الحال من بعضه . .

فعاد الرجل يقول فى قلق :

— شد ما أخاف أن أضطر الى ملازمة الفراش كالسيد على ، انى أدعو الله أن يكرمنى بالموت قبل أن يدركنى العجز . .

— ربنا يكفيك ويكفينا كل سوء . .

فبدا كالخائف وهو يقول :

— غنيم حميدو لبث مشلولا فى الفراش زهاء العام ، وصادق الماوردى عانى هذا العذاب شهورا ، فاللهم اكرمنا بالنهاية السريعة اذا حم القضاء .

فضحك محمد عفت قائلا :

— اذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة ، وحد الله يا أخى!.

ولما بلغوا بيت على عبد الرحيم ادخلوا الى حجرته ، فبادرهم يقول فى جزع :

— تأخرتم عن ميعادكم ، سامحكم الله . .

بان ضجر الرقاد فى عينيه ، فلم يعد يعرف الابتسام الا ساعة اجتماعه بهم ، وجعل يقول :

— لا عمل لى طول اليوم الا الاستماع الى الراديو ، ماذا كنت أصنع لو تأخر استعماله فى مصر عن اليوم ! ، كل ما يذيعه يطيب لى حتى المحاضرات التى لا أكاد أفهمها ، ومع ذلك فلم نكبر الى

الحد الذى يستوجب هذا العذاب ، أجدادنا كانوا يتزوجون فى مثل أعمارنا !.

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد ، فقال :

ــ فكرة !. ما رأيكم فى أن نتزوج من جديد ، لعل ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض ؟!.

فابتسم على عبد الرحيم ــ كان يتجنب الضحك أن تدركه نوبة سعال فتؤذى قلبه ــ وقال :

ــ معكم !. اختاروا لى عروسا ، ولكن صارحوها بأن العريس لا يستطيع الحركة ، وعليها الباقى ..

وهنا خاطبه الفار ، وكأنما تذكر أمرا فجأة :

ــ أحمد عبد الجواد سيسبقك الى رؤية وليد حفيدته ، ربنا يمد فى عمره !.

ــ مبارك مقدما يابن عبد الجواد !.

ولكن السيد أحمد تجهم قائلا :

ــ نعيمة حبلى حقا ولكنى غير مطمئن ، ما زلت أذكر ما قيل عن قلبها يوم مولدها ، طالما حاولت أن أنسى ذلك عبثا ..

ــ يا لك من رجل جاحد ، منذ متى تؤمن بنبؤات الأطباء ؟.

فضحك السيد أحمد قائلا :

ــ منذ باتت اللقمة التى أتناولها على غير مشورتهم تؤرقنى حتى مطلع الفجر ...

فتساءل على عبد الرحيم ؟

ــ ورحمة ربنا ؟!.

ــ الحمد لله رب العالمين .

ثم مستدركا :

ــ لست بالغافل عن رحمة الله ، ولكن الخوف يبعث على الخوف ، والحق فان نعيمة لا تهمنى بقدر ما تهمنى عائشة يا على ،

عائشة هي مركز القلق فى حياتى ، التعيسة المسكينة ، سأتركها اذا تركتها وحيدة فى هذه الدنيا ...

فقال ابراهيم الفار :

ــ ربنا موجود ، وهو الراعى الأكبر ..

وساد الصمت مليا ، حتى قطعه صوت على عبد الرحيم قائلا :

ــ وسيأتى دورى بعدك فى رؤية وليد حفيدتى ..

فضحك السيد أحمد قائلا :

ــ سامح الله البنات ، فانهن يكبرن أهلهن قبل الأوان .

فهتف محمد عفت :

ــ يا عجوز ، اعترف بالكبر وكفاك مكابرة ..

ــ لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبى فيسوق العوج ، أصبح قلبى كالطفل المدلل ..

فقال ابراهيم الفار وهو يهز رأسه أسفا :

ــ يا له من عام ذلك العام الماضى ، كان علينا شديدا ، فما ترك واحدا منا سليما كأننا كنا على ميعاد !

ــ على رأى عبد الوهاب : لنعيش سوا لنموت سوا ..

فضحكوا معا ، واذا بعلى عبد الرحيم يغير لهجته ويتساءل جادا :

ــ أهذا يصح ؟ ، أعنى ما فعله النقراشى ؟.

فتجهم وجه أحمد عبد الجواد وقال :

ــ كم أملنا أن تعود المياه الى مجاريها ، استغفر الله العظيم ..

ــ أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء !.

ــ فى هذا الزمن كل جميل يضيع هباء ..

وعاد أحمد عبد الجواد يقول :

ـ لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي ، ما كان ينبغي ان يذهب به الخصام الى هذا الحد . .

ـ ترى ما النهاية التي تنتظره ؟.

ـ النهاية المحتومة ، أين الباسل والشمسي ؟ . لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجليه أحمد ماهر .

وهنا قال محمد متنرفزا :

ـ دعونا من هذه السيرة ! . أنا أكاد أطلق السياسة ! .

وخطر للفار خاطر ، فتساءل باسما :

ـ لو اضطررنا ـ لا سمح الله ـ الى ملازمة الفراش كالسيد علي ، فكيف نتقابل ونتحادث ؟.

فتمتم محمد عفت :

ـ قال الله ولا فالك . .

فضحك أحمد عبد الجواد وقال :

ـ لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو ، كما يخاطب بابا « سخام » الأطفال !. .

وضحكوا جميعا . وأخرج محمد عفت ساعته ونظر فيها ، ولكن علي عبد الرحيم جزع وقال :

ـ ستبقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا يقول ، ملعون أبوه وأبو أيامه . .

٢٣

كانت الغورية تغلق أبوابها ، فقلت السابلة واشتدت البرودة ، وكان الزمن أواسط ديسمبر ، ولكن الشتاء جاء متعجلا ذلك العام . ولم يكن كمال قد وجد صعوبة في جذب رياض قلدس الى

حى الحسين ، أجل كان الشاب غريبا عن الحى ، ولكنه وجد من نفسه شوقا للتقلب فى أنحائه ، والجلوس فى مقاهيه . وكان قد مضى على تعارفهما فى مجلة الفكر أكثر من عام ونصف عام ، لم يمر اسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين ، بخلاف العطلة التى كانت تجمع بينهما كل مساء على وجه التقريب فى مجلة الفكر ، أو بيت بين القصرين ، أو بيت رياض بمنشية البكرى ، أو مقاهى عماد الدين ، أو قهوة الحسين الكبرى التى لجأ اليها كمال بعد أن اتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخية فمحتها من الوجود الى الأبد . كانا سعيدين بصداقتهما ، وقد قال كمال لنفسه مرة « جعلت أفتقد حسين شداد أعواما ، وظل مكانه شاغرا ، حتى ملأه رياض قلدس » ففى محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذاك الانبثاق الذى يبلغ نشوته فى عناق الفكر المتبادل ، هذا على الرغم من أنهما لم يكونا شيئا واحدا ، وان كانا متكاملين فيما بدا . وظلت صداقتهما شعورا متبادلا فى صمت ، لم ينوها به ، فلم يقل أحدهما للآخر « أنت الصديق » ولا قال له « لا أتصور الحياة بدونك » ولكن كان ذلك كذلك . وعلى برودة الجو لم تفتر رغبتهما فى السير ، فقررا أن يسيرا على الأقدام حتى قهوة عماد الدين . ولم يكن رياض قلدس سعيدا ذلك المساء ، كان يقول بانفعال شديد :

ــ انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب ، فليست اقالة النحاس الا هزيمة للشعب فى نضاله التاريخى مع السراى . .

فقال كمال فى أسف :

ــ ثبت الآن أن فاروق كأبيه . .

ــ فاروق ليس المسئول وحده ، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون ، فهذه يد على ماهر ومحمد محمود ، ومن المبكى أن ينضم الى أعداء الشعب اثنان من أبنائه ، ماهر والنقراشى ، ولو

تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب ..

ثم استطرد بعد صمت قليل :

ـ ليس الانجليز اليوم فى الميدان ، ولكن الشعب والملك وجها لوجه ، الاستقلال ليس كل شيء ، هنالك حق الشعب المقدس فى أن يتمتع بسيادته وحقوقه ، ليحيا حياة الانسان لاحياة العبيد ..

لم يكن كمال غارقا فى السياسة كرياض ، أجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبثت حية فى عواطفه ، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه ، وان كان عقله لا يدرى أين المقر . عقله يقول حينا « حقوق الانسان » وحينا آخر يقول « بل البقاء للأصلح وما الجماهير الا قطيع » وربما قال « والشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار ؟ » . أما قلبه فلم يتخلص من عواطفه الشعبية التى صاحبته منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمى ، أما رياض فكانت السياسة جوهرا أصيلا فى نشاطه الذهنى . وعاد رياض يقول :

ـ أيمكن أن ننسى الاهانة التى تلقاها مكرم فى ميدان عابدين ؟. وهذه الاقالة المجرمة ، سب وقذف وبصقة فى وجه الأمة ؟ . والحقد الأعمى يجعل البعض يهللون ، واحسرتاه ..

فقال له كمال مداعبا :

ـ أنت غاضب لمكرم !.

فقال رياض دون تردد :

ـ ان الأقباط جميعا وفديون ، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة ، ليس حزبا دينيا تركيا كالحزب الوطنى ، ولكنه حزب القومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم ، أعداء الشعب يعلمون ذلك ، ولذلك كان

الأقباط هدفا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقى ، وسيعانون ذلك منذ اليوم ..

ورحب كمال بهذه الصراحة التى تشهد لصداقتهما بالكمال ، غير أنه راق له أن يتساءل فى دعابة :

ــ ها أنت تتحدث عن الأقباط !. أنت الذى لا يؤمن الا بالعلم والفن !..

فلاذ رياض بالصمت . وكانا قد بلغا شارع الأزهــر حيث يتدافع الهواء البارد فى شىء من العنف . ثم مرا فى طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال الى تناول بعض منها ، وما لبث أن أخــذ كل منهما طبقا صــغيرا وانتحيا جانبا يأكلان ، وعند ذلك قال رياض :

ــ انى حر وقبطى فى آن ، بل انى لا دينى وقبطى معا ، أشعر فى أحايين كثيرة بأن المسيحية وطنى لا دينى ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلى اضطربت . ولكن مهلا ، أليس من الجبن أن أنسى قومى ؟ . شىء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنازع ، ألا وهو الفناء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول ، ان النحاس مسلم دينا ، ولكنه قومى بكل معنى الكلمة أيضا ، فلا نشعر حياله الا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطى ، بوسعى أن أعيش سعيدا دون أن أكدر صفوى بهذه الأفكار ، ولكن الحياة الحقة مسئولية فى الوقت نفســه .

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف . كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التى تذكره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى فى نفســـه . « ان موقف رياض له وجاهته التى لا تجحد ، وأنا نفسى ــ بين عقلى وقلبى ــ شخص يعانى انقسام الشخصية ، فكذلك هو ، كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وســـط أغلبية تضطهدها ؟. وجدارة الرسالات السامية تقاس عادة بما

تحققه من سعادة للبشر تتمثـــل أول ما تتمثل فى الأخذ بيد المضطهدين » . قال :

ــ لا تؤاخذنى ، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية ، فمنذ البدء لقنتنى أمى أن أحب الجميع ، ثم شببت فىجو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير :

ــ المرجو ألا تكون ثمــة مشكلة على الاطلاق ، يؤسفنى أن أصارحك بأننا نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة . لست متعصبا ، ولكن من يستهين بحق انسان فى أقصى الأرض ــ لا فى بيته ــ فقد استهان بحقوق الانسانية جميعا . .

ــ جميل هذا القول ، لا عجب أن رسالات الانسانية الحقة كثيرا ما تنبعث من أوساط الأقلية ، أو من رجال مشغولى الضمائر بالأقليات البشرية ، ولكن ثمة متعصبون دائما . .

ــ دائما وفى كل مكان ، الانسان حديث والحيوان قديم ، وهم عندكم يعتبروننــا كفارا ملاعين ، وهم عنــدنا يعتبرونكم كفارا مغتصبين ، ويقولون عن أنفسهم أنهم ســلالة ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية . .

فضحك كمال ضحكة عالية ، وقال :

ــ هذا قولنا وذاك قولكم ، ترى الأصل فى هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبدا الى الخصام ؟ ! ، لا المسلمون على وفاق ، ولا المسيحيون على وفاق ، وستجد نزاعا مستمرا بين الشيعى والسنى ، وبين الحجازى والعراقى ، كالذى بين الوفدى والدستورى ، وطالب الآداب وطالب العــلوم ، والنادى الأهلى والترسانة ، لكن رغم ذلك كله فشدما نحزن اذا طالعنا فى الصحف خبر زلزال باليابان ! اسمع ، لماذا لا تعالج ذلك فى قصصك ؟

ـ مشكلة الأقباط والمسلمين ...

فصمت رياض قلدس مليا ، ثم قال :

ـ أخاف سوء الفهم ...

ثم مستطردا بعد فترة صمت أخرى :

ـ ثم لا تنس أننا رغم كل شيء فى عصرنا الذهبى ، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح فى الماضى أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم ...

ـ وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها ؟

ـ من حسن الحظ انها ذابت فى مشكلة الشعب كله ، مشكلة الأقباط اليوم هى مشكلة الشعب ، اذا اضطهد اضطهدنا ، واذا تحرر تحررنا ..

« السعادة والسلام .. ذلك الحلم المنشود ، قلبك يحيا بالحب وحده ، فمتى يعرف عقلى سبيله ؟ ، متى أقول بلهجة ابن أختى عبد المنعم « نعم . نعم » ؟ ، ان صداقتى لرياض علمتنى كيف أقرأ قصصه ، ولكن كيف أومن بالفن ، فى الوقت الذى وجدت الفلسفة نفسها قصورا غير صالحة للسكنى ؟ » .

وسأله رياض فجأة ، وهو يسترق اليه النظر :

ـ فيم تفكر الآن ؟ .. أصدقنى !

وفطن الى ما وراء سؤاله ، فأجابه بصراحة :

ـ كنت أفكر فى قصصك .

ـ ألم تتألم لصراحتى ؟

ـ أنا ! ، سامحك الله ..

فضحك كالمعتذر ، ثم سأل :

ـ أقرأت قصتى الأخيرة ؟

ـ نعم ، وهى لطيفة ، ولكن يخيل الى أن الفن نشاط غير جدى ، مع ملاحظة أنى لا أدرى أيهما أخطر فى حياة الانسانية :

الجد أم اللهو ؟ ! ، انت مثقف ثقافة علمية عالية ، ولعلك أدرى « غير العلماء » بالعلم ، ولكن نشاطك كله يضيع كتابة القصص ، وانى لأتساءل أحيانا : ماذا أفدت من العلم ؟

فقال رياض قلدس فى حماسة :

ـ أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة ، والاخلاص لها ، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة ، والنزاهة فى الحكم ، والتسامح الشامل مع المخلوقات ...

كلمات ضخمة ، ولكن ما علاقتها بملهاة القصص ؟ . ونظر رياض قلدس اليه ، فقرأ الشك فى وجهه ، فضحك عاليا ثم قال :

ـ أنت تسىء الظن بالفن ، ولكن عزائى أن شيئا فى الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك ، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا ، أنت مثلا ـ رغم موقفك الشكى ـ تحب وتتعامل وتشارك مشاركة ما فى حياة بلدك السياسية ، ووراء كل ناحية من هذه النواحى مبدأ شعورى أو لا شعورى لا يقل عن الايمان قوة ، الفن هو المعبر عن عالم الانسان ، والى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه فى معركة الآراء العالمية ، فانقلب الفن على يديه عدة من عدد الكفاح فى ميدان الجهاد العالمى ، لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى ..

دفاع عن الفن أم عن قيمة الفنان ؟ . لو أن لبائع اللب قدرة على الجدل لدلل على أنه يلعب دورا خطيرا فى حياة البشر ، ولا يبعد أن يكون لكل شىء قيمة ذاتية ، ولا يبعد كذلك ألا يكون لشىء قيمة البتة ، كم مليونا من البشر يلفظون أنفاسهم فى هذه اللحظة ؟، فى الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة ، أو صوت عاشق يبث الليل والكون متاعب قلبه ، أضحك أم أبكى ؟ . قال :

ـ لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية ، دعنى أخبرك بأنها تنعكس على صورة مصغرة فى أسرتنا ، لى ابن أخت من الاخوان ، وآخر من الشيوعيين !

— ينبغى أن يكون لها صورة فى كل بيت ، عاجلا أو آجلا ، لم نعد نعيش فى قمقم ، وأنت ألم تفكر فى هذه الأمور ؟

— قرأت عن الشيوعية ضمن دراستى للفلسفة المادية ، كما قرأت كتبا عن الفاشستية والنازية . .

— تقرأ وتفهم ، مؤرخ بلا تاريخ ، أرجو أن تعد يوم خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد . .

فاستاء كمال لهذه الملاحظة ، لأنها نقد لاذع من ناحية ، ولأنها لاتخلو من حق من ناحية أخرى ، ثم قال متهربا من التعقيب عليها :

— كل من الشيوعى والاخوانى فى أسرتنا على غير علم مكين بما يؤمن به !

— الايمان ارادة لا علم ، ان أتفه مسـيحى اليوم يعرف عن المسيحية أضعاف ما عرف الشهداء ، كذلك عندكم فى الاسلام . .

— وهل تؤمن أنت بمذهب من هذه المذاهب ؟

فقال رياض بعد تفكر :

— لا شك فى احتقارى للفاشستية والنازية وكافة النظم الدكتاتورية ، أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالما خاليا من مآسى الخلافات العنصرية والدينية والمنازعات الطبقية ، بيد أن اهتمامى الأول مركز فى فنى . .

فقال كمال وكان فى صوته دعابة :

— ولكن الاسلام قد خلق هذا العالم الذى تتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام . . .

— لكنه دين ، الشيوعية علم أما الدين فأسطورة . .

ثم مستدركا وهو يبتسم :

— ونحن نتعامل مع المسلمين لا الاسلام . .

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة ، فتوقف رياض فجأة وهو يتساءل :

ـ ما رأيك فى عشاء من المكرونة والنبيذ الجيد ؟

ـ لا أشرب فى الأماكن المأهولة ، فلنذهب الى قهوة عكاشة اذا شئت . . .

فضحك رياض قلدس قائلا :

ـ كيف تطيق هذا الوقار كله ؟ ، نظارة وشارب وتقاليد ! ، حررت عقلك من كل قيد ، أما جسمك فكله قيود ، أنت خلقت ـ بجسمك على الأقل ـ لتكون مدرسا . .

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة اليمة ، فقد اشترك فى حفل ميلاد أحد زملائه ، وشربوا جميعا حتى سكروا ، وهناك حمل أحدهم عليه معرضا برأسه وأنفه حتى أضحك الجميع . واذا ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر عايدة ، وتلك الأيام ، عايدة خالقة أنفه ورأسه ، ومن عجب أن يفيض الحب فيمسى لا شيء ، ثم تبقى هذه الرواسب المؤلمة . .

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول :

ـ هلم نشرب نبيذا ونتحدث عن فن القصة ، ثم نذهب بعد ذلك الى بيت الست جليلة بعطفة الجوهرى ، واذا كنت تقول لها يا عمتى ، فسأقول لها يا خالتى . .

٢٤

كانت السكرية فى شأن ، أو بمعنى أصح هكذا كانت شقة عبد المنعم شوكت . ففى حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة المولدة ، أما فى حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده ابراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال ، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلا :

ــ اعمل حسابك ان تكون الولادة القادمة فى غير هذا الوقت الذى تستعد فيه للامتحان ..

كانوا فى أواخر ابريل ، وكان عبد المنعم متعبا بقدر ما كان مبتهجا ، بقدر ما كان قلقا . وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حادا يحمل كل معانى الألم ، فقال عبد المنعم :

ــ ان الحمل أتعبها جدا ، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل ، وكأن وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة ..

فتجشأ ياسين فى ارتياح ، ثم قال :

ــ هذه أمور عادية ، وكلهن سواء ..

وقال كمال باسما :

ــ ما زلت أذكر ولادة نعيمة ، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت ، وكنت متألما ، وكنت واقفا فى هذا المكان مع المرحوم خليل ..

فتساءل عبد المنعم :

ــ هل أفهم من هذا أن عسر الولادة وراثى ؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه الى فوق :

ــ عنده اليسر ...

فقال عبد المنعم :

ــ جئنا بحكيمة معروفة فى الحى كله ، كانت أمى تفضل احضار الداية التى ولدتنا ، ولكنى أصررت على الحكيمة ، فهى أنظف وأمهر بلا ريب .

فقال ياسين :

ــ طبعا ، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته .

فقال ابراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

ــ جاءها الطلق فى الصباح الباكر ، والساعة تدور الآن فى الخامسة مساء ، مسكينة ، انها رقيقة كالخيال ، ربنا يأخذ بيدها .

ثم وهو يردد عينيه الخاملتين فى الجالسين عامة ، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصة :

ـ آه لو تذكر الآلام التى تتحملها الأم !

فقال احمد ضاحكا :

ـ كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا ؟

فقال الرجل موبخا :

ـ اذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها ..

وانقطع الطلق ، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فاتجهت الرءوس اليها ، ومرت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضيا الى الباب ونقره ، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز ، فطالعها بعينين متسائلتين ، وهم بادخال راسه ، ولكنها صدته براحتيها وهى تقول :

ـ لم يأذن الله بالفرج بعد ..

ـ طال الوقت ، ألا يكون طلقا كاذبا ؟

ـ الحكيمة أدرى بذلك منا ، اطمئن وادع لنا بالفرج .

وأغلقت الباب ، فعاد الشاب الى مجلسه بجوار أبيه الذى علق على قلقه بقوله :

ـ أعذروه فانه محدث ولادة !

وأراد كمال أن يتسلى ، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتصفحها ، فقال أحمد :

ـ أعلنت فى الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية ..

(ثم وهو يبتسم فى سخرية) .. ويا لها من نتائج مضحكة ..

فتساءل والده دون اكتراث :

ـ ما مجموع الناجحين من الوفديين ؟

ـ ثلاثة عشر على ما أذكر .

ثم قال أحمد موجها خطابه الى خاله ياسين :

ــ لعلك مسرور يا خالى آكراما لسرور رضوان ؟

فقال ياسين وهو يهز منكبيه باستهانة :

ــ لا هو وزير ولا هو نائب ، فماذا يهمنى من الأمر كله ؟

وقال ابراهيم شوكت ضاحكا :

ــ كان الوفديون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة قد انتهى ، ولكن شهاب الدين أضرط من أخيه !

فقال أحمد فى امتعاض :

ــ الظاهر أن الاستثناء هو القاعدة فى مصر !

ــ حتى النحــاس ومكرم قد سقطا فى آلانتخابات ، أليس هذا هزلا ؟ .

وهنا قال ابراهيم شوكت فى شيء من الحدة :

ــ لكن لا ينكر أحد أنهما أساءا الأدب حيال الملك ، ان للملوك مقامهم ، وليس على ذلك النحو تساس الأمور . .

فقال أحمد :

ــ إن بلادنا فى حاجة الى جرعات قوية من قلة الأدب حيال الملوك ، حتى تفيق من اغمائها الطويل . .

فقال كمال :

ــ ولكن الكلاب يعيدونهــا الى الحكم المطلق ، تحت ســتار برلمان مزيف ، وفى نهــاية التجربة سنجد فاروق فى قوة فؤاد واستبداده أو أشد ، كل هذا يرتكب بأيدى بعض أبناء الوطن . .

فضحك ياسين ، وقال وكأنه يفسر ويوضح :

ــ كمال ولو أنه كان على صــباه من محبى الانجليز كشاهين وعدلى وثروت وحيدر ، الا أنه انقلب وفديا بعد ذلك . .

فقال كمال جادا ، وهو ينظر آلى أحمد خاصة :

ــ انتخابات مزورة ، كل شخص فى البلد يعلم بأنها مزورة ،

ومع ذلك يعترف بها رسميا وتحكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم ، وأن وزراءه لصوص سرقوا بالتالى مناصبهم ، وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادى اذا كفر بالمبادىء والخلق وآمن بالزيف والانتهازية ؟

فقال أحمد متحمسا :

ـ دعهم يحكمون ، فى كل شر جانب خير ، ومن الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يخدر بحكم يحبه ويثق به دون أن يحقق له ـ هذا الحكم ـ آماله الحقيقية ، طالما فكرت فى هذا حتى انقلبت أرحب بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود واسماعيل صدقى ..

ولاحظ كمال أن عبد المنعم لا يشترك فى الحديث كعادته ، فأراد أن يجره اليه فقال :

ـ لماذا لا تحدثنا عن رأيك ؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها ، وقال :

ـ دعنى اليوم أستمع ...

فضحك ياسين قائلا :

ـ فرفش حتى لا يجدك المولود واجما ، فيفكر فى العودة من حيث أتى ...

وندت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنه يهم بانتحال عذر للذهاب ، أجل جاء وقت القهوة ، ونظام « السهر » عنده لا يمكن أن يغيره شىء ، وفكر كمال فى الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده ، وجعل يراقبه متوثبا ، واذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة قاسية تحمل فى طياتها انغام الأعماق البشرية ،

وتتابعت الصرخات فى عنف ، وتطلعت الأعين نحو باب الحجرة ، وساد بينهم صمت ، حتى همس ابراهيم فى رجاء :

ـ لعله الطلق الأخير ان شاء الله . .

حقا ؟ ، بيد أنه تواصل حتى وجموا ، وامتقع لون عبد المنعم ، ثم عاد الصمت مرة أخرى ولكن الى حين ، ورجع الطلق ولكنه كان خواء ، تقذف به حنجرة بحت وصدر تصدع فكأنه النزع . ودلت حال عبد المنعم على أنه فى حاجة الى تشجيع ، فقال له ياسين :

ـ كل ما تسمع أحوال مألوفة فى الولادة العسيرة . .

فقال عبد المنعم بصوت متهدج :

ـ العسيرة ! العسيرة ! . ولكن لماذا كانت عسيرة ؟ .

وفتح الباب فخرجت زنوبة ثم أغلقته ، فتطلعوا اليها ، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت :

ـ كل شىء على ما يرام ، غير أن الحكيمة زيادة فى الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيد محمد . .

فوقف عبد المنعم قائلا :

ـ لا شك ان الحال استوجبت احضاره ، خبرينى عما بها !

فقالت زنوبة بصوت هادىء مؤكد :

ـ كل شىء على ما يرام ، واذا أردت أن تزيدنا اطمئنانا فأسرع فى احضار الطبيب . .

ولم يضع عبد المنعم وقته فمضى الى حجرته ليستكمل ملابسه ، ومضى فى أثره أحمد ، ثم خرجا معا ليأتيا بالدكتور ، وعند ذاك سألها ياسين :

ـ ماذا هناك ؟

فقالت زنوبة ، وقد نم وجهها لأول مرة عن قلق :

ـ تعبانة المسكينة كان الله فى عونها .

ــ والحكيمة ألم تقل شيئا ؟

فقالت زنوبة بتسليم :

ــ قالت انها تريد الدكتور . .

وعادت زنوبة الى الحجرة تاركة وراءها ظلا ثقيلا من القلق .

تساءل ياسين :

ــ أهذا الطبيب بعيد ؟

فأجابه ابراهيم شوكت :

ــ فى العمارة ٱلتى فوق قهوتك بالعتبة .

ودوت صرخة فانعقدت الألسن ، هل عاد الطلق الأليم ؟ ، ومتى يحضر الطبيب ؟ ، ودوت الصرخة مرة أخرى ، فازداد التوتر ، واذا بياسين يهتف مرتاعا :

ــ هذا صوت عائشة !

فأرهفوا السمع ، وعرفوا صوت عائشة ، فقام ابراهيم الى الحجرة ونقر الباب ، ففتحت زنوبة بوجه باهت ، سألها بلهفة :

ــ مالكم ؟ ، مال عائشة هانم ؟ ، أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة ؟

فقالت زنوبة وهى تزدرد ريقها :

ــ كلا . . ، الحال شديدة يا سى ابراهيم . .

ــ ماذا حدث ؟

ــ فجأة ، انها . . . ، انظر . . .

فى أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون . كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر ، خالتها وجدتها والحكيمة حولها فى الفراش ، أمها واقفة وسط الحجرة تحملق فى ابنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعى ، وكانت نعيمة مغمضة العينين ، صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن ، أما ٱلوجه فأبيض باهت كالموت . هتفت الحكيمة

« الدكتور ! » ، وجعلت أمينة تهتف « يا رب » ، وخديجة تنادى بصوت مذعور « نعيمة .. ردى على » ، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعنيها فى شىء . تساءل كمال « ماذا هنالك ؟ » وسأل أخاه فى ذهول « ماذا هنالك ؟ » ولكنه لم يجبه ، أى ولادة عسيرة ؟ ! ، ودار بصره بعائشة وابراهيم وياسين فتقهقر قلبه فى صدره ، ليس هنالك الا معنى واحد ..

ودخلوا الحجرة جميعا . لم تعد حجرة ولادة والا ما دخلوا ! ، وكانت عائشة فى حال بالغة الشدة ولكن أحدا لم يوجه اليها كلمة . وفتحت نعيمة عينيها فبدتا مظلمتين ، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها جدتها وحوتها فى حضنها ، شهقت الفتاة ، وندت عنها آهة عميقة ، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث :

ــ ماما .. انا ذاهبة .. أنا ذاهبة ..

ثم سقط رأسها على صدر جدتها . وضجت الحجرة بالصوات ، ولطمت خديجة خديها ، وتشهدت أمينة فى وجه الفتاة ، أما عائشة فرمت بناظريها من النافذة المطلة على السكرية ، وثبتت عينيها على ماذا ؟ ، ثم تردد صوتها كالحشرجة :

ــ ما هذا يا ربى ؟ ، ما هذا الذى تفعله ؟ ، لماذا ؟ ، لماذا ؟ ، أريد أن أفهم ...

واقترب منها ابراهيم شوكت ومد لها يده ، فأبعدتها بحركة عصبية وهى تقول :

ــ لا يلمسنى منكم أحد ، دعونى ، دعونى ..

ثم رددت بصرها بينهم قائلة :

ــ اخرجوا من فضلكم ، لا تكلمونى ، هل عندكم كلام يجدى ؟، لن ينفعنى الكلام ، ماتت نعيمة كما ترون ، كانت كل ما تبقى لى فلم يبق لى شىء فى الدنيا ، اذهبوا من فضلكم ..

***

كان الظلام حالكا عندما مضى ياسين وكمال فى طريقهما الى بين القصرين ، وكان ياسين يقول :

ــ ما أثقل أن نبلغ والدك الخبر !

فأجاب كمال وهو يجفف عينيه :

ــ نعم ..

ــ لا تبك ، أعصابى لم تعد تتحمل ..

فقال كمال متنهدا :

ــ كانت عزيزة جدا على ، أنا حزين جدا يا أخى ، وعائشة المسكينة ! .

ــ هذه هى الكارثة ! ، عائشة ! ، سننسى جميعا الا عائشة .

« سننسى جميعا ! ؟ ، لا أدرى ، ان وجهها لن يغيب عنى مدى العمر ، ولو أن لى مع النسيان تجربة فذة ، هو نعمة كبرى ، ولكن متى يجود ببلسمه ؟ » . وعاد ياسين يقول :

ــ كنت متشائما عند زواجها ، ألا تدرى ؟ ، لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين !، والدك يذكر هذا فى الغالب ..

ــ لا أدرى شيئا ، أكانت عائشة تدرى ؟

ــ كلا ، انه تاريخ قديم ، وقضاء الله لا بد منه ..

ــ ما أتعسك يا عائشة .

ــ أجل ما أتعسها المسكينة ..

٢٥

كان أحمد ابراهيم شوكت جالسا فى قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة ، مكبا على متابعة كتاب بين يديه . لم يكن بقى على

الامتحان الا أسبوع ، وكان الجهد قد نال منه كل منال . وشعر بأن شخصا قد دخل القاعة وجلس خلفه ، فالتفت الى الوراء مستطلعا فرأى علوية صبرى ! . نعم هى ، ولعلها جلست تنتظر كتابا استعارته ، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين ، ثم أعاد رأسه الى وضعه الأول منتشى القلب والحواس . ما من شك فى أنها باتت تعرف شكله ، كما تعرف أنه مغرم بها ، فمثل هذه الأمور لا تخفى ، الى أنها كلما التفتت هنا أو هناك — سواء فى فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان — وجدته مسترقا اليها النظر . وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ ، ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر . وكان — منذ أن علم بأنها ستتخصص فى الاجتماع مثله — يؤمل أن يتم التعارف بينهما فى غضون العام الدراسى المقبل ، الأمر الذى لم يتح له هذا العام فى زحمة طلبة القسم الاعدادى . على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء ، فحدثته نفسه بأن يمضى الى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها ، ثم يحييها فى طريقه ! . وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ، فقام دون تردد وسار فى الممر بين المقاعد ، وعندما مر بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة ، فبدا فى ملامحها وقع المفاجأة ، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها . وتساءل ترى هل أخطأ ؟ . كلا ، انها زميلة منذ عام طويل ، ومن واجبه أن يحييها اذا التقيا هكذا وجها لوجه فى مكان يكاد يكون خاليا . وواصل مسيره الى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف ، ثم اختار مجلدا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة . كان سروره برد التحية عظيما فزايله التعب واهتز صدره نشاطا . يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه اعجابا وانجذابا حتى صارت شغله

الشاغل . ان كافة أحوالها تنم عن أنها من « أسرة » كما يقولون ، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجم ، وانه ليستطيع أن يعترف لها ـ صادقا ـ بأنه من أسرة كذلك اذا دعا الأمر ، أليس آل شوكت « أسرة » ؟. بلى .. وذات ملك ، فسيكون له يوما ريع ومرتب معا ! . وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة ، ريع .. مرتب .. أسرة !. اذن فأين مبادؤه ؟. وشعر بشيء من الخجل . ان القلب فى أهوائه لا يعرف المبادىء ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها ، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقا جديدا ، كمن يدخل بلدا غريبا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد . ثم ان الطبقة والملكية حقيقتان واقعيتان لم يخلقهما هو ولا ابوه ولا جـده ، فليس هو بالمسئول عنهما ، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التى تفرق بين البشر . من الممكن ربما أن يغير نظام الطبقات ، ولكن كيف يستطيع أن يغير الماضى وهو أنه من أسرة موفورة الدخل ؟ . وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الأرستقراطى ، وكارل ماركس نفسه تزوج من چينى فون وستفالن حفيدة الدوق دى برونشويك ، وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة » و « ملكة الرقص » ، وها هى أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة الرقص . وأعاد المجلد الى موضعه ثم رجع ، وجعل يملأ ناظريه مما بدا من قامتها ، جانب من أعلى الظهر ، وصفحة العنق الرقيق ، والقذال المزدان بالشعر المعقوص ، ما اجمل المنظر ، ومر بها خفيفا الى مقعده وجلس . ولم تمض دقائق حتى سمع وقع أقدامها الخفيفة ، فنظر الى الوراء آسفا وهو يظنها منصرفة ولكنه رآها قادمة ، فلما حاذته وقفت فى شيء من الارتباك ، وهو لا يصدق عينيه ، وقالت :

ـ لا مؤاخذة ، هل أجد عندك محاضرات التاريخ ؟.

نهض كالجندى ، وبادر يقول :

ــ بكل تأكيد ..

فقالت كالمعتذرة :

ــ لم أستطع متابعة الأستاذ الانجليزى كما يجب ، ففاتنى تقييد كثير من النقط الهامة ، وأنا لا أرجع الى المراجع الا فى المواد التى سأتخصص فيها فيما بعد ، ولا يتسع الوقت للمراجعة فى سائر المواد ..

ــ مفهوم .. مفهوم ..

ــ وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة ، وأنك أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم ؟..

ــ نعم ، ستكون تحت أمرك غدا ..

ــ متشكرة جدا (ثم وهى تبتسم) لا تظن بى الكسل ، ولكن انجليزيتى متوسطة !..

ــ لا بأس ، أنا بدورى دون المتوسط فى الفرنسية ، ولعله تتاح لنا الفرص للتعاون ، ولكن معذرة تفضلى بالجلوس ، قد يهمك الاطلاع على هذا الكتاب ، مدخل الاجتماع لهانكنز ..

ولكنها قالت :

ــ متشكرة ، لقد رجعت اليه مرات ، قلت انك دون المتوسط فى الفرنسية ، فلعلك فى حاجة الى مذكرات السيكولوجى ؟

فأجاب دون تردد :

ــ أكون شاكرا لو تفضلت ..

ــ غدا نتبادل المذكرات ؟.

ــ بكل سرور ، ولكن معذرة ، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالانجليزية ...

فتساءلت وهى تدارى مولد ابتسامة :

ــ أتعرف أننى اخترت قسم الاجتماع ؟ .

ابتسم كأنما ليدارى حياءه ، ولم يكن ثمة حياء ولكنه شعر بأنه « وقع » ، ولكنه قال ببساطة :

ــ نعم !.

ــ لمناسبة اية مصادفة ؟.

فقال بجرأة :

ــ بل سألت فعلمت . .

وضغطت شفتيها القرمزيتين ، ثم قالت وكأنها لم تسمع جوابه :

ــ غدا نتبادل المذكرات . .

ــ صباحا . . .

ــ الى اللقاء وشكرا . .

فبادرها :

ــ انى سعيد بالتعرف اليك ، الى اللقاء .

لبث واقفا حتى واراها الباب ثم جلس . ولحظ أن البعض كان ينظر مستطلعا نحوه . ولكنه كان ثملا بالسعادة . ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من اعجابه بها ، أم لحاجتها الملحة الى مذكراته ؟. لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف . كان يجدها دائما بصحبة الأتراب . هذه اول فرصة ، وقد فاز بما تمنى طويلا فيما يشبه المعجزة . ان كلمة من ثغر نحبه خليقة بأن تجعل من كل شيء كلا شيء . . .

٢٦

بدا ياسين قلقا رغم ارادته . وكان قد تظاهر طـويلا بأنه لا يهمه شيء ، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة نفسها ، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضا . ان الدرجة السادســة ـ اذا رقى اليها ـ ســتزيد مرتبه جنيهين لا غير !. ويا ما ضيع ياسين ! . ويقولون انها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع ، ولكن متى كان يكترث ياسين للرياسات ؟ . بيد أنه كان قلقا ، خاصة بعد أن استدعى مدير الادارة محمد افندى حسن ـ زوج زينب أم رضوان ـ لمقابلة وكيل الوزارة ، وذاع بين موظفى المحفوظات أن الوكيل اسـتدعاه ليسمع رأيه فى موظفيه للمرة الأخيرة قبل توقيع الكشف الخاص بالترقيات . محمد حسن ؟!. خليفته اللدود ، الذى لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيد !. أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة ؟ . وانتهز فرصة خلو حجرة المدير فهرع الى التليفون ، وطلب كلية الحقوق ، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة ، مســتدعيا رضـوان ياسين ...

ـ آلو ، رضوان ؟. أنا والدك .

ـ أهلا وسهلا ، كل شيء عال .

كان صوته ينم عن ثقة ، الابن واسطة للأب ..

ـ الحركة رهن التوقيع الآن ؟.

ـ اطمئن ، الوزير نفســه هو الذى وصى بك ، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكل خير .

ـ ألا تحتاج المسألة لتوصيلة أخيرة ؟.

ـ أبدا ، الباشا هنأنى هذا الصباح كما أخبرتك ، اطمئن جدا .
ـ أشكرك يا ابنى ، سلام عليكم .
ـ وعليكم السلام يا بابا ، مبارك مقدما . .

ووضع السماعة وغادر الحجرة ، فالتقى بابراهيم افندى فتح الله - زميله ومنافسه فى الدرجة - قادما يحمل بعض الملفات ، فتبادلا التحية فى تحفظ . وعند ذاك قال ياسين :

ـ ليكن ما بيننا مباراة رياضية يا ابراهيم افندى ، ولنقبل النتيجة أيا كانت بشهامة . .

فقال الرجل فى امتعاض :

ـ على شرط أن تكون مباراة شريفة !
ـ ماذا تعنى ؟.
ـ أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة !.

ـ غريب رأيك !. وهل يوجد رزق بدون وساطة فى هده الدنيا ؟. اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء ، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب !. . .

ـ أنا أقدم منك .
ـ كلانا موظف قديم ، سنة لا تقدم ولا تؤخر !.
ـ فى سنة تولد نفوس وتزهق نفوس . .
ـ تولد تزهق ، كل واحد وقسمته . .
ـ والكفاءة ؟. .

فقال ياسين منفعلا :

ـ الكفاءة ؟. هل نقيم جسورا أو ننشىء محطات كهربائية ؟. كفاءة ! ماذا يتطلب عملنا الكتابى من كفاءة ؟. كلانا بالابتدائية ، وفضلا عن ذلك فأنا رجل مثقف :.

فضحك ابراهيم افندى ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ مثقف ؟. أهلا يا سى مثقف !. أتظن نفسك مثقفا بالشعر

الذي تحفظه ؟ . او بالانشاء الذى تكتب به خطابات الادارة كأنك تؤدى امتحان الابتدائية من جديد ؟. أنا تارك أمرى لله . .

وافترق الرجلان على أسوأ حال ، وعاد ياسين الى مكتبه . كانت الحجرة كبيرة ، صفت بها المكاتب متقابلة على الجانبين ، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات . وكان البعض مكبا على الأوراق والآخرون يتحادثون ويدخنون ، على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات . قال جار ياسين له :

ـ ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام ، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها ، لا مصروفات ولا تعب قلب فى البحث عن وظيفة بعد التخرج .

فقال ياسين :

ـ خير ما تفعل . .

فسأله الرجل مجادلا :

ـ وماذا أعددت لكريمة ؟ . كم بلغت من العمر على فكرة ؟.

فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله ، وقال :

فى الحادية عشرة ، وسوف تأخذ الابتدائية فى الصيف القادم ان شاء الله (وهو يعد على أصابعه) : نحن فى نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال . . .

ـ ما دامت تنجح فى ابتدائى فستنجح فى ثانوى ، البنات أضمن اليوم من الصبيان . . .

ثانوى ؟. هذا ما تريده زنوبة ، كلا انه لا يطيق أن يرى ابنته تسير فى الطريق ونهداها يهتزان ، ثم المصروفات ؟. . .

ـ نحن لا نلحق بناتنا بالثانوى ، ولماذا ؟. انها لن تتوظف !.

فسأل ثالث :

ـ أهذا كلام يقال فى عام ١٩٣٨ ؟.

ـ يقال فى أسرتنا ولو فى عام ٢٠٣٨ !.

فضحك رابع وهو يقول :

ـ قل انك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك معا !. قهوة العتبة وخمارة محمد على ، وحب البنات البكارى هد منى الحيل ، هذه هى الحكاية ...

فضحك ياسين ، ثم قال :

ـ ربنا ساترها ، ولكن كما قلت لك نحن لا نعلم البنت أكثر من الابتدائية ...

وتعالت سعلة من الركن القصى فيما يلى مدخل الحجرة ، فالتفت ياسين الى صاحبها ، ثم وقف وكأنه تذكر أمرا هاما ، فمضى الى مكتبه حتى شعر الرجل به فرفع نحوه رأسه ، فمال ياسين فوقه قائلا :

ـ وعدتنى بالوصفة ...

فمد الرجل اذنه متسائلا :

ـ نعم ؟...

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة ، واستحيى أن يرفع من صوته واذا بصوت يجىء من وسط الحجرة عاليا وهو يقول :

ـ أراهن على أنه يسألك عن الوصفة ، وصفتك التى ستذهب بنا جميعا الى القبر ...

وتراجع ياسين متبرما الى مكتبه ، فقال له الرجل دون مبالاة باحراجه ، وبصوت سمعته الحجرة كلها :

ـ أنا أقول لك عنها ، هات قشر مانجو ، اغله غليا شديدا ، وداوم على ذلك حتى يصير سائلا لزجا كالعسل ، وخذ منه ملعقة على غيار الريق ..

وضحكوا جميعا ، غير أن ابراهيم فتح الله قال متهكما :

ـ فايق ورايق ، انتظر حتى تأخذ الدرجة السادسة وهى تشد حيلك !...

فتساءل ياسين ضاحكا :

ـ وهل تنفع الدرجة فى هذه المسألة ؟..

فقال جار ياسين ضاحكا أيضا :

ـ لو صحت هـذه النظرية ، لاستحق عم حسنين فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف !..

وضرب ابراهيم فتح‌الله كفا بكف ، وقال متسائلا زملاءه جميعا :

ـ يا اخوان ، هذا الرجل (مشيرا الى ياسين) طيب وظريف وابن حلال ، ولكن هل يشتغل بمليم ؟.. أنا راض بذمتكم !..

فقال ياسين هازئا :

ـ دقيقة عمل منى تساوى شغل يوم منك !..

ـ الحكاية أن المدير يترفق بك ، وأنك تتوكل على ابنك فى هذا العهد الأغبر !...

فقال ياسين ملحا فى اغاظته :

ـ وفى كل عهد وحياتك ، ابنى فى هذا العهد ، فاذا جاء الوفد عندك ابن أختى وأبى ، قل من عندك أنت !..

فقال الرجل وهو يرفع رأسه الى السقف :

ـ عندى ربنا !..

ـ وهو سبحانه عندى أيضا ، أليس برب الجميع ؟..

ـ ولكنه لن يرضى عن زباين محمد على !..

ـ وهل يرضى عن مدمنى الأفيون والمنزول ؟..

ـ ليس أيشع فى الوجود من السكير !..

ـ الخمر شراب الوزراء والسفراء ، ألا تراهم فى الصحف وهم يشربون الأنخاب ؟. ولكن هل رأيت سياسيا يقـدم قطعة أفيون فى حفل سياسى فى صحة عقد معاهدة مثلا ؟!..

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك :

ـ هس يا جماعة ، والا قضيتم بقية مدة خدمتكم فى السجن !.

فبادره ياسين مشيرا الى غريمه :

ــ كان يقرفنى فى السجن وحياتك ، ويقول لى أنا أقدم منك !..

واذا بمحمد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة ، فساد الصمت وتطلعت نحوه الرءوس .

واتجه الرجل نحو حجرته لايلوى على شىء ، فتبادلوا النظرات متسائلين . لا يبعد أن يكون أحد المتخاصمين الآن رئيس قلم ، ولكن من صاحب الحظ السعيد ؟. وفتح باب المدير ، وظهر رأسه الأصلع وهو ينادى بصوت جاف « ياسين افندى » ، فنهض ياسين بجسمه الضخم ، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق .. وتفحصه المدير بنظرة غريبة ثم قال :

ــ رقيت الى الدرجة السادسة !

فقال ياسين وقد انشرح صدره :

ــ شكرا يا افندم ..

فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف :

ــ من الانصاف أن أصارحك بأنه يوجد من هو أحق بها منك ، .. ولكنها الوساطة !

فغضب ياسين ، وكان كثيرا ما يغضب حيال هذا الرجل ، وقال :

ــ الوساطة ! ، مالها ؟ ، هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة ؟ ، هل ترقى مخلوق فى هذه الادارة ، فى هذه الوزارة ، بما فيهم حضرتك ، دون وساطة ؟

فكظم الرجل غيظه ، ثم قال :

ــ لا يأتينى من ناحيتك الا وجع الدماغ ، تترقى بدون وجه حق ، ثم تثور لأقل ملاحظة عادلة ، ما علينا ، مبارك ، مبارك يا سيدى ، فقط أرجو أن تشد حيلك ، أنت الآن رئيس قلم !

فتشجع ياسين بتراجع المدير ، وقال دون أن يخفف من حدته :

ــ أنا موظف منــذ أكثر من عشرين عاما ، وعمــرى اثنان وأربعون عاما ، فهل تستكثر على الدرجة السادسة ؟ ، ان الغلمان يعينون فيها بمجرد تخرجهم فى الجامعة !

ــ المهم أن تشد حيلك ، ارجو أن أعتمد عليك كبقية زملائك ، لقد كنت وأنت ضابط مدرسة النحاسين مثال الموظف المجد ، ولولا تلك الحادثة القديمة ..

ــ شىء قديم فلا داعى لذكره الآن ، وكل واحد له أخطاؤه ..

ــ أنت الآن فى سن الرجولة الناضجة ، فاذا لم يستقم سلوكك تعذر عليك أن تقوم بواجبك ، كل ليلة سهر فبأى مخ تعمل فى الصباح ؟ ، أريد أن تنهض بالادارة ، هذا كل ما هنالك ..

فاستاء ياسين للتعريض بسيرته ، وقال :

ــ لا أقبل أن يمس انسان سلوكى الخاص بكلمة ، أنا حــر خارج الوزارة !..

ــ وداخلها ؟.

ــ سأعمل ما يعمله رؤساء الأقلام ، أنا اشتغلت فى ماضى ما يكفينى طوال العمر ..

عاد ياسين الى مكتبه متكلفا الابتسام رغم جيشان صــدره بالغضب . وذاع النبأ فتلقى التهانى .

وكان ابراهيم فتح الله يميل على اذن جاره هامسا فى حقد :

ــ ابنه ! ، هذه هى الحكاية ، عبد الرحيم باشا عيسى .. فهمت ؟!.. سفخص !.

٢٧

كان السيد احمد عبد الجواد جالسا على كرسى كبير فى المشربية ينظر الى الطريق حينا ، وحينا فى جريدة الأهرام المبسوطه على حجره ، وكانت ثقوب المشربية تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقطا من الضياء . وقد ترك باب حجرته مفتوحا ليتمكن من سماع الراديو القائم فى الصالة . غير أنه بدا ناحلا ضامرا ، كما لاحت فى عينيه نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين . وكان كأنما يكتشف الطريق — من مجلسه بالمشربية — لأول مرة فى حياته ، فلم يسبق له أن رآه من هذه الزاوية فى أيام حياته الماضية ، اذ أنه لم يكن يمكث فى البيت الا ساعات النوم على وجه التقريب ، أما اليوم فلم تعد له من تسلية — بعد الراديو — الا هذه الجلسة فى المشربية ، ينظر من ثقوبها شمالا وجنوبا . وانه لطريق حى ، مسل ، لطيف ، وله الى هذا طابعه الذى يميزه عن طريق النحاسين الذى الف رؤيته من دكانه — السابق — زهاء نصف قرن من الزمان . وهذه دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى ، تقوم فى الطريق كالقسمات فى الوجه حتى عرف بها وعرفت به ، أى عشرة وأى جوار . ترى ما أعمار هؤلاء الناس ؟ . حسنين الحلاق مدمج الخلق ، من نوع قل أن يبدو عليه أثر الزمن ، لم يكد يتغير منه شىء الا شعره ، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب ، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم !. ودرويش ؟ ، أصلع ، هكذا كان دائما ، ولكنه فى الستين ، ما أقوى جسمه ! ،كذلك كنت أنا فى الستين ، ولكننى

امسيت فى السابعة والستين فيا له من عمر !. وأعدت تفصيل ثيابى لتناسب ما تبقى من جسدى ، واذا نظرت الى هذه الصورة المعلقة فى حجرتى أنكرت نفسى . الفولى أصغر من درويش ، ذلك الأعمش المسكين ، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدى الى سبيله . أبو سريع رجل عجوز ، عجوز ؟! ، ولكنه ما زال يعمل ، لم يفارق واحد منهم دكانه ، الا أن فراق الدكان لشديد ! ، ثم لا يبقى لك الا هذا المجلس ، والقبوع فى البيت ليل نهار ، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم ! ، ولكن على أن أنتظر يوم الجمعة ، ثم لابد من العصا ، ولابد من كمال ليصحبنى ، الحمد لله رب العالمين . بيومى أصغرهم وأسعدهم حظا ، من أم مريم بدأ أما أنا فعندها انتهيت ، وهو اليوم مالك أحدث عمارة فى الحى ، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان ، وأنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء ، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة ، سبحان العاطى وجلت حكمته ! . كل شىء يتجدد ، الطريق ممهد بالأسفلت ، وأضىء بالمصابيح ، أتذكر ليالى عودتك آخر الليل فى الظلام الدامس ؟ ، لكن أين منى هاتيك الليالى ؟ ، وفى كل دكان كهرباء وراديو ، كل شىء جديد ، الا أنا ، عجوز فى السابعة والستين ، لا يستطيع مغـادرة داره الا يوما واحدا فى الأسبوع وهو يلهث . القلب ! ، كله من القلب ، ألقلب الذى طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى ، يقضى اليوم بالقعود ولا راد لقضائه . قال الطبيب « خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامى الغذائى » ، حسن ، ولكن هل يعيد ذلك الى قوتى .. أعنى بعض قوتى ؟ ، فأجاب الطبيب « حسبنا أن نمنع المضاعفات ، ولكن الجهد أو الحركة شىء خطير .. (ثم ضاحكا) .. لماذا تريد أن تسترد قوتك » ؟ ، أجل لماذا ؟ ، انه لشىء محزن مضحك معا ، ومع ذلك قال « أريد أن أذهب وأجىء » فقال الطبيب « لكل حال مسراتها ، جلسة هادئة ، اقرأ الصحف واسمع الراديو وانعم

بأسرتك ، ويوم الجمعة زر الحسين راكبا ، حسبك هذا ! » ، الأمر لصاحب الأمر ، متولى عبد الصمد لا يزال يتخبط فى الطرقات ! ، ويقول وانعم بأسرتك ! ، لم تعد أمينة تمكث فى البيت ، انقلبت الآية ، أنا فى المشربية وهى تجـول فى القاهـرة من مسجد الى مسجد ، كمال يجالسنى خطفا كالضيف ، عائشة ؟ ، آه يا عائشة ، أمن الأحياء أنت أم من الأموات ؟ ، ثم يريدون من قلبى أن يبرأ ويستريح !

ـ سيدى ..

والتفت الى الوراء صوب الصوت ، فرأى أم حنفى حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه .

ـ الدواء يا سيدى ..

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسـود ، هـذه المرأة التى صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا . وتناول الكوب وملأ الفنجان حتى نصفه ، وفض سـداد القارورة ونقط منها أربع نقط فى الفنجان ، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء ، ثم تجرعه:

ـ بالشفا يا سيدى .

ـ متشكر ، أين عائشة ؟

ـ فى حجرتها ، الله يصبر قلبها .

ـ ناديها يا أم حنفى .

فى حجرتها ، أو على السطح ، ثم ماذا ؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخرا من حزن البيت الصامت . ولم يكن السيد اضطر الى ملازمة البيت الا منذ شهرين ، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر ، فاستأذن الرجل فى سماع الراديو لحاجته الملحة الى التسلية ، فقالت له عائشة « طبعا يا بابا ، ربنا يكفيك شر قعدة البيت ! » . وسمع حفيف ثوب فالتفت فرآها قادمة

فى ثوب أسود ، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو ، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة ، عنوان التعاسة يا ابنتى . قال برقة :

— هاتى الكرسى واجلسى معى قليلا . .

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة :

— مرتاحة هكذا يا بابا .

علمته الأيام الأخيرة الا يحاول أن يعدل بها عن رأى .

— ماذا كنت تفعلين ؟

فقالت دون أن ينم وجهها عن أى معنى :

— لا شيء أفعله يا بابا .

— لماذا لا تخرجين مع نينتك لتزورى الأضرحة المباركة . أليس هذا أفضل من بقائك وحدك ؟

— ولماذا أزور الأضرحة ؟

وكأنما فوجىء بقولها ، بيد أنه قال بهدوء :

— تتوسلين الى الله أن يصبر قلبك .

— الله هنا معنا فى البيت . .

— طبعا ، أقصد أن تتركى هـذه العزلة يا عائشة ، فزورى أختك ، زورى الجيران ، روحى عن نفسك . .

— لا أستطيع أن أرى السكرية ، ولا معارف لى ، لم يعد لى معارف ، لا أطيق زيارة أحد . .

قال الرجل وهو يولى عنها رأسه :

— أحب أن تتصبرى ، وأن تهتمى بصحتك . .

— صحتى ! . . .

قالتها فيما يشبه العجب . فقال بتوكيد :

— نعم ، ما فائدة الحزن يا عائشة ؟ . .

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذى تعودت أن تلتزمه حياله :

ــ وما فائدة الحياة يا بابا ؟..

ــ لا تقولى هذا ، ان اجرك عند الله عظيم !..

فحنت رأسها لتخفى عينيها الدامعتين ، وقالت :

ــ أود أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر ، ليس هنا يا بابا !.

ثم انسحبت برقة ، وقبل أن تغادر الحجرة توقفت قليلا كأنما تذكرت أمرا ، فسألته :

ــ كيف صحتك اليوم ؟.

فابتسم قائلا :

ــ الحمد لله ، المهم صحتك انت يا عائشة ..

وغادرت الحجرة . من أين تأتيه الراحة فى هــذا البيت ؟. وراح يردد بصره فى الطريق حتى ثبت على امينة وهى راجعة من جولتها اليومية . كانت ترتدى معطفا ، وعلى وجهها بيشة ، وتنقل خطاها فى بطء . شد ما ركبها الكبر ! . كان يحسن الظن بصحتها متذكرا أمها المعمرة ، ولكن ها هى تبدو أكثر من سنها ــ اثنين وستين عاما ــ بعشرة أعوام على الأقل . ومر وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهى تتساءل :

ــ كيف حال سيدى ؟..

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة :

ــ كيف حالك أنت !. ماشاء الله !. من طلعة الصبح ياولية ؟!.

فابتسمت قائلة :

ــ زرت سيدتك ، وزرت سيدك ، ودعوت لك وللجميع ..

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام ، وشعر بأنه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج :

ــ أيصح ان تتركينى وحدى كل هذا الوقت ؟!.

ــ أنت اذنت لى يا سيدى ، لم اغب طويلا ، ولكنها الضرورة يا سيدى ، ما أحوجنا الى الدعاء ، توسلت الى سـيدى أن يرد اليك صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء ، كما دعوت لعائشة وللجميع . .

وجاءت بكرسى وجلست ، ثم سألته :

ــ هل تناولت الدواء يا سيدى ؟ . . أنا نبهت على أم حنفى . .

ــ ليتك نبهتها على شىء أحسن !.

ــ بالشفا يا سيدى ، سمعت فى المسجد درسا جميلا من الشيخ عبد الرحمن ، تحدث يا سيدى عن الكفارة عن الذنب وكيف تمسح السيئات ، كلام جميل جـدا يا سيدى ، ليتنى أستطيع أن أحفظ كأيام زمان . .

ــ وجهك شاحب من المشى ، كلها كم يوم وتصبحين من زباين الدكتور !.

ــ ربنا الحافظ ، أنا لا اخرج الا لزيارة آل البيت ، فكيف يقع لى سوء ؟!.

ثم متداركة :

ــ آه يا سيدى ، كدت أنسى ، يتحـدثون فى كل مكان عن الحرب ، يقولون ان هتلر هجم . . ؟ !

تساءل الرجل باهتمام :

ــ متأكدة ؟ .

ــ سمعتها بدل المرة مائة مرة ، هتلر هجم . . هتلر هجم . .

فقال الرجل ليفهمها انها لم تسبقه بالأخبار :

ــ كان هذا متوقعا من لحظة لأخرى .

ــ بعيد عنا أن شاء الله يا سيدى ؟.

ــ قالوا هتلر فقط ؟ . وموسـولينى ؟ . ألم تسمعى هذا الاسم ؟ .

ــ اسم هتلر فقط . .

« بعيد عنا ؟ . من يدرى ؟ » .

ــ ربنا يلطف بنا ، اذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطم فاشتروه .

فقالت المرأة :

ــ كأيام غليوم وزبلن ، أتذكر يا سيدى ؟. سبحان من له الدوام . .

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد . فعندما فتح باب الشقة ملأ فراغه ياسين فى بدلة بيضاء من تيل المحلة ، تتقدمة الوردة الحمراء والمنشة العاجية ، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه ، وتبعه ابنه رضوان فى بدلته الحريرية آية فى الأناقة والجمال ، ثم زنوبة فى ثوب سنجابى تعلوها الحشمة التى صارت لزءا لا يتجزأ منها ، واخيرا كريمة فى فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين ، وقد تبلورت أنوثتها المبكرة ــ لم تكن تزيد على الثالثة عشرة ــ فبدت جاذبيتها صارخة . وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وابراهيم وعبد المنعم وأحمد ، وسرعان ما قال ياسين :

ــ أسمعتم عن شىء كهذا من قبل ؟. ابنى سكرتير الوزير الذى انا فى وزارته مجرد رئيس قلم فى المحفوظات ، تنهد له الأرض اذا سار ، وأنا لا يكاد يشعر بى انسان !.

كان مدلول كلامه الاحتجاج ، ولكن لم يخف على أحد ماانطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه . وفى الحق قد حصل رضوان

على الليسانس فى مايو من هذا العام ، وما لبث أن تعين فى يونيه سكرتيرا للوزير ، فى الدرجة السادسة ، على حين يتعين خريجو الجامعات فى الدرجة الثامنة الكتابية . وقد حصل عبد المنعم على الليسانس فى نفس التاريخ ، ولكنه لم يكن يدرى ما المصير . قالت خديجة باسمة ، وكانت تشعر بشىء من الغيرة :

ــ رضوان صديق الحكام ، ولكن العين لاتعلو على الحاجب . .

فسأل ياسين فى سرور لم يفلح فى مداراته :

ــ ألم تروا صورته مع الوزير فى أهرام أمس ؟. بتنا لاندرى كيف نكلمه !. .

فأشار ابراهيم شوكت الى عبد المنعم وأحمد قائلا :

ــ هذان الولدان خائبان ، ضيعا عمرهما فى مناقشات حادة لا معنى لها ، وكان خير من عرفا من رجالات البلد الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية ، وسخام البرك عدلى كريم صاحب مجلة الضوء أو الهباب لا أدرى . .

وكان أحمد ساخطا وان بدا طبيعيا . أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده ، أما عبد المنعم فقد غطى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذى كان خليقا أن يشتعل فى صدره فى ظروف أخرى . وكان يسترق النظر الى وجه رضوان متسائلا عما وراءه ، غير أن قلبه استبشر خيرا بالزيارة ، فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشرى . وعاد ياسين يقول معلقا على كلام ابراهيم :

ــ لو سألتنى عن رأيى لقلت لك نعم الولدان !. ألم يقولوا فى الأمثال : السلطان من ابتعد عن باب السلطان ؟.

كلا ، لم يفلح ياسين فى مداراة سروره ، كما لم يفلح فى اقناع أحد بايمانه بما قال ، غير أن خديجة قالت مشيرة الى رضوان :

ــ ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم . .

وأخيرا التفت رضوان الى عبد المنعم قائلا :

ـ أرجو أن أهنئك عما قريب ..

فتطلع اليـه عبد المنعم متسائلا وقد تورد وجهـه ، فعـاد رضوان يقول :

ـ وعدني الوزير بأن يعينك فى ادارة التحقيقات ..

كانت أسرة خديجة تترقب على لهف هـذا التقرير ، فركزت أبصارهم فى رضوان طالبة المزيد من التأكيد ، فمضى الشاب يقول :

ـ أول الشهر القادم على أكثر تقدير .

وقال ياسين معقبا على قول ابنه :

ـ انها وظيفة قضائية ، لقد عين عندنا فى ادارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس فى الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات !

وكانت خديجة هى التى طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم ، فقالت فى امتنان :

ـ الشكر لله ولك يا أخى (ثم وهى تلتفت الى رضوان) وطبعا جميل رضوان فوق رءوسنا ..

وآمن ابراهيم على قولها قائلا :

ـ طبعا ، انه أخوه ، ونعم الأخ .

وقالت زنوبة باسمة ، لكى تخرج من هامش الجلسة :

ـ رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان ، ما فى ذلك كلام .

وتساءل عبد المنعم الذى كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان :

ـ أعطاك كلمة جدية ؟ .

فقال ياسين باهتمام :

ـ كلمة وزير ! . انى متتبع المسألة !

وقال رضوان :

ـ وأنا من ناحيتى سأذلل لك الصعاب فى ادارة المستخدمين ، ولى فيهم أصدقاء كثيرون ، ولو أن موظفى المستخدمين لا صديق لهم ! .

فقال ابراهيم شوكت وهو يتنهد :

ـ الحمد لله . لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين ! .

فقال ياسين :

ـ عشت ملكا يا أبا خليل . .

ولكن خديجة قالت متهكمة :

ـ ربنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت ! .

وتدخلت زنوبة مجاملة كعادتها ، فقالت :

ـ قعدة البيت لعنة ، الا من كان صاحب ملك فهو سلطان ! .

فقال أحمد وفى عينيه بسمة خبيثة :

ـ خالى ياسين صاحب مِلك ، ولكنه صاحب وظيفة أيضا !

فضحك ياسين ضحكة عالية ، وقال :

ـ صاحب وظيفة بس من فضلك ، أما المِلك ! . كان ياما كان ، كيف يحتفظ بمِلكه من كان له أسرة كأسرتى ؟ ! .

فهتفت زنوبة فى ارتياع :

ـ أسرتك ! .

والتفت رضوان ـ قاطعا الحديث الذى لا يحبه ـ الى أحمد قائلا :

ـ ان شاء الله تجدنا فى خدمتك فى العام المقبل عندما تأخذ الليسانس ! .

فقال أحمد :

ـ أشكرك جدا ، لكننى لن أتوظف ! .

ـ كيف ؟ . . .

ـ الوظيفة خليقة بقتل أمثالى ، مستقبلى فى الميدان الحر ! .

وهمت خديجة بالاحتجاج ، ولكنها آثرت تأجيل العراك الى حينه ، اما رضوان فقال باسما :

ـ اذا غيرت رأيك فستجدنى فى خدمتك ! .

فرفع أحمد يده الى رأسه شاكرا . وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلجة . وفى فترة الصمت التى جعلوا فيهـا يحتسون ، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرة منذ افاقتها من مسألة عبد المنعم ، فقالت لها برقة :

ـ كيف حالك يا كريمة ؟ .

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة :

ـ بخير يا عمتى . متشكرة . .

وكادت خديجة تأخذ فى اطراء جمالها ، ولكن شيئا ـ كالحذر ـ اوقفها . الواقع أنها لم تكن أول مرة تجىء بها زنوبة معهـا مذ حجزت فى البيت بعد أخذها الابتدائية . وقالت خديجة لنفسها ان هذه الأمور تشم فى الهواء شما ! . وان كريمة اذا كانت ابنة زنوبة فهى فى الوقت نفســه ابنة ياسـين ، ومن هنا تجىء دقة المسألة ! . ولم يكن عبد المنعم يوفى كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه ، ولكن كان يعرفها حق المعرفة ، على أنه لم يكن قد برىء كل البرء من أثر وفاة زوجه ، أما أحمد فلم يكن فى فؤاده متسع ! . وقال ياسين :

ـ كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية .

فقالت زنوبة مقطبة :

ـ وأنا آسفة أكثر . . .

فقال ابراهيم شوكت :

ـ انى أشفق على البنات من جهد الدراسة ، ثم ان البنت فى النهاية لبيتها ، فلن يمضى عام أو آخر حتى تزف كريمة الى صاحب القسمة السعيد . . .

يامقطوع اللسان ، هكذا قالت خديجة لنفسها ، يفتح المواضيع الخطيرة وهو فى غفلة عن نتائجها ، يا له من موقف ! . كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل ، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب الا الوهم ! . ولكن لماذا تكثر زنوبة من زيارتنا جارة فى يدها كريمة ؟ . ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير ، أما ربيبة التخت .. ! .

وقالت زنوبة :

ـ هذا الكلام كان يقال فى الزمن الماضى ، أما اليوم فالبنات كلهن يذهبن الى المدارس ..

فقالت خديجة :

ـ فى حارتنا بنتان فى المدارس العالية ، ولكن شكلهما والعياذ بالله ! ...

فسأل ياسين أحمد :

ـ أليس فى بنات كليتك جمال ؟ .

وخفق قلب أحمد ، وتمثلت لعينيه الصورة المعششة فى قلبه ، ثم أجاب :

ـ حب العلم ليس قاصرا على الدميمات ..

فقالت كريمة باسمة ، وهى تنظر صوب أبيها :

ـ المسألة تتوقف على الآباء .

فضحك ياسين قائلا :

ـ عفارم يا بنتى ! . هكذا تتحدث البنت الطيبة عن أبيها ، وهكذا كانت تخاطب عمتك جدك ! .

فقالت خديجة متهكمة :

ـ المسألة تتوقف على الآباء حقا ! .

فبادرتها زنوبة قائلة :

ـ البنت معذورة ، آه لو سمعت حديثه بين أولاده ! .

فقالت خديجة :

ـ أنا عارفة وفاهمة ! .

فقال ياسين :

ـ أنا رجل له آراؤه فى التربية ، أنا الأب الصديق ، لا أحب أن يرتعد ابنائى خوفا فى محضرى ، أنا حتى اليوم ينتابنى الارتباك أمام أبى ! .

فقال ابراهيم شوكت :

ـ الله يقويه ويصبره على قعدة البيت ! . السيد أحمد جيل وحده ، وليس مثله أحد فى الرجال ! .

فقالت خديجة منتقدة :

ـ قل له ! .

فقال ياسين كالمعتذر :

ـ أبى جيل وحده ، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدى بيوتهم ، ولم تكن الدنيا لتسعهم على رحابتها ! .

وكان رضوان يقول لأحمد فى حديث جانبى مستقل :

ـ بدخول ايطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة .

ـ ربما تحولت هذه الغارات الاسمية الى غارات فعلية ..

ـ ولكن هل لدى الانجليز قوة كافية لصد الزحف الايطالى المتوقع ؟ . لا شك أن هتلر سيترك مهمة الاستيلاء على قناة السويس لموسولينى ..

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل تقف أمريكا متفرجة ؟ .

فقال أحمد :

ـ مفتاح الموقف الحقيقى فى يد روسيا ! .

ـ لكنها حليفة هتلر ؟ .

— الشيوعية عدوة النازية : ثم ان الشر الذى يتهدد العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدده بانتصار الديموقراطيات ..

فقالت خديجة :

— أظلموا لنا الدنيا الله يظلم عيشتهم ، وما هذه الأشياء التى لم نعرفها من قبل ؟ .. صفارات انذار ! .. مدافع مضادة .. كشافات ، مصائب تشيب الانسان قبل الأوان !

فقال ابراهيم فى سخرية هادئة :

— على أى حال الشيب فى بيتنا ليس قبل الأوان ..

— هذا عندك أنت وحدك !

كان ابراهيم فى الخامسة والستين ، ولكنه يبدو بالقياس الى السيد أحمد — الذى لم يكن يكبره الا بثلاث سنوات — كأنما يصغره بعشرات السنين .

وعند انتهاء الزيارة ، قال رضوان لعبد المنعم :

— زرنى فى الوزارة .

ولما أغلق الباب وراء الذاهبين ، قال أحمد لعبد المنعم :

— خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان ، ادرس كيف تزور سكرتير وزير !

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته ..

٢٩

لم يجد أحمد مشقة تذكر فى الاهتداء الى ڤيللا مستر فورستر ــ استاذ علم الاجتماع ــ بالمعادى . وقد ادرك حال دخوله أنه جاء متأخرا بعض الوقت ، وأن كثيرا من الطلبة الذين دعوا مثله الى الحفل الذى اقامه الأستاذ لمناسبة سفره الى انجلترا قد سبقوه اليه . واستقبله الأستاذ وحرمه ، وقد قدمه اليها باعتباره طالبا من خير طلبة القسم ، ثم مضى الشاب الى حيث جلس الطلبة فى الفراندا . كان المجلس يتكون من طلبة قسم الاجتماع كافة ، وكان أحمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية ، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق . ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت ، ولكنه كان مطمئنا الى مجيئهن ، أو الى مجيء « صديقته » التى كانت من سكان المعادى . والقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة فى أرض فضاء معشوشبة ، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل ، وقد صفت فوقها أباريق الشاى وأوعية اللبن وأطباق الحلوى . ثم سمع طالبا يتساءل :

ــ نلتزم الآداب الانجليزية أم ننقض على المائدة كالنسور ؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف :

ــ آه لو لم توجد لادى فورستر !.

كان الوقت أصيلا ، ولكن الجو لطيفا رغم شخصية يونية الثقيلة ، ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الڤيللا ، جئن معا كأنهن على ميعاد ، وكن أربعا هن جملة الطالبات بالقسم وبدت علوية صبرى وهى تخطر فى فستان ناصع البياض مهفهف ، جعل من كائنها اللطيف لونا واحدا بديعا فيما عدا الشعر الأسود

الفاحم ، وعند ذاك شعر أحمد بقدم هازئة تحتك بقدمه كأنما تنبهه ان كان فى حاجة الى من ينبهه ، وكان سره قد ذاع من زمن .. وتابعهن حتى استقر بهن المجلس فى ركن أخلى لهن بالقراندا ، ثم جاء مستر فورستر وزوجه ، وقالت الزوجة موجهة الخطاب الى الطلبة ، وهى تشير الى الفتيات :

ــ هل تحتاجون الى تعارف ؟

فارتفع الضحك ، وقال الأستاذ وكان ذا حيوية فائقة رغم مشارفته الخمسين :

ــ الأجدر أن تعرفيهم بى أنا ..

وضجوا بالضحك مرة أخرى ، حتى عاد مستر فورستر يقول :

ــ فى مثل هذا الوقت من كل عام كنا نغادر مصر الى انجلترا لقضاء العطلة ، هذه المرة لا ندرى ان كنا سنرى مصر مرة أخرى أم لا ! ...

فقاطعته زوجه قائلة :

ــ ولا حتى ان كنا سنرى انجلترا !

وأدركوا أنها تلمح الى خطر الغواصات ، فقال لها أكثر من صوت :

ــ حظ سعيد يا سيدتى ..

وعاد الرجل يقول :

ــ سأحمل معى ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة فى كلية الآداب ، وعن مقاطعة المعادى الهادئة الجميلة ، وعنكم أنتم الذين سأعتز حتى بهذركم !

فقال أحمد مجاملا :

ــ أما ذكراك فستبقى فى نفوسنا دواما ، وتنمو بنمو عقولنا .

ــ شكرا .. (ثم مخاطبا زوجه وهو يبتسم) .. أحمد

شاب جامعى كما ينبغى ، وان تكن له آراء مما تسبب المتاعب عادة فى بلده !

فقال زميل موضحا :

ــ يعنى انه شيوعى !

فرفعت السيدة حاجبيها باسمة ، أما مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى :

ــ لم أقل أنا ذلك ، ولكنه زميله الذى قال !

ثم نهض الأستاذ وهو يقول :

ــ آن وقت الشاى ، يجب الا يسرقنا الوقت ، وسوف نجد بعد ذلك متسعا للسمر واللهو ..

وكان عمال جروبى قد أعدوا المائدة ووقفوا متأهبين للخدمة .. وتوسطت لادى فورستر جانب المائدة الذى جلس اليه الفتيات ، على حين توسط الأستاذ الجانب الآخر ، وهو يقول معلقا على نظام الجلوس :

ــ كنا نود أن تكون الجلسة اكثر اختلاطا ، ولكننا راعينا الآداب الشرقية ، أليس كذلك ؟ .

فأجابه طالب بلا تردد :

ــ للأسف هذا ما لاحظناه يا سيدى !

وصب الخدم الشاى واللبن وبدأت المأدبة . لاحظ أحمد اختلاسا ان علوية صبرى كانت أبرع من زميلاتها ممارسة لآداب المائدة واقلهن ارتباكا ، بدت آلفة للحياة الاجتماعية ، كأنها فى بيتها ، وشعر بأن ملاحظة تناولها للحلوى الذ من الحلوى نفسها . هذه صديقته العزيزة التى تبادله الصداقة والمودة دون أن تشجعه على عبور حدودهما ، وقال لنفسه : ان لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على ! . وعلا صوت لادى فورستر وهى تقول :

ــ ارجو الا تؤثر قيود الحرب فى حرية تناولكم للحلوى ..

فعلق طالب على قولها قائلا :

ـ من المصادفات السعيدة أن الرقابة لم تفرض على الشاى بعد!

ومال مستر فورستر على اذن أحمد ـ وكان يجلس الى يساره ـ وسأله :

ـ كيف تمضى العطلة ؟ ، أعنى ماذا تقرأ ؟

ـ كثيرا فى الاقتصاد وقليلا فى السياسة ، وأكتب بعض المقالات فى المجلات .

ـ أنصحك بأن تقدم فى الماجستير بعد الليسانس .

فقال أحمد بعد الانتهاء مما فى فيه :

ـ ربما فيما بعد ، سأبدأ بالعمل فى الصحافة ، هذه خطتى من قديم .

ـ حسن !

الصديقة العزيزة تحادث لادى فورستر بطلاقة ، ما أسرع ما أتقنت الانجليزية ، والورد والأزهار تنضح بالحمرة والألوان كما ينضح القلب بالحب ، فى عالم الحرية يزدهر الحب كالأزهار ، الحب لا يكون عاطفة صحيحة طبيعية الا فى بلد شيوعى . وقال مستر فورستر :

ـ من المؤسف اننى لم أستكمل دراستى للغة العربية ، كنت أود أن أقرأ مجنون ليلى دون مساعدة أحد منكم !

ـ المؤسف أنك ستنقطع عن دراستها . .

ـ الا اذا سمحت الظروف فيما بعد . .

« ربما وجدت نفسك مضطرا الى تعلم الألمانية ، ألا يكون مضحكا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له ؟ ، فى أخلاق الانجليز الشخصية فتنة ، أما فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له ، عما قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل فى

مكان واحد لأول مرة ، واذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على ! » . وسأل أستاذه :

ـ وماذا أنت فاعل عقب وصولك الى لندن ؟

ـ دعيت للعمل فى الاذاعة .

ـ اذن لن ينقطع عنا صوتك .

« مجاملة تغتفر فى هذا المجلس الذم تزينه صديقتى ، اننا لا نسمع هنا الا الاذاعة الألمانية ، شعبنا يحب الألمان ولو على سبيل الكراهية للانجليز ، والاســـتعمار ، الاستعمار أعلى مراحـل الرأسمالية ، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفا جـديرا بالتأمل ، نبرره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حبنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه ، والمأمول ان تقضى الحرب على النازية والاستعمار معا ، هنالك أخلص للحب وحده » .

ثم عادوا الى مجلسهم بالفراندا التى أضـيئت مصابيحها ، ولم تلبث لادى فورستر أن قالت :

ـ اليكم البيانو فليتفضل أحدكم باسماعنا لحنا .

فرجاها طالب قائلا :

ـ تفضلى أنت باسماعنا .

فنهضت فى رشاقة الشباب الذى جاوزته بأعوام ، ثم جلست الى البيانو وفتحت النوطة وراحت تعـزف لحنا . لم يكن أحد منهم ذا المام بالموسيقى الغربية او تذوق لها ، ولكنهم أنصتوا فى اهتمام بدافع الأدب والمجاملة . وحاول أحمد أن يستمد من حبه قوة سحرية يفتح بها مغاليق اللحن ، ولكنه نسى اللحن فى استراق النظر الى وجه فتاته ، والتقت عيناهما مرة ، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين ، وفى نشوة الفرحة قال لنفسه : « أجل ، اذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على » . وعلى إثر فراغ لادى فورستر من عزفها ، عزف طالب لحنا شرقيا ، ثم خلصوا للسمر

وقتا غير قصير . وحوالى الساعة الثامنة مساء ودعوا أستاذهم وأخذوا فى الانصراف . ولبد أحمد عند منعرج طريق فى ليل بالغ فى جماله وحنانه ، تحت مظلة من الأشجار الباسقة ، حتى رآها قادمة وحيدة فى طريقها الى مسكنها ، فبرز لها من المنعطف قاطعا عليها الطريق ، فتوقفت فى دهش وقالت :

ــ ألم تذهب معهم ؟.

فنفخ فيما يشبه التنهد ليخفف صدره من جيشانه ، وقال بهدوء :

ــ تخلفت عن القافلة لأقابلك !

ــ ترى ماذا يظنون بتخلفك ؟

فقال باستهانة :

ــ هذا شأنهم !

وسارت فى بطء فسار الى جانبها ، ثم تمخض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول :

ــ أريد أن أسألك قبل عودتى : هل تسمحين لى بالتقدم لخطبتك ؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة ، ولكن لم يند عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله ، وكان الطريق خاليا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء الأزرق ، فعاد يسائلها :

ــ اتسمحين لى ؟

فقالت بصوت خافت لم يخل من عتاب :

ــ هذه طريقتك فى الكلام ، ويالها من طريقة ، الواقع أنك أذهلتنى !

فضحك ضحكة خفيفة ، وقال :

ــ أعتذر عن ذلك ، وان كنت أظن أن تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولى مفاجأة تذهل .

ـ تعنى صداقتنا وتعاوننا الثقافى ؟

فلم يرتح لقولها ، ولكنه قال :

ـ أعنى عاطفتى غير الخفيـة التى اتخذت شكل الصـداقة والتعاون الثقافى كما قلت !

فتساءلت فى صوت باسم غير خال من اضطراب :

ـ عاطفتك الخفية ؟!

فقال بعناد واخلاص :

ـ أعنى حبى ! ، الحب لا يخفى ، اننا عادة لا نتكلم لنعلنه ، وانما لنسعد بسماع اعلاننا له ..

فقالت مماطلة حتى تسترد هدوءها :

ـ الأمر كله مفاجأة لى ..

ـ يؤسفنى أن أسمع هذا ..

ـ لماذا تأسف ؟ ، الواقع انى لا أدرى ماذا أقول ..

ضاحكا :

ـ قولى « أسمح لك » ودعى الباقى لى ..

ـ ولكن ، ولكن ... أنا لا أعـرف شـيئا ، معـذرة ، كنا أصدقاء حقا ولكنك لم تحدثنى عن ... ، أعنى لم تسمح الظروف بأن تحدثنى عن شخصك ؟

ـ ألم تعرفينى ؟

ـ عرفتك طبعا ، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغى أن تعرف ..

أتعنى هذه الأمور التقليدية ؟ ، يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحب ! . وشعر بامتعاض ، بيد انه ازداد عنادا فقال :

ـ سيجىء كل شىء فى حينه ..

فتساءلت ، وكانت قد ملكت زمام نفسها :

ـ أليس الآن حينه ؟

فابتسم ابتسامة فاترة ، وقال :

ـ لك حق ، تعنين المستقبل ؟

ـ طبعا !

وأحنقته « طبعا » . أمل أن يسمع أغنية فسمع محاضرة معادة !. ولكن يجب ألا تخونه ثقته فى نفسه مهما يكن الأمر . العزيزة الباردة لا تدرى كم يسعده اسعادها !

ـ سأجد بعد تخرجى عملا . .

ثم بعد لحظات من الصمت :

ـ وسيكون لى يوما دخل لا بأس به !

فتمتمت فى حياء :

ـ كلام عام . .

فقال وهو يدارى ألمه بالهدوء :

ـ سيكون المرتب فى الحدود المعروفة ، أما الدخل فحوالى عشرة جنيهات . .

وساد الصمت . لعلها تزن الأمور وتفكر . هذا هو التفسير المادى للحب !. كان يحلم بالجنون العذب ولكن أين منه هذا ؟. هذا البلد عجيب يندفع فى السياسة وراء العاطفة ، ويتبع فى الحب دقة المحاسبين . وأخيرا جاء الصوت الرقيق قائلا :

ـ لندع الدخل جانبا ، فلا يجمل أن ترتب حياتك على أساس تقدير اختفاء الأعزة من حياتك . .

ـ أردت أن أقول لك ان والدى من ذوى الأملاك . .

فقالت بجهد برر فترة التردد التى سبقته :

ـ فلنكن واقعيين . .

ـ قلت انى سأجد عملا ، وستجدين من ناحيتك عملا أيضا . .

فضحكت ضحكة غريبة :

ـ كلا لن أشـتغل ، لم اذهب الى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات ..

ـ ليس العمل عيبا ..

ـ طبعا ، ولكن والدى . ، الواقع اننا جميعا متفقون على هذا ، لن أشتغل .

وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث ، فقال :

ـ ليكن ، أشتغل أنا . . .

فقالت بصوت كأنما تعمدت أن يكون رقيقا فوق العادة :

ـ أستاذ أحمد ، فلنؤجل الحديث ، أعطنى مهلة للتفكير .

فضحك ضحكة فاترة ، وقال :

ـ قلبنا الأمر على كافة وجوهه ، ولكنك فى حاجة الى مهلة لتدبرى الرفض ؟

فقالت بصوت حيى :

ـ ينبغى أن أحدث والدى .

ـ هذا بدهى ، ولكن كان من الممكن أن ننتهى الى رأى قبل ذلك ؟

ـ مهلة ولو قصيرة ..

ـ نحن فى يونيه ، وستسافرين الى المصيف ، ولن نلتقى الا فى أكتوبر القادم فى الكلية ؟

فقالت باصرار :

ـ لابد من مهلة للتفكير والتشاور .

ـ انك لا تريدين أن تتكلمى .

واذا بها تتوقف عن المسير فجأة ، وتقول فى دأب وعزم معا :

ـ أستاذ أحمد ، انك تأبى الا أن تحملنى على الكلام ، أرجو أن تتقبل كلامى بصدر سمح ، لقد فكرت فى موضوع الزواج من قبل كثيرا ، لا بالقياس اليك ولكن بصفة عامة ، وانتهيت منه

ـ ووافقني على ذلك والدى ـ بأن حياتى لن تستقيم ، واننى لن أحافظ على مستواى ، الا اذا تهيأ لى ما لا يقل عن خمسين جنيها شهريا ..

وتجرع خيبة مريرة لم يتوقع ـ على أسوأ الفروض ـ أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة . وتساءل :

ـ وهل يملك موظف ـ أعنى فى سن الزواج ـ هذا المرتب الضخم ؟

ولكنها لم تنبس ، فعاد يقول :

ـ انك تريدين زوجا ثريا !

ـ آسفة جدا ، ولكنك أجبرتنى على مصارحتك برأيى ..

فقال بصوت غليظ :

ـ هذا أفضل على أى حال .

فعادت تغمغم :

ـ آسفة ..

وثار غضبه ، ولكنه بذل جهدا صادقا كيلا يخرج عن حدود الأدب ، ثم وجد رغبة لا تقاوم فى أن يصارحها برأيه فتساءل :

ـ أتسمحين لى بأن أصارحك برأيى ؟

فبادرته قائلة :

ـ كلا ، انى أعرف الكثير عن آرائك ، وأرجو أن نبقى صديقين كما كنا !

ورثى رغم غضبه لحالها ، هـذه هى الحقيقة العارية قبل أن يلطفها الحب ، التى تهرب مع خادمها امرأة طبيعيـة وأن عدت ـ بعين التقاليد ـ شـاذة .. فى المجتمع المختـل يبدو الصحيح مريضا والمريض صحيحا ، انه غاضب ولكن تعاسـته أكبر من غضبه ، انها على أى حال تحدس رأيه وفى هذا عزاء ، ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده ، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول :

— قلت انك لم تدخلى الجامعة لتتوظفى ، قـول جميل فى ذاته ، ولكن الى اى مدى انتفعت بالجامعة ؟

وارتفع ذقنها كالمتسائلة ، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

— معذرة عن سخافتى ، لعل المسألة أنك لم تحبى بعد ، مع السلامة .

ودار على عقبيه ، ثم ولى مسرعا .

٣٠

قال اسماعيل لطيف :

— لعلى اخطأت بحمل زوجى الى القاهرة كى تلد فيها ، كل ليلة تنطلق صـفارة الانذار ، أما طنطا فلم تكد تعـرف شيئا عن أهوال هذه الحرب .

فقال كمال :

— انها غارات رمزية ، لو ارادوا بنا شرا ما منعتهم قوة .

فضحك رياض قلدس ، وقال مخاطبا اسماعيـل لطيف ، وكانت هذه ثانى مقابلة بينهما فى مدى تعارف عام :

— أنت تخاطب رجلا لا يشعر بمسئولية الزوج !.

فسأله اسماعيل متهكما :

— وهل تشعر بها أنت ؟.

— حقا أنا أعزب مثله ، غير أنى لست عدوا للزواج ..

كانوا يسيرون فى شارع فؤاد الأول ، فى مطلع الليل ، فى ظلام لم تخففه الا الأضـواء الضئيلة التى تتسرب من أبواب المحال العامة . وكان الشارع رغم ذلك مكتظا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم . وكان الخـريف يبعث أنفاسا

رطيبة ، ولكن أكثر الناس مضوا فى الملابس الصيفية . ونظر رياض قلدس الى جماعة من الجنود الهنود وقال :

ـ من المحزن أن يبتعد الانسان عن وطنه هذه المسافة المديدة ، ليقتل فى سبيل غيره !.

فقال اسماعيل لطيف :

ـ ترى كيف يتأتى لهؤلاء التعساء أن يضحكوا !.

فقال كمال ممتعضا :

ـ كما نضحك نحن فى هذه الدنيا الغريبة ، إلخمر والمخدرات واليأس .

فضحك رياض قلدس قائلا :

ـ انك تعانى أزمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الأركان ، عبث وقبض الريح ، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، انى أرثى لك .

فقال اسماعيل لطيف ببساطة :

ـ تزوج ، انى مررت بهذا الملل قبيل زواجى ..

فقال رياض قلدس :

ـ قل له ! .

فقال كمال ، وكأنما يخاطب نفسه :

ـ الزواج هو التسليم الأخير فى هذه المعركة الفاشلة ..

« أخطأ اسماعيل لطيف فى المقارنة ، انه حيوان مهذب ، ولكن مهلا لعله الغرور ، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تل من الخيبة والفشل ، اسماعيل لا يدرى شيئا عن دنيا الفكر ، ولكن السعادة المستمدة من العمل والزوجة والأولاد ، أليست سعادة جديرة بأن تسخر من احتقارك لها ؟ » قال رياض :

ـ اذا قررت يوما أن أؤلف رواية ، فستكون أحد أبطالها !.

فاتجه كمال نحوه فى اهتمام صبيانى ، وسأله :

ـ ماذا ستصنع منى ؟.

ـ لا ادرى ، ولكن ينبغى أن توطن نفســك على الا تزعل ، فان كثيرين ممن قرأوا أنفسهم فى أقاصيصى قد زعلوا . .

ـ لماذا ؟. .

ـ لعله لأن لكل انسان فكرة عن شخصه من خلقه هو ، فاذا جرده الروائى منها أبى وغضب !. .

فتساءل كمال فى قلق :

ـ ألديك فكرة عنى غير ما تعلن ؟.

فبادره فى توكيد قائلا :

ـ كلا ، ولكن الروائى قد يبدأ من شخص ثم ينســاه كلية وهو بصدد خلق نموذج بشرى جديد ، لا صلة بينه وبين الأصل الا الايحاء ، وانك توحى الى بشخصية الرجل الشرقى الحائر بين الشرق والغرب ، الذى دار حول نفسه كثيرا حتى أصابه الدوار .

«يتكلم عن الشرق والغرب ، ولكن من أين له أن يعرف عايدة؟. قد تكون التعاسة متعددة الجوانب » .

وقال اسماعيل لطيف فى بساطة مرة أخرى :

ـ طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب ، الكتب فى نظرى أساس بلواك ، لماذا لا تجرب الحياة الطبيعية ؟.

وبلغوا فى مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا اليه ، وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الانجليز فتفادوا منها ، وقال اسماعيل لطيف :

ـ الى جهنم ، من أين لهم هذا الأمل ؟!. ترى هل يصدقون أنفسهم ؟.

فقال كمال :

ـ يخيل الى أن نتيجة الحرب قد تقــررت ، غايتها الربيع القادم . . .

فقال رياض قلدس ممتعضا :

ـ النازية حركة رجعية غير انسانية ، وسوف يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية ...

فقال اسماعيل :

ـ ليكن ما يكون ، المهم أن نرى الانجليز فى نفس الموضع الذى فرضوه على العالم الضعيف ! .

وقال كمال :

ـ ليس الألمان بخير من الانجليز ..

فقال رياض قلدس :

ـ ولكننا انتهينا مع الانجليز الى بر ، والاستعمار البريطانى يوغل اليوم فى الشيخوخة ، ولعله قد تلطف ببعض المبادىء الانسانية ، ولكننا سنتعامل غدا مع استعمار فتى مغرور شره غنى حرب ، فما العمل ؟ .

فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة ، وقال :

ـ نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه حكومة واحدة عادلة !

ـ سنحتاج حتما الى أكثر من كأسين ..

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من قبل ، لعلها من الحانات « الشيطانى » التى تخلقها ظروف الحرب بين يوم وليلة. وحانت من كمال نظرة الى داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقى تقوم على ادارة الحانة ، ثم جمدت قدماه فلم يتحرك من موقفه ، أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرك حتى اضطر صاحباه أن يتوقفا عن السير وينظرا الى حيث ينظر . مريم ! . لم تكن الا مريم دون غيرها ، مريم الزوجة الثانية لياسين ، مريم جارة العمر ، فى هذه الحانة بعد اختفاء طويل ، مريم التى ظن بها أنها لحقت بأمها ! ..

ـ أتريد أن نجلس ها هنا ؟ . هلم فليس بالداخل الا أربعة جنود ..

وتردد مليا ، ولكن شجاعته لم تواته فقال ولما يفق من ذهوله :

ـ كلا ...

والقى نظرة على المراة التى ذكرته بأمها فى أيامها الأخيرة ، ثم انطلقوا فى طريقهم . متى رآها آخر مرة ؟ . منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاما على الأقل ، أنها معلم من معالم الماضى الذى لا ينسى ، ماضيه .. تاريخه .. ماهيته .. كل أولئك شىء واحد ، وقد استقبلته فى قصر الشوق فى آخر زيارة لهذا البيت قبل طلاقها ، وما زال يذكر كيف شكت اليه اعوجاج أخيه وارتداده الى حياة العربدة والمجون ، شكوى لم يكن يقدر عواقبها وقد انتهت بها الى الدور الذى تلعبه فى هذه الحانة الشيطانى ، ومن قبل ذلك كانت كريمة السيد محمد رضوان ، وكانت صديقته وملهمة أحلامه فى الصبا الأول ، فى ذلك الزمان الذى شهد البيت القديم عامرا بالأفراح والسلام ، كانت مريم وردة وكانت عائشة وردة ولكن الزمن عدو لدود للورود ، وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها فى بيت من هذه البيوت كما عثر بالست جليلة ، ولو وقع هذا لكان وجد نفسه فى مأزق أى مأزق ، هكذا بدأت مريم بالانجليز وانتهت بالانجليز ..

ـ أتعرف هذه المرأة ؟ .

ـ نعم ...

ـ كيف ؟ .

ـ امرأة من هاتيك النسوة ، ولعلها نسيتنى ..

ـ أوه ، الحانات ملأى بهن ، مومسات قديمات ، وخادمات متمردات ، ومن كل لون ..

ـ نعم ...

— ولِم لم تدخل فلعلها كانت ترحب بنا اكراما لك .. ؟

— لم تعد فى طور الشباب ولدينا أماكن أفضل .

تقدم به العمر وهو لا يدرى ، منتصف الحلقة الرابعة ، وكأنما قد استهلك نصيبه من السعادة ، واذا قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيهما أشد ، ولكن ماذا يهم العمر وقد ضاق بالحياة ؟ ، حقا ان الموت لذة الحياة . ولكن ما هذا الصوت ؟.

— غارة ! ..

— أين نذهب ؟ .

— الى مخبأ قهوة ركس .

لم يجدوا فى المخبأ مكانا خاليا للجلوس فوقفوا ، وكان ثمة أفندية وخواجات وسيدات وأطفال ، وكان الكلام يدور بشتى اللغات واللهجات . وأصوات رجال المقاومة المدنية فى الخارج تهتف « اطفىء النور » . وبدا وجه رياض شاحبا ، وكان يمقت دوى المدافع ، فقال له كمال مداعبا :

— قد لا تتمكن من العبث بشخصى فى روايتك ..

فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يومىء الى الناس :

— البشرية ممثلة بنسبة عادلة فى هذا المخبأ ..

فقال كمال متهكما :

— لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على الخوف ! .

وهتف اسماعيل متنرفزا :

— زمان زوجى نازلة على السلم تتلمس طريقها فى الظلام ، انى أفكر جديا فى العودة الى طنطا غدا ..

— ان عشنا ! .

— مساكين حقا أهل لندن ! .

— لكنهم أصل البلاء كله ..

وكان وجه رياض قلدس يزداد شحوبا ، ولكنه دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال :

ـ سمعتك تتساءل مرة أين محطة الموت لأغادر مركبة الحياة المملة ، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة الآن ؟ .

فابتسم كمال ، وكان يرهف السمع فى قلق متزايد متوقعا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصك الآذان صكا ، وأجاب :

ـ كلا . . (ثم كالمتسائل) . . لعله الخوف من الألم ؟ .

ـ أم ثمة أمل غامض فى الحياة ما زال يضطرب فى أعماقك ؟ .

لماذا لم ينتحر ؟ . ولم يبدو ظاهر حياته كأنما يمتلىء حماسا وايمانا ؟ . طالما نازعته النفس الى النقيضين : وكر الشهوات والتصوف ، لكنه لم يكن ليطيق حياة خالصة للدعة والشهوات ، ومن ناحية أخرى كان ثمة شيء فى أعماقه ينفر من فكرة السلبية والهروب ، ولعله ـ هذا الشيء ـ الذى حال بينه وبين الانتحار ، وفى ذات الوقت فان استمساكه يحبل الحياة المضطرب فى يديه مناقض لصميم شكه القاتل ، والخلاصة فى كلمتين : حيرة وعذاب !.

وفجأة انطلقت المدافع كالمطر ، لا تتيح للصدر متنفسا ، وزاغت الأبصار ، وضلت الألسن ، ولكن الضرب لم يستمر اكثر من دقيقتين بالحساب الزمنى . وتوقع الناس عودة بغيضة الى الدوى المرعب ، واستبد الفزع بالنفوس ، غير أن الصمت ساد وعمق . وتساءل اسماعيل لطيف :

ـ انى أتخيل حال زوجى الآن ، ترى متى تنتهى الغارة ؟ .

فتساءل رياض قلدس :

ـ متى تنتهى الحرب ؟ .

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فند عن المخبأ تنهد عميق . وقال كمال :

ـ ليست الا مداعبة ايطالية ! .

وغادروا المخبأ فى الظلام كالخفافيش ، ولفظت الأبواب أشباحا وراء أشباح ، ثم تساقط الضوء الباهت متتابعا من النوافذ ، وملأت الضجة الأركان ...

ـ يبدو أن الحياة ـ فى هذه اللحظة السريعة المعتمة ـ ذكرت كل غافل بمدى قيمتها الذى لا يقاس به شيء فى الوجود ...

٣١

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور . انفرط نظامه وتقوض مجلسه ، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل . ففى نصف النهار الأول يغيب كمال فى المدرسة ، وتمضى امينة الى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة ، وتنزل أم حنفى الى حجرة الفرن ، ويتمدد السيد على الكنبة فى حجرته أو يجلس على كرسى فى المشربية ، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها ، ويظل الراديو فى الصالة يهتف وحده . وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفى فى الصالة ، وتلبث عائشة فى حجرتها ، أو تمكث معهما بعض الوقت ثم تذهب ، أما السيد فلا يغادر حجرته ، وكمال ان عاد من الخارج مبكراً فلكى يقبع فى الدور الأعلى فى مكتبه . وكان اعتكاف السيد أول الأمر محزنا ، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين ، وكان حزن عائشة مفجعا ثم صار عادة عندها وعند الآخرين ، وما زالت أمينة أول من يستيقظ ، فتوقظ بدورها أم حنفى ، ثم تتوضأ وتصلى . وتنهض أم حنفى ـ وكانت نسبيا خير الجميع صحة ـ فتقصد حجرة الفرن ، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقداح

القهوة تباعا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى اذا دعيت للفطور تناولت لقمات . وقد اضمحلت أيما اضمحلال ، انقلبت هيكلا عظميا كسى جلدا باهتا ، وأخذ شعرها فى السقوط حتى اضطرت الى اللجوء الى الطبيب قبل أن يدركها الصلع ، وتكالبت عليها العلل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلص من أسنانها ، فلم يبق من شخصها القديم الا الاسم . ولم تكن أقلعت عن عادة النظر فى المرآة ، لا لتأخذ زينة ، ولكن بحكم العادة من ناحية ، وللامعان فى الحزن من ناحية أخرى . وربما بدت أحيانا وكأنها اذعنت للمقادير فى استسلام لطيف ، فتطيل من جلستها مع أمها ، وتشارك فى الحديث الدائر ، وربما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة ، أو تزور والدها لتسأل عن صحته ، أو تتمشى فى حديقة السطح وترمى بالحب الى الدجاج ، هنالك تقول أمها برجاء :

ــ كم أسعدت قلبى يا عائشة ، ليتنى أراك دائما على هذه الحال .

على حين تجفف أم حنفى عينيها قائلة :

ــ فلنذهب الى حجرة الفرن لنصنع شيئا جميلا !

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمها على صوت بكاء آت من حجرتها ، فهرعت اليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم ، فوجدتها جالسة فى الظلام تنتحب ، ولما شعرت بدنو أمها تعلقت بها هاتفة :

ــ لو تركت لى ما كان فى بطنها ! ، ظلا منها ! ، يداى فارغتان ، والدنيا لا شىء فيها . .

فاحتضنتها أمها وهى تقول :

ــ انى أعلم الناس بحزنك ، حزن يجل عن العزاء ، ليتنى كنت فداهم ، ولكن لله جل وعلا حكمته ، وما جدوى الحزن يا مسكينة . . ؟ !

ــ كلما نمت حلمت بهم ، أو حلمت بالحياة الأولى ..

ــ وحدى الله ، ذقت ما تعانين طويلا ، انسيت فهمى ؟ ، ولكن المؤمن المصاب مطالب بالصبر ، أين ايمانك ؟

فهتفت فى امتعاض :

ــ ايمانى !

ــ نعم ، اذكرى ايمانك ، وتوسلى الى ربك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدرين ..

ــ الرحمة ! ، أين الرحمة أين ؟

ــ رحمته وسعت كل شىء ، طاوعينى وتعالى معى الى الحسين ، ضعى يدك على الضريح واتلى الفاتحة تتحول نارك الى برد وسلام كنار سيدنا ابراهيم ..

ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطرابا ، فحينا تتردد على الأطباء فى مثابرة وانتظام حتى يظن بها العودة الى الاستمساك بأهداب الحياة ، وحينا تهمل نفسها وتزدرى كافة النصائح لدرجة الانتحار . أما زيارة القرافة فهى التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة واحدة ، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين . ويوم جاءها ابراهيم شوكت لاتمام اجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأمها :

ــ هنئينى على ميراثى من نعيمة ..

وكان كمال يمر بها كلما آنس منها استقرارا ، فيجالسها مليا ملاطفا متوددا . كان يتأملها طويلا صامتا ، ويتخيل محزونا الصورة الذاهبة التى أبدع الله صنعها ، ثم يتفحص ما آلت اليه . لم تكن هزيلة فحسب ، ولا مريضة فحسب ، ولكن محزونة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . ولم يغب عنه ما بينهما من أوجه

الشبه فى الحظ ، فهى قد فقدت ذريتها وهو قد فقـد آماله ، وانتهت الى لا شيء كما انتهى الى لا شيء ، بل كان أبناؤها لحما ودما أما آماله فكانت كذبا وأوهاما ! . وقال لهم يوما :

ـ أليس من الأفضل أن تذهبوا الى المخبأ اذا أطلقت صفارة الانذار ؟

فقالت عائشة :

ـ لن أغادر حجرتى . .

وقالت الأم :

ـ انها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ . .

أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول :

ـ لو بى قدرة على الذهاب آلى المخبأ لذهبت الى الجامع او الى بيت محمد عفت . .

ويوما جاءت عائشة من السطح مهرولة وهى تلهث وقالت لأمهـا :

ـ حدث شيء عجيب !

فنظرت اليها أمها فى استطلاع مشوب بالرجاء ، فعادت تقول وهى ما تزال تلهث :

ـ كنت فى السطح أراقب غروب الشمس ، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلهـا من قبل ، وفجأة فتحت فى السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتى « يا رب ! » .

اتسعت عينا الأم فى تساؤل ، أهى الرحمة المنشودة أم هاوية جديدة من الأحزان ؟ . وتمتمت :

ـ لعلها رحمة ربنا يا ابنتى . .

فقالت ووجهها يتهلل بشرا :

ـ نعم ، صحت يا رب ، وكان النور يملأ الدنيا . .

وراحوا جميعا يفكرون فى الأمر ويراقبون الحال فى قلق بالغ .

اما عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقبة النور أن يومض مرة أخرى ، حتى قال كمال لنفسه « ترى أهى النهاية التى يهون الى جانبها الموت ؟ » ، ولكن من حسن الحظ — حظ الجميع — أنها تناست الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره . ثم لم تزل توغل فى دنيا خاصة خلقتها لنفسها ، وعاشت فيها وحدها ، وحدها سواء أكانت منفردة فى حجرتها أو جالسة بينهم ، الا ساعات متباعدة تثوب فيها اليهم كالعائد من سفر ، ثم لا تلبث أن تواصل الرحيل . والتصقت بها عادة جديدة هى محادثة نفسها ، خاصة حين انفرادها ، وشد ما أثارت بذلك القلق ، غير أنها كانت تخاطب أمواتا وهى مدركة لحال موتهم ، ولم تتخيل أوهاما أو أشباحا ، وفى ذلك كان عزاء المحيطين بها . . .

٣٢

ما أقسى البرد هذا الشتاء ! ، يذكر بشتاء قديم ظل الناس يؤرخون به جيلا ، شتاء أى عام يا ترى ؟ ، رباه أين الذاكرة التى تعنى ذلك أين ؟ ، غير أن القلب العجوز يحن اليه فى مجهوله ، فهو جزء من الماضى الذى تهيج ذكراه الدموع فى مكامنها ، الماضى الذى يعيش فى خواطره فى هالة من الذكريات السعيدة ، الماضى الذى كان يستيقظ فيه مبكرا فيستحم تحت الدش غير مبال برد الشتاء ثم يملأ بطنه وينطلق الى دنيا الناس ، دنيا الحركة والحرية التى لايعرف اليوم عنها شيئا اللهم الا مايجود به الرواة وكأنهم يحدثون عن عالم فى أقصى الأرض . كانت له الحرية والقدرة على أن يجلس على الكنبة فى الحجرة أو على الكرسى فى المشربية وكان مع ذلك يضيق بسجن البيت ، وكان يذهب حين الحاجة الى الحمام أو يغير

ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت ، وكان له يوم فى الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكئا على عصاه أو راكبا عربة فيزور الحسين أو بيت احد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت . أما اليوم فلم يعد يسعه أن يغادر الفراش ، ولم تعد حدود عالمه تجاوز اطراف هذه الحشية ، حتى الحمام يجىء اليه ولا يذهب هو اليه ، قذارة لم تكن فى الحسبان ، حتى استقر الامتعاض على شفتيه ، وأسكنت المرارة فى لعابه ، على هذه الحشية يرقد نهارا وينام ليلا ويتناول طعامه ويقضى حاجته ، وهو من كان يضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيب بين يديه ، وفى هذا البيت الذى استكان عمره لارادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى الا نظرات الرثاء او يرجو فيعاتب كالأطفال . وذهب الأحباب فى فترات متقاربة من الزمن كأنهم كانوا على ميعاد ، ذهبوا وتركوه وحيدا . عليك رحمة الله يا محمد عفت ، كان آخر العهد به سهرة من ليالى رمضان فى السلاملك المطل على الحديقة ، ثم ودعه ومضى وضحكته العالية توصله الى الباب ، وما كاد يأوى الى حجرته حتى طرق الباب طارق وهرع اليه رضوان وهو يقول « مات جدى يا جدى » ، يا سبحان الله .. متى ؟.. وكيف ؟.. ألم يضاحكنا منذ دقائق ؟ ، ولكنه سقط على وجهه وهو فى طريقه الى مخدعه ، هكذا انطوى حبيب العمر . وعلى عبد الرحيم الذى احتضر ثلاثة أيام كاملة ، فى سعال حاد متقطع حتى فزعنا الى الله أن يحسن خاتمته ويريحه من الألم ، واختفى من دنياى أليف الروح على عبد الرحيم . وقد ودع هذين الحبيبين اما ابراهيم الفار فلم يودعه ، كان اشتداد المرض قد أقعده فى فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه اليه خادمه ، وحتى الجنازة لم يشيعها فشيعها عنه ياسين وكمال ، فالى رحمة الله يا ألطف الناس طرا . ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحمزاوى وعشرات من المعارف والأصحاب ، تركوه

وحيدا كأنه لم يعرف من الناس أحدا ، لازائر له ولا عائد ، وجنازته لن يشيعها صديق . حتى الصلاة حيل بينه وبينها ، وهل يتمتع بالطهر الا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر الا مرة كل أشهر ؟ ، فحرم من الصلاة وهو أشد ما يكون حاجة الى مناجاة الرحمن فى هذه الوحدة الموحشة . هكذا تمضى الأيام ، الراديو يتكلم وهو يسمع ، وأمينة تذهب وتجىء ، وشد ما ركبها الوهن ، غير أنها لم تعتد الشكوى ، آنها ممرضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غدا الى من يمرضها ، وهى كل ما بقى له ، أما ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعه ثم يذهبان ، ود لو يفارقاه ، ولكنها أمنية لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها ، أمينة وحدها التى لا تمله ، واذا ذهبت لزيارة الحسين فلكى تدعو له ، والعالم بعد ذلك فراغ . وان يوم زيارة خديجة له ليوم يستحق الانتظار ، تجىء وفى صحبتها ابراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد ، فتمتلىء الحجرة بالأحياء وتتبدد وحشتها ، وقليلا ما يتكلم هو أما هم فيتكلمون كثيرا ، ومرة خاطبهم ابراهيم قائلا « أريحوا السيد من ثرثرتكم » فقال له معاتبا : «دعهم يتكلمون . . أريد أن أسمعهم ؟» ، ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها ، وكان يعلم بأنها تود لو تسهر على راحته بنفسها ، وكان يطالع فى عينيها حنانا ما وراءه حنان . ويوما سأل ياسين فى شوق واستطلاع باسما :

ـــ أين تمضى سهراتك ؟

فقال فى حياء :

اليوم الانجليز فى كل مكان كأيام زمان .

أيام زمان ! ، ايام القوة والبأس ، والضحك الذى تهتز له الجدران ، وسهرات الغورية والجمالية ، والناس الذين لم يبق منهم الا أسماء ، زبيدة وجليلة وهنية . ترى ألا تذكر أمك يا ياسين ؟ ،

وها هى زنوبة وكريمة يجلسان الى جانب والدهما ، ودواما سنطلب الرحمة والغفران .

ـ من بقى من معارفنا القدامى فى وزارتك يا ياسين ؟

ـ أحيلوا جميعا الى المعاش ، ولم أعد أدرى عنهم شيئا !

ولا هم يدرون عنا شيئا ، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف ، ولكن ما اجمل كريمة ! ، فاقت أمها فى زمانها ، ومع ذلك لم تعد الرابعة عشرة ، ونعيمة ألم تكن آية فى الجمال !.

ـ ياسين ان استطعت أن تقنع عائشة بزيارتكم فافعل ، انتشلوها من وحدتها فانى أخاف عليها منها . .

فقالت زنوبة :

ـ طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنها . . . ، كان الله فى عونها !. .

ولاحت فى عينى الرجل نظرة قاتمة . ثم اذا به يسأل ياسين :

ـ ألا تصادف فى طريقك الشيخ متولى عبد الصمد ؟

فقال ياسين باسما :

ـ أحيانا ، انه لا يكاد يعرف أحدا ، ولكنه ما زال يسير على قدمين قويتين !

يا للرجل ! ، ألم تنازعه نفسه مرة الى زيارتى ؟ ، أم نسينى كما نسى أبنائى من قبل ؟!.

ولما ذهب الأصدقاء اتخذ الرجل من كمال صديقا ، ولعله فاجأه بصداقته . لم يعد الأب الذى عهده ، وغدا صديقا يناجيه ويتشوف الى مناجاته . وكان يقول عنه آسفا : « أعزب فى الرابعة والثلاثين من عمره ، يعيش أكثر حياته فى حجرة مكتبه ، كان الله فى عونه » ، ولم يكن يعد نفسه مسئولا عما صار اليه أمره ، فقد أبى من أول الأمر الا أن يصنع نفسه بنفسه ، وانتهى به الحال الى أن يكون مدرسا أعزب « قعيدا متطوعا » فى حجرته . وكان

يتجنب أن يثقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس الخصوصية ، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدخره من النقود حتى الرمق الأخير كيلا يكون يوما عالة عليه . ويوما سأله :

ــ هل تعجبك هذه الأيام ؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة ، وتردد فى الجواب ، فاستطرد الرجل قائلا :

ــ الأيام الحقيقية كانت أيامنا ! ، كانت يسرا ورغدا ، وصحة وعافية ، شهدنا سعد زغلول ، وسمعنا سى عبده ، ماذا فى أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذا بتداعى معانى الحديث فحسب !.

ــ لكل زمان محاسنه ومعايبه . .

فهز الرجل رأسه المسند الى مخدة مكسورة وراء ظهره وقال :

ــ كلام يقال ليس الا . . .

ثم بعد فترة صمت ودون تمهيد :

ــ عجزى عن الصلاة يحز فى نفسى حزا ، فالعبادة عزاء الوحدة، ومع ذلك تمر بى أوقات غريبة أنسى فيها كافة وجوه الحرمان التى أعانيها من مأكل ومشرب وحرية وعافية ، تصفو نفسى صفاء عجيبا حتى يخيل الى أنى متصل بالسماوات ، وأن ثمة سعادة مجهولة تزرى بالحياة وما فيها . . .

فتمتم كمال :

ــ ربنا يمد فى عمرك ويرد اليك العافية . .

فهز رأسه مرة أخرى فى استسلام ، وقال :

ــ هذه ساعة طيبة ، لا ألم فى الصدر ، ولا ضيق فى التنفس ، وورم ساقى آخذ فى الزوال ، وموعدنا فى الراديو مع ما يطلبه المستمعون !.

واذا بصوت أمينة يقول :

ــ سيدى بخير ؟

- الحمد لله .

- هل آتى بالعشاء ؟

- العشاء ؟! ، أما زلت تسمينه العشاء ؟ ! ، هاتى سلطانية اللبن ! . . .

٣٣

بلغ كمال بيت أخته بالسكرية حوالى العصر فوجد الأسرة مجتمعة فى الصالة بكامل هيئتها ، فصافحهم وهو يقول مخاطبا احمـد :

- مبارك الليسانس . . .

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معانى الابتهاج :

- مبارك عليك ، ولكن تعال اسمع آخر خبر ، البك لا يريد أن يتوظف . .

وقال ابراهيم شوكت :

- ابن خاله رضوان مستعد لتوظيفه اذا وافق ولكنه يصر على الرفض ، كلمه يا أستاذ كمال لعله يقتنع برأيك أنت . .

خلع كمال طربوشه ، ونزع - من شدة الحر - الچاكتة البيضاء فألبسها مسند كرسى ، ومع أنه كان يتوقع معركة الا أنه قال باسما :

- حسبت أن اليوم سيكون خالصا للتهنئة ، ولكن هذا البيت لا يسلو النزاع أبدا !

فقالت خديجة فى لهجة أسيفة :

- قسمتى ، الناس كلهم حال ونحن وحدنا حال . .

وخاطب أحمد خاله قائلا :

ــ الأمر بسيط ، ليس أمامى الآن الا وظيفة كتابية ، فقد أخبرنى رضوان انه يمكن تعيينى الآن فى وظيفة خالية بادارة المحفوظات عند خالى ياسين ، واقترح على أن أنتظر ثلاثة أشهر حتى يبدء العام الدراسى الجديد لعلى أعين مدرس لغة فرنسية فى احدى المدارس ، ولكننى لا أريد الوظيفة أيا كان نوعها !.

فهتفت خديجة :

ــ قل له ماذا تريد ؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم :

ــ سأعمل فى الصحافة .

فنفخ ابراهيم شوكت قائلا :

ــ جورنالجى ! ، كنا نسمع هذا الكلام فنظنه ضحكا وعبثا ، يأبى أن يكون مدرسا مثلك ويسعى الى أن يكون جورنالجيا ..

فقال كمال فى لهجة ساخرة :

ــ كفاه الله شر مهنة التدريس !

فقالت خديجة فى انزعاج :

ــ وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيا ؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفا الجو :

ــ لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد .

فقالت له أمه بحدة :

ــ لكنك موظف يا سى عبد المنعم .. !

ــ فى كادر ممتاز ، ولكنى لا أرضى له وظيفة كتابية ، وها هو خالى كمال يستعيذ من مهنته ..

والتفت كمال الى أحمد متسائلا :

ــ فى أى نوع من الصحافة تريد أن تعمل ؟

ــ الأستاذ عدلى كريم موافق على قبولى فى مجلته تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولا ثم بالتحرير فيما بعد ..

ـ ولكن « الانسان الجديد » مجلة ثقافية محدودة الموارد والمجـال ؟

ـ هى خطوة اولى للتمرين حتى يتيسر لى عمل اهم ، وعلى أى حال ففى وسعى أن أنتظر دون أن أجوع ..

فنظر كمال الى خديجة قائلا :

ـ دعى الأمور تجرى كما يشاء الله ، انه راشد مثقف وأدرى بما يفعل ..

ولكن خديجة لم تسلم بالهزيمة بسهولة ، وعادت تحاول اقناع ابنها بقبـول الوظيفة حتى علا صـوتهما واحتد فتدخل كمال ليخلص بينهما . ثم تكدر جو المجلس وساد صمت ثقيل حتى قال كمال ضاحكا :

ـ جئت طامعا فى شرب الشربات فكانت هذه العكننةنصيبى.

وفى أثناء ذلك ارتدى أحمد ملابسه ليغادر البيت ، فاستأذن كمال وخرجا معا . وسارا فى شارع الأزهر ، وقد صارح أحمد خاله بأنه ماض الى مجلة الانسان الجديد ليتسلم عمله كما وعده الأستاذ عدلى كريم ، فقال له كمال :

ـ افعل ما تشاء ولكن تجنب ايذاء والديك ..

فقال أحمد ضاحكا :

ـ انى أحبهما وأجلهما ولكن ...

ـ ولكن ... ؟

ـ من الخطأ الكبير أن يكون للانسان والدان !.

كمال ضاحكا :

ـ كيف هان عليك أن تقول ذلك ؟.

ـ لا أعنى حرفيته ، ولكن ما يرمز اليه الوالدان من تقـاليد الماضى ، فالأبوة على وجه العموم فرملة ، وما حاجتنا فى مصر الى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالأغلال ؟!.

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير :

ـ ان مثلى لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دام لى بيت ولأبى دخل ، ولاأنكر انى مطمئن بذلك ولكنى فىالوقت نفسه خجلمنه !.

ـ متى ينتظر أن تؤجر على عملك ؟ .

ـ لم يحدد الأستاذ وقتا . .

وعند العتبة الخضراء افترقا ، فمضى أحمد الى مجلة الانسان الجديد . وقد استقبله الأستاذ عدلى كريم مشجعا ، وذهب معه الى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلا :

ـ زميلكم الجديد الأستاذ أحمد ابراهيم شوكت . .

ثم قدم اليه زملاءه قائلا :

ـ آنسة سوسن حماد ، الأستاذ ابراهيم رزق ، الأستاذ يوسف الجميل . .

وصافحوه مرحبين ، ثم قال ابراهيم رزق مجاملا :

ـ اسمه معروف فى مجلتنا . .

وقال الأستاذ عدلى كريم باسما :

ـ انه الابن البكر للانسان الجديد . . (ثم وهو يشير الى مكتب يوسف الجميل) . . ستعمل على هذا المكتب فان عمل صاحبه فى الخارج الا فيما ندر . .

وغادر عدلى كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحمد الى الجلوس على كرسى قريب من مكتبه ، وانتظر حتى جلس ثم قال :

ـ ستوجهك الآنسة سوسن الى العمل الذى سيناط بك ، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة . . وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصفح الوجوه والمكان . كان ابراهيم رزق كهلا مهدما يبدو أكبر من سنه بعشرة أعوام ، أما يوسف الجميل فكان فى العقد الأخير من الشباب ، وكان مظهره ينم عن الحذق والذكاء . ورمى ببصره الى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى

هل تذكره ؟. ولم يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦ . والتقت عيناهما فسألها باسما مدفوعا برغبة فى الخروج من صمته :

ـ قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات . .

فلاح التذكر فى عينيها اللامعتين فاستدرك قائلا :

ـ كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها ؟

فقالت باسمة :

ـ أكاد أذكرك ، وعلى كل فقد نشرنا لك منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة .

فقال يوسف الجميل معلقا :

ـ مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة . .

وقال ابراهيم رزق :

ـ ان الوعى اليوم غيره بالأمس ، كلما نظرت فى الطريق قرأت على الجدران عبارة « الخبز والحرية » هذا شعار الشعب الجديد .

فقالت سوسن حماد باهتمام :

ـ ما أجمله من شعار ، خاصة فى هذا الوقت الذى أطبق فيه الظلام على العالم !.

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعا ـ وفى حماس وسرور ـ للجو المحيط به وقال :

ـ الظلام يطبق على العالم حقا ، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل فى النجاة .

فقالت سوسن حماد :

ـ انى أنظر الى الموقف من زاوية أخرى ، الا ترى أن هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو فى الأقل أن ينتقل مركز القوة الى روسيا ؟. . .

واذا حدث العكس ؟. أعنى أن يجتاح هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة ؟!. . .

فقال يوسف الجميل :

ـ كان نابليون كهتلر غازى أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته.

. ووجد أحمد نشاطا وحماسا لم يشعر بمثلهما من قبل . هذا الهواء النقى ، وهؤلاء الزملاء الأحرار ، وهذه الزميلة المستنيرة الحسناء . ولداع أو لآخر ذكر علوية صبرى ، وعام العذاب الذى صارع فيه الحب الخائب حتى صرعه . حين كان يصبح ويمسى وهو يلعن الحب من صميم قلبه حتى تطاير فى الهواء تاركا فى أعماق النفس آثارا من الامتعاض والتمرد لا تزول . انها الآن فى بيتها فى المعادى تنتظر زوجا ذا خمسين جنيها شهريا على الأقل ، أما هذه الفتاة التى تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى ؟.

واذا بسوسن تلوح برزمة أوراق فى وجهه وهى تقول برقة :

ـ تسمح ؟...

فنهض ، ثم مضى الى مكتبها باسما ليبدأ عمله الجديد ..

٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمر بالمجلة الا يوما فى الأسبوع أو يومين اذ كان جل نشاطه موجها للاعلانات والاشتراكات ، كذلك ابراهيم رزق لم يكن يمكث فى السكرتارية أكثر من ساعة ثم يدور على بقية المجلات التى يعمل بها ، فكان أكثر الوقت يمضى وهما منفردان ، أحمد وسوسن . ومرة جاء رئيس عمال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه الا أن يسمعها وهى تدعوه « أبى » !. وعلم بعد ذلك أن ثمة صلة قربى تربط الأستاذ عدلى كريم نفسه برئيس عمال المطبعة . كان ذلك مفاجئا ومثيرا . وراعه أكثر من سوسن مثابرتها على العمل ، كانت محور التحرير ومركز نشاطه ،

بيد انها كانت تعمل أكثر مما يستوجبه تحرير المجلة ، فما تزال تقرأ أو تكتب . وبدت جادة حادة شديدة الذكاء ، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها ، حتى كان يخيل اليه بعض الأحيان — رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمهما الأنثوى اللطيف—انه حيال رجل قوى الارادة حسن التنظيم . ثم تأثر بنشاطها فثابر على عمله بهمة لا تعرف الكلل أو الملل . وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات العالم الثقافية ، الى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن . وقد قال لها يوما :

— ان الرقابة تقف لنا بالمرصاد . .

فقالت بصوت يدل على الحنق والازدراء :

— أنت لم تر شيئا بعد ، مجلتنا « مشبوهة » فى الدوائر العليا !. ولها الشرف !. .

فقال أحمد باسما :

— تذكرين طبعا افتتاحيات الأستاذ عدلى كريم قبل الحرب ؟.

— لقد عطلت مجلتنا مرة فى عهد علي ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة .

ويوما سألته ضمن حديث عابر :

— لماذا اخترت الصحافة ؟.

فتفكر قليلا . الى أى درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التى تبدو طرازا وحدها بين من عرف من بنات جنسها !.

— لم أدخل الجامعة لأتوظف ، ولكن عندى أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل الى ذلك خير من الصحافة . .

فقالت باهتمام سر له من أعماقه :

— أما أنا فلم أدرس فى الجامعة ، أو بالحرى لم تتح لى فرصة (سرته صراحتها كذلك وان أكدت فى نفسها مخالفتها لبنات

جنسها) ... انى متخرجة فى مدرسة الأستاذ عدلى كريم ، وهى ليست دون الجامعة منزلة ، درست عليه منذ حصـــولى على البكالوريا ، وأصـــارحك بأنك أحسنت تعـــريف الصحافة ، أو الصحافة التى نعمل فيها ، بيد أنك تنفس عن أفكارك — حتى الآن — عن طريق غيرك ، أعنى بالترجمة ، ألم تفكر فى اختيار الشكل الذى يناسبك من اشكال الكتابة ؟.

فصمت مفكرا كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل :

— ماذا تعنين ؟

— المقالة ، الشعر ، القصة ، المسرحية ؟.

— لا أدرى ، المقالة أول ما يتبادر الى الخاطر ..

فقالت بلهجة ذات معنى :

— نعم ، ولكنها لظروفنا السياسية ، لم تعد مطلبا يسيرا ، لذلك يضطر الأحرار الى اذاعة آرائهم بالمنشورات السرية ، المقالة صريحة ومباشرة ولذالك فهى خطيرة ، خاصة وأن الأعين محملقة فينا ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، انها فن ماكر ، وقد غدت شكلا أدبيا شائعا سوف ينتزع الامامة فى عالم الأدب فى وقت قصير ، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب الا وهو يثبت وجوده فى مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد ؟.

— نعم ، قرأت أكثر هذه المؤلفات ، ألم تقرئى للأستاذ رياض قلدس الكاتب بمجلة الفكر ؟.

— هذا واحد من كثيرين ، وليس خيرهم !.

— ربما ، لقد لفتنى اليه خالى الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة ...

فقالت باسمة :

— هو خالك ؟. قرأت له مرات ، ولكن ..

— ؟ ......

- معذرة انه من الكتاب الذين يهيمون فى تيه الميتافيزيقا !.

فتساءل فيما يشبه القلق :

- ألم يعجبك ؟.

- الاعجاب شىء آخر ، أنه يكتب كثيرا عن الحقائق القديمة : الروح .. المطلق .. نظرية المعرفة ، هذا جميل ، ولكنه - فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكرى - لا يفضى الى غاية ، ينبغى أن تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف ، وأن يكون هـدفها الأخير تطوير هـذا العالم والصعود بالانسان فى سلم الرقى والتحرر ، الانسانية فى معـركة متواصلة والكاتب الخليق بهذا الاسم حقـا يجب أن يكون على رأس المجاهـدين ، أما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده ...

- ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفا ناشئا يهيم فى تيه الميتافيزيقا ؟.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلمى ، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ ..

لم يرتح أحمد الى نقـد خاله على هذا النحو ، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شىء :

- الحقيقة جديرة دائما بأن تعرف ، مهما تكن ، ومهما يكن الرأى فى آثارها ...

فقالت سوسن فى حماس :

- هـذا مناقض لمـا تكتب ، فأراهن على أنك متـأثر بالوفاء لخالك !. عندما يكون الانسان متألما يركز اهتمامه فى ازالة أسباب الألم ، مجتمعنا متألم جدا فيجب أن نزيل الألم قبل كل شىء ، ولنا بعد ذلك أن نلهو ونتفلسف ! ، ولكن تصور انسانا يتفلسف لاهيا وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات ، ماذا تقول عن مثل هذا الانسان ؟!

أهذا خاله حقا ؟ ، لكن فليقر بأن كلامها يلقى تجاوبا كاملا مع نفسه ، وبأن عينيها جميلتان ، وبأنها رغم غرابتها و « جديتها » جذابة ... جذابة ...

ــ الواقع أن خالى لا يعير هذه الأمور التفاتا جديا ، لقد حدثته كثيرا عنها فوجدته انسانا يدرس النازية كما يدرس الديموقراطية أو الشيوعية ، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار ، لم أستطع أن أتبين موقفه ..

فقالت باسمة :

ــ لا موقف له ، ان موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى ، انه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل ، وقد تجده فى حيرة أمام « المطلق » ، وربما بلغت به الحيرة حد الألم ، ولكنه يمر سادرا بالمتألمين الحقيقيين فى طريقه ..

فقال ضاحكا :

ــ ليس خالى كذلك ..

ــ أنت أدرى ، كذلك قصص رياض قلدس ليست بالقصص المنشودة ، انها واقعية وصفية تحليلية ، ولا تتقدم عن ذلك خطوة ، لا توجيه فيها ولا تبشير !

ففكر أحمد قليلا ثم قال :

ــ ولكنه كثيرا ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين ، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة فى أقاصيصه للطبقة الكادحة !

ــ ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل ، انه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية !

يا لها من فتاة تروم العراك ! ، شديدة الجد فيما يبدو ، ولكن أين المرأة ؟!

ــ وكيف تريدينه أن يكتب ؟

ـ أقرات شيئا من الأدب السوفييتى الحديث ، بل أقرأت مكسيم جوركى ؟

فصمت باسما . لا داعى للخجل ، كان طالب اجتماع لا طالب أدب ، ثم انها تكبره بسنوات ، ترى ما عمرها ؟ ، ربما كانت فى الرابعة والعشرين او أكثر ! . وعادت تقول :

ـ هذا ما ينبغى أن تقرأ من ألوان الأدب ، سأعيرك بعضه اذا شئت . .

ـ بكل سرور . .

فابتسمت قائلة :

ـ ولكن الانسان « الحر » لا يكفى أن يكون قارئا أو كاتبا ! ، ان المبادىء تتعلق بالارادة قبل كل شىء ، الارادة أولا وقبل كل شىء .

مع ذلك رآها أنيقة ، أجل ليس فى وجهها زواق ، ولكن عنايتها بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها ، هذا الصدر الحى مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة ، ولكن مهلا هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ ؟ ، طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر الى المرأة الا من زاوية خاصة !

ـ انى مسرور بمعرفتك ، وأرى أنه امامنا أكثر من مجال لنعمل معاً كيد واحدة . .

فقالت باسمة ـ وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شى :

ـ هذا اطراء !

ـ انى مسرور بمعرفتك حقا . . .

أجل انه كذلك ، ولكن ينبغى الا يسىء فهم ما ينفعل به صدره فلعله الاستجابة الطبيعية لمراهق مثله ، واصطنع الحذر حتى

لا ترمى بنفسك الى مثل موقفك بالعادى ، فان الحزن لم يمح بعد من صفحة قلبى . . .

٣٥

— مساء الخير يا عمتى . .

وتبع جليلة الى مجلسهما المختار فى الصالة ، وما استقر بهما المجلس فوق الكنبة حتى نادت المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب ، وجعلت تراقبها وهى تعد الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت ، وعند ذاك التفتت جليلة الى كمال قائلة :

— يا ابن أخى ، أقسم لك اننى لم أعد أشرب الا معك ، كل ليلة جمعة ، كما كان يحلو لى أن أشارب أباك فى الزمن القديم ، ولكن فى ذلك الزمن كنت أشارب الكثيرين أيضا . .

وقال كمال لنفسه « ما أحوجنى الى الشراب ، لا أدرى ماذا كانت تكون الحياة بدونه ! » ثم قال يحاورها :

— ولكن الويسكى اختفى يا عمتى ، وكذلك كافة المشروبات النظيفة ، ويقال ان الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمور عالمى حتى سالت الوديان بالويسكى الأصيل . .

— يا روحى على غارة من هذا النوع ، ولكن خبرنى قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد ؟

— لا تقدم ولا تأخر ، يعز على يا ست جليلة مرقده ، ربنا يلطف به . . .

— يا ما نفسى ازوره ، الا تجد الشجاعة فتبلغه عنى السلام ؟

— يا خبر ! ، لم يبق الا هذا حتى تقوم الساعة !

فضحكت العجوز ثم قالت :

ــ أتحسب أن رجلا مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة فى انسان خاصة اذا كان من صلبه ؟

ــ ولو يا زين الستات ! ، ... صحتك ...

ــ صحتك ... ، ربما تأخرت عطية اذ أن ابنها مريض ..

فقال كمال فى شىء من الاهتمام :

ــ فى آخر مرة لم يكن بها شىء ؟

ــ نعم ولكن ابنها مرض يوم السبت الماضى ، روحها المسكينة فى ابنها ، وهو اذا مسه سوء طارت أبراج عقلها ..

ــ يا لها من امرأة طيبة عاثرة الحظ ، طالما أقنعتنى أحوالها بأنها لا تمارس هذه الحياة الا مضطرة ..

فقالت جليلة باسمة أو ساخرة :

ــ اذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هى بمهنتها ؟ !

ومرت الخادم بجمرة تنفث بخورا لطيفا ، وكان جو الخريف يهفو رطيبا من نافذة فى نهاية الصالة ، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر ، غير أن كلام جليلة عن المهنة ذكره بأمور كاد ينساها فقال :

ــ كدت انقل من مصر يا عمتى ، ولو وقع المحذور لكنت الآن أعد الحقائب للسفر الى أسيوط !

فضربت جليلة صدرها بكفها وقالت :

ــ اسيوط يا بلح ! ، أسيوط فى عين عدوك ، وماذا حصل ؟

ــ سليمة والحمد لله !

ــ معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل ..

فهز رأسه كالموافق دون تعليق . انها ما زالت ترى اباه فى هالة المجد القديم ، لا تدرى أنه ــ حين اخبره عما تقرر عن نقله ــ قال محزونا آسفا « لم يعد يعرفنا أحد ، أين أصدقاؤنا أين ؟ » ،

وقبل ذلك مضى الى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوى لعله يعرف أحدا من كبار رجال المعارف .ولكن القاضى الخطير قال له « انى آسف جدا يا كمال فأنا بصفتى قاضيا لا أستطيع أن أرجو أحدا » ، وأخيرا لجأ الى رضوان ابن أخيه وهو يتعثر بخجله ، وفى نفس اليوم عدل عن نقله ! ، يا له من شاب خطير ، كلاهما موظف فى وزارة واحدة وفى درجة واحدة رغم أنه فى الخامسة والثلاثين والشاب فى الثانية والعشرين ، ولكن كيف ينتظر خوجة ابتدائى أفضل من هذا ؟ ، ولم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة أو يدعيها ، فليس الفيلسوف من ردد أقوال الفلاسفة ، كالببغاء ، واليوم كل متخرج فى كلية الآداب يستطيع ان يكتب كما يكتب هو أو أحسن ، وقد كان هناك ثمة أمل فى أن يجمع ناشر مقالاته فى كتاب ، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر ، وما أكثر الكتب هذه الأيام ، وهو فى هذا الخضم لا شىء ، وقد مل حتى طفح بالملل ، فمتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ . ونظر الى الكأس فى يد عمته ، ثم الى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه الا الاعجاب بها ، ثم تساءل :

— ماذا تجدين فى الشراب يا عمتى ؟

فافتر فوها عن أسنان ذهبية وهى تقول :

— وهل تحسبنى أشرب الآن ؟ ، مضى ذاك الزمان ، لا طعم لها اليوم ولا أثر ، كالقهوة لا أكثر ولا أقل ، فى الزمان الأول سكرت مرة فى فرح ببيرجوان حتى اضطر التخت أن يحملنى الى عربتى آخر الليل ، ربنا يكفيك شرها . . . !

« ولكنها خير من لا خير له » .

— وذروة النشوة هل عرفتها ؟ ، كنت أبلغها بكأسين ، اليوم يلزمنى ثمانية كئوس كى أبلغها ، ولا أدرى كم غدا ، ولكنها ضرورية يا عمتى ، فعندها يرقص القلب المكلوم طربا . .

ــ قلبك طروب يا ابن اخى دون حاجة الى الخمر . .

قلبه طروب ! ، وهذا الحزن الصديق ؟ ، والرماد المتخلف من محترق الآمال ؟ ، لم يبق للملول الا الامتلاء بالخمر ، فى هذه الصالة أو فى تلك الحجرة اذا جاءت التى تداوى ابنها ، هو وهى فى موضع واحد من الحياة ، حياة من لا حياة لهم .

ــ أخشى الا تجىء عطية ؟

ــ ستجىء حتما ، أليس المرض فى حاجة الى النقود !

يا له من جواب ! ، بيد أنها لم تمكنه من التفكير اذ مالت نحوه فى اهتمام ، ونظرت اليه مليا ، ثم قالت بصوت منخفض :

ــ لم يبق الا أيام !

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها :

ــ ربنا يطول عمرك ولا يحرمنى منك !

فقالت باسمة :

ــ سأهجر هذه الحياة !

فانتصب نصفه الأعلى فى دهش وهتف :

ــ ماذا قلت ؟ !

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية :

ــ لا تخف ، ستذهب بك عطية الى بيت آمن كهذا البيت . .

ــ ؟ ! . . . .

ــ ولكن ماذا حدث ؟

ــ كبرت يا ابن اخى ، وأغنانى الله فوق حاجتى ، وبالامس ضبط بيت قريب وسيقت صاحبته الى القسم ، حسبى ، انى افكر فى التوبة . ينبغى أن أقابل ربى على غير ما أنا عليه !

أتى على بقية كأسه ، وملأه ، ثم قال وكأنما لم يصدق ما سمعه :

ــ لم يبق الا أن تستقلى السفينة الى مكة !

- ربنا يقدرنى على فعل الخير ..

وتساءل ولما يفق من دهشته :

- أجاء هذا كله فجأة ؟ ..

- كلا ، انى لا أبوح بسر الا عند العمل ، طالما فكرت فى هذا من زمن ...

- جـد ؟ !

- كل الجد ، ربنا معنا !

- لا أدرى ماذا أقول ، ولكن ربنا يقدرك على فعل الخير ..

- آمين ...

ثم ضاحكة :

- ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى أطمئن على مستقبلك ! ...

فضحك ضحكة عالية وقال :

- هيهات أن أجد بيتا ارتاح فيه كهذا البيت !

- لك على أن أوصى بك البدرونة الجديدة ولو كنت فى مكة !

كل شىء يبدو مضحكا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون ، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوى ويسفل كمال أحمد عبد الجواد ، ولكن الخمر ستظل بشاشة المكروب ، ويوما يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلله ثم يجىء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف ، وحتى الست جليلة تفكر فى التوبة فى الوقت الذى يبحث هو عن ماخور جديد ولكن الخمر ستظل المأوى الأخير ، ويمل السقيم كل شىء حتى يمل الملل ولكن الخمر ستظل مفتاح الفرج .

- يسعدنى أن أسمع عنك دائما ما يسر .

- الله يهديك ويسعدك ..

- اذا كان وجودى يضايقك .. ؟

وسدت فاه بأصبعها وقالت :

ـ سامحك الله ، هذا بيتك ما دام بيتى ، وكل بيت أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخى ...

أثمة لعنة قديمة مجهولة قضى عليه بأن يكفر عنها ؟ ! . كيف المخرج من هذه الحيرة التى تغشى حياته ؟ . حتى جليلة تفكر جادة فى تغيير حياتها فلم لا يتخذ منها أسوة ؟ : لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق ، واذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى ؟ ! ..

ـ ربما كان من الخطأ أن نبحث فى هذه الدنيا عن معنى بينا أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى ..

وحدجته جليلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت الى ما بدر منه دون شعور . وضحكت جليلة متسائلة :

ـ سكرت بهذه السرعة ؟ .

فدارى ارتباكه بضحكة عالية وقال :

ـ خمر الحرب كالسم ، لا تؤاخذينى ، ترى متى تأتى عطية ؟ ! .

٣٦

غادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية صباحا ، كان كل شىء غارقا فى الظلام ، وكان الظلام غارقا فى الصمت ، وسار على مهل نحو السكة الجديدة ثم مال الى الحسين . حتى متى يعيش فى هذا الحى المقدس الذى لم يمت اليه بصلة ؟ . وابتسم ابتسامة فاترة . لم يكن بقى من الخمر الا خمارها ، أما الجسد فقد خمدت لواعجه ، فنقل خطاه فى اعياء وكسل . عادة فى مثل هذه اللحظة الخامدة يصرخ شىء فى أعماقه ـ لا هو التوبة

ولا الندم ـ ناشدا التطهر ، ملتمسا الخلاص من قبضة الشهوات الى الأبد ، كأن موجة شهواته تنحسر عن صخور تقشف كامنة . ورفع رأسه الى السماء ، كأنما ليستأنس بالنجـوم فانطلقت فى السكون صفارة الانذار ! . ودق قلبه دقة عنيفة ثم حملقت عيناه النائمتان ، ثم بدافع غريزى مال الى أقرب جدار وسار بحذائه . ونظر الى السماء مرة أخرى فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تمسح صفحتها فى سرعة شديدة ، تلتقى أحيـانا ثم تتفرق فى جنون . وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورا موحشا بوحدته كأن وجه الأرض قد خلا الا منه ! . واذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل ، يعقبه انفجار شـديد ارتجت له الأرض تحت قدميه ، قريب أم بعيد ؟ ، ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات ، اذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس ، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات ، والتمع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيل اليه أن الأرض تتطاير . وانطلق يعدو بسرعة لا يلوى على شىء صـوب درب قرمز ملتمسا فى قبوها التاريخى مخبأ . وكانت المدافع تنطلق فى غضب جنونى ، والقنابل تدك مراميها دكا ، والأرض تميـد . وفى ثوان من الفزع بلغ القبو ، وكان يكتظ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته ، فاندس بينهم وهو يلهث . وكان جوه يسوده الرعب ويمتلىء بهمهمات الفزع فى ظلام دامس ، أما مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الاشعاعات المنطلقة فى الفضاء . وقد توقف سقوط القنابل أو هذا ما خيل اليهم ، أما المدافع فلم يخف جنونها ولم يكن رجعها فى النفوس دون رجع القنـابل ، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال .

ـ هذه غارة جدية وليست كالسابقات ..

ـ وهذا الحى القديم هل يتحمل الغارات الجدية !.

ـ أعفونا من هذه الثرثرة وقولوا يا رب ! .

ـ كلنا يقول يا رب . .

ـ اسكتوا ، اسكتوا يرحمكم الله ! .

وكان كمال يلاحظ الضوء الذى ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيل اليه أنه لمح هيئة أبيه بينها . وخفق قلبه ، ايكون حقا اباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق الى القبو ؟. بل كيف استطاع أن يغادر فراشه ؟ . وشق طريقا الى نهاية القبو مخترقا الكتل البشرية المضطربة ، فتبين على التماع الضوء اسرته جميعا ، أباه وامه وعائشة وأم حنفى ! . واتجه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يهمس :

ـ أنا كمال ! . كلكم بخير ؟ .

لم يجب أبوه ، وكان ملقيا بظهره فى اعياء الى جدار القبو بين الأم وعائشة ، أما الأم فقالت :

ـ كمال ؟ . الحمد لله ، شيء فظيع يا بنى ، ليست ككل مرة ، خيل الينا أن البيت سينقض فوق رءوسنا ، وربنا شد حيل أبيك فنهض وجاء بيننا ، لا أدرى كيف جاء ولا كيف جئنا . .

وغمغمت أم حنفى :

ـ عنده الرحمة ، ما هذا الهول ! . ربنا يلطف بنا . .

وفجأة هتفت عائشة :

ـ متى تسكت هذه المدافع !.

وخيل الى كمال أن صوتها ينذر بانهيار عصبى فاقترب منها وأمسك بكفها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم فى حاجة الى تشجيعه . وكانت المدافع ما تزال تنطلق فى غضبها الجنونى ، غير أن وطأتها أخذت تخف بدرجة غير محسوسة . ومال كمال نحو أبيه وسأله :

- كيف حالك يا أبى ؟ .

فجاءه صوته وهو يهمس فى خور :

- أين كنت يا كمال ؟ . أين كنت حين وقعت الغارة ؟ .

فقال يطمئنه :

- كنت على مقربة من القبو ، كيف حالك ؟ .

فأجاب بصوت متقطع :

- الله أعلم ... كيف غادرت فراشي وهرولت فى الطريق ؟ . الله أعلم ... لم أشعر بشيء ... متى تعود الحال الى الهدوء ؟ .

- أأخلع لك چاكتتى لتجلس عليها ؟.

- كلا ، أنا قادر على الوقوف ، ولكن متى تعود الحال الى الهدوء ؟ .

- الغارة انتهت فيما يبدو ، أما قيامك المفاجىء فلا تخفه ، ان المفاجآت كثيرا ما تصنع المعجزات مع المرض ! .

وما كاد ينتهى من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى ، وضج القبو بالصراخ .

- انها فوق رءوسنا ! .

- وحد الله ....

- اسكتوا هذا الشؤم ! .

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدى أبيه بين يديه ، وكان يفعل ذلك لأول مرة فى حياته ، وكانت يدا الرجل ترتجفان ، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك ، أما أم حنفى فقد انبطحت على الأرض وهى تولول . وعاد الصوت العصبى يصيح فى هياج :

- اياكم والصراخ ، سأقتل الصارخ ! .

وعلا الصراخ ، وتلاحقت طلقات المدافع ، واشتد توتر

الأعصاب فى توقع زلازل جديدة ، ولكن المدافع استمرت تنطلق وحدها ، وظل توقع انفجارات جديدة يخنق الأرواح .

ـ انتهت القنابل ! .

ـ انها تغيب ثم تنفجر ..

ـ انها بعيدة ، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت حولنا ! .

ـ بل سقطت فى النحاسين ! .

ـ هكذا يخيل اليك ولعلها فى الأورنس ! .

ـ انصتوا يا هوه ، ألم تخف المدافع ؟ .

بلى خفت طلقاتها ، ثم لم تعد تسمع الا من بعيد ، ثم متقطعة ، ثم متباعدة ، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة ، ثم أناخ الصمت ، وامتد ، وطال ، وعمق ، وانعقدت الألسن ، حتى مضت تتعالى همسات الأمل الباكى ، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء ، ويحيون من جديد ، ويتنهدون فى ارتياح حذر مشوب بالاشفاق . وعبثا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن غابت التماعات الضوء الخاطف وخيم الظلام .

ـ أبى ، ستعود الحال الى الهدوء ..

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدى ابنه كأنما ليقنعه بأنه ما زال حيا ...

ـ هل أنت بخير ؟ .

فحرك يديه مرة أخرى . وشعر كمال بحزن أوشك أن يهيج دموعه .

وانطلقت صفارة الأمان .

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح الأطفال عقب مدافع الأعياد . وضج المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر ، صفقات أبواب ونوافذ ، هدير كلام عصبى ، ثم تتابع انصراف المنحشرين فى القبو . وقال كمال وهو يتنهد :

ـ فلنعد ...

وضع الأب ذراعا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة . وبدأوا يتساءلون عن الرجل ، كيف هو ، وماذا أصابه أثر مغامراته الخطيرة . غير أن الأب توقف عن المشى وهو يقول بصوت ضعيف :

ـ أشعر بأننى يجب أن أجلس ..

فقال له كمال :

ـ دعنى أحملك ..

فقال فى اعياء :

ـ لن تستطيع ..

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه ، ورفعه . لم يكن حملا خفيفا ولكن ما بقى من أبيه كان على أى حال هينا . وسار فى بطء شديد والآخرون يتبعونه مشفقين ، وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب :

ـ لا داعى للفضيحة ! .

فكتمت فاها بيدها . ولما بلغوا البيت عاونت أم حنفى فى حمل السيد ، فصعدا به السلم على مهل وحذر . وكان مستسلما ولكن همهمته الاستغفارية المتواصلة نمت عن حزنه وضيقه ، حتى طرحاه بعناية على فراشه . ولما أضىء نور الحجرة بدا وجه الأب شديد الشحوب كأن الجهد قد استصفى دمه ، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف ، فأغمض عينيه اعياء ، ثم راح يتأوه ، ويتأوه ، ولكنه غالب ألمه حتى استطاع أخيرا أن يلوذ بالصمت . وكان الجميع يقفون صفا بازاء فراشه ويتطلعون اليه فى وجل واشفاق : وأخيرا تساءلت أمينة بصوت متهدج :

ـ سيدى بخير ؟ .

ففتح عينيه ، وجعل ينظر فى الوجوه مليا ، وبدا لحظات كأنه لا يعرفها ، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ الحمد لله ...

ـ نم يا سيدى ، نم كى تستريح ... .

وترامى اليهم رنين الجرس الخارجى فمضت أم حنفى لتفتح الباب . وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال :

ـ لعل أحدا من السكرية أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا ! .

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم واحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحيون الموجودين ، فوجه اليهم الرجل نظرات فاترة ، وكأن الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده النحيلة تحية ، وقص عليهم كمال فى اقتضاب ما عاناه والده فى ليلته المزعجة ، ثم قالت أمينة همسا :

ـ ليلة فظيعة ربنا لا يعيدها ..

وقالت أم حنفى :

ـ الحركة أتعبته قليلا ولكنه سيسترد بالراحة عافيته ..

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول :

ـ ينبغى أن تنام ، كيف حالك الآن ؟ .

فرنا الرجل اليه ببصر خاب وغمغم :

ـ الحمد لله .. أشعر بتعب فى جنبى الأيسر ..

فسأله ياسين :

ـ أأحضر لك الطبيب ؟ .

فأشار بيده فى ضجر ثم همس :

ـ كلا خير لى أن أنام ..

فأشار ياسين الى الموجودين بالخروج ، وتراجع الى الوراء قليلا فرفع الرجل يده النحيلة تحية مرة أخرى . وغادروا الحجرة

واحدا فى أثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل الا أمينة . ولما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال :

ـ ماذا فعلتم ؟ . أما نحن فقد هرعنا الى المنظرة فى الحوش .

وقال ياسين :

ـ ونحن نزلنا الى شقة الدور الأرضى عند جيراننا ..

فقال كمال فى قلق :

ـ ولكن التعب قد أنهك قوى بابا ..

فقال ياسين :

ـ ولكنه سيسترد صحته بالنوم ..

ـ وما عسى أن نفعل به اذا وقعت غارة أخرى ؟ ! .

ولم يحر أحد جوابا فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد :

ـ بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات ..

وعند ذاك أراد كمال أن يبدد سحب الكآبة المخيمة التى أرهقت أعصابه فقال منتزعا من شفتيه ابتسامة :

ـ اذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفا أن هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث ...

٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجى ، ولم يكد يعود الى باب السلم حتى ترامت اليه من فوق ضجة مريبة ، وكانت أعصابه ما تزال متوترة فداخلته كآبة ورقى السلم وثبا . وجد الصالة خالية ، وحجرة الأب مغلقة ، وخليطا من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق ، فهرع الى الحجرة ودفع الباب ثم دخل ، وكان يتوقع شرا أبى أن يفكر فى كنهه . كان صوت الأم المبحوح

يهتف « سيدى » . وكانت عائشة تنادى بصوت غليظ « بابا » على حين تسمرت أم حنفى عند رأس الفراش وهى تغمغم . وامتد بصره الى الفراش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين ؛ رأى نصف ابيه الأسفل مطروحا على الفراش ، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التى تربعت وراء ظهره ، وصدره يعلو وينخفض فى حركة آلية تند عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا العالم ، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جامدة لا ترى ولا تعى ولا تملك أن تعبر عما يعتلج وراءها ، فتسمرت قدماه وراء شباك السرير ، وانعقد لسانه ، وتحجرت عيناه ، لم يجد شيئا يقوله أو شيئا يفعله ، وعانى شعورا قاهرا بالعجز المطلق ، واليأس المطلق ، والتفاهة المطلقة ، وكأنه فقد الوعى لولا ادراكه ان أباه يودع الحياة . ورددت عائشة بصرا زائغا بين وجه أبيها ووجه كمال ثم هتفت :

— أبى ! . هذا كمال يريد أن يحدثك ! .

وخرجت أم حنفى عن غمغمتها المتصلة قائلة فى نبرات ممزقة :

— أحضروا الطبيب . . .

فأنت الأم فى حزن غاضب :

— أى طبيب يا حمقاء ! .

ثم ندت عن الأب حركة كأنما يحاول الجلوس ، وازداد صدره تشنجا واضطرابا ، ومد سبابة يمناه ثم سبابة يسراه ، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكررت ذلك حتى سكنت يداه . وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتتشهد نيابة عنه ، وأن كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرا الى الأبد ، وأن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب ، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن تطول ، انها أجل وإخطر من أن تبتذل ، أما أعصابه فقد انهارت

حيالها ، وخجل من نفســه اذ نزعت لحظات الى تحليل الموقف ودراســته ، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زادا لتأمله ومادة لمعرفته ، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه ، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته ، ثم ما هذا ؟ . أيهم بالقيام ؟ . أم يحاول الكلام ؟ . أم يخاطب شيئا مجهولا ؟ . أيتألم ؟ : أم يفزع ؟ ... آه ...

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتمى رأسه على صدره .

صرخت عائشة من الأعمــاق « يا أبى ... يا نعيمــة ... يا عثمان ... يا محمد » فهرعت اليها أم حنفى ودفعتها أمامها برقة الى الخارج ، ورفعت الأم وجهها الشاحب الى كمال وأشارت الى الخارج ، ولكنه لم يتحرك ، فهمست فى يأس :

ـ دعنى أقم بواجبى الأخير نحو أبيك ...

فتحول عن موقفه ومضى خارجا . وكانت عائشة مرتمية على الكنبة وهى تعول ، فمضى الى الكنبة المقــابلة لها وجلس ، أما أم حنفى فذهبت الى الحجــرة لتساعد ســيدتها وأغلقت الباب وراءها . ولم يعد بكاء عائشة مما يحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابا وإيابا دون أن يوجه اليها خطابا . وكان من حين لآخر يرنو الى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة . وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة ؟ . وكان كلما جمع فكره ليتأمل تشتت وغلبه الانفعال . كان الأب ـ حتى بعد انزوائه ـ يملأ هذه الحياة ، فلن يكون غريبا اذا وجد غدا البيت غير البيت الذى عهده ، والحياة غير الحياة التى ألفها ، بل عليه منذ اللحظة أن يعــد نفســه لدور جديد . واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يسكتها ولكنه لم يفعل ، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شيء . وعاد يفكر فى اختفاء أبيــه من هذه

الحياة فكبر عليه تصـور هذا ، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه . وذكر صورته القديمة الماثلة فى خاطره ، وهو فى تمام أبهته وقوته ، فشعر برثاء عميق للكائنات جميعـا . ولكن متى يسكت نحيب عائشة ؟ . . . الا تستطيع أن تبكى - مثله - بغير دموع ! .

وفتح باب الحجرة وخرجت أم حنفى ، وترامى اليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم ، فأدرك أنها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء . وتقدمت أم حنفى من عائشة وقالت لها بصوت غليظ :

- كفاية بكاء يا سيدتى . .

ثم تحولت اليه قائلة :

- الفجر لاح يا سيدى ، نم ولو قليلا فأمامك غد عصيب . .

ثم اجهشت فى البكاء . ثم غادرت المكان وهى تقول فى صوت باك :

- سأذهب الى السكرية وقصر الشوق لابلاغ الخبر الأسود .

***

وجاء ياسين مهرولا تتبعه زنوبة ورضوان . ثم ترامى اليهم من الطريق الصامت صوات خديجة . وبوصول خديجة استعرت النار فى البيت جميعا فاختلط الصوات بالصراخ بالبكاء . وتعذر على الرجال البقاء فى الدور الأول فصعدوا الى المكتبة فى الدور الأعلى وجلسوا واجمين . وغشيهم الصمت والوجوم حتى قال ابراهيم شوكت :

- لا حول ولا قوة الا بالله ، قضت عليه الغارة ، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلا ولا كل الرجال . .

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى ، وعند ذاك انفجر كمال باكيا ، فعاد ابراهيم شوكت يقول :

ــ وحدوا الله ، أنتم رجال ، لقد ترككم رجالا ..

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلعون الى الرجلين الباكيين فى حزن ووجوم وشيء من الدهش . وسرعان ما جفف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت ، فقال ابراهيم شوكت :

ــ الصباح قريب ، فلنفكر فيما يجب عمله ..

فقال ياسين فى اقتضاب حزين :

ــ لا جديد فى الأمر فقد جربناه مرات ..

فقال ابراهيم شوكت :

ــ يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه ..

فقال ياسين بتوكيد :

ــ هذا أقل ما يجب !

وهنا قال رضوان :

ــ الشارع أمام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب فلنقم سرادق العزاء فى ميدان بيت القاضى ..

فقال ابراهيم شوكت :

ــ ولكن العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء أمام بيت المتوفى ... ؟

فقال رضوان :

ــ ليس هذا بالمكان الأول من الأهمية خاصة وأنه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب !

وأدرك المستمعون أنه يشير الى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة :

ــ نقيمه هناك ...

وكان احمد يفكر فى الدور المنوط به فقال :

ــ لن نتمكن من نشر النعى فى جرائد الصباح ..

فقال كمال :

ـ جرائد المساء تصــدر حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة فى الساعة الخامسة . .

ـ ليكن ، القرافة قريبة على أى حال .

وتأمل كمال مجرى الحديث فى شىء من العجب . كان الأب فى الساعة الخامسة اليوم فى فراشـــه يتابع الراديو اما فى نفس الساعة غدا . . ! ، الى جانب فهمى وابنى ياسين الصغيرين . ترى ماذا تبقى من فهمى ؟ ، لم يخفف العمر من رغبته القديمة فى التطلع الى جوف القبر ، ترى هل كان الأب حقا يرغب فى قول شىء كما تهيأ له ؟ ، ماذا كان يريد أن يقول ؟. والتفت ياسين اليه متسائلا :

ـ هل شهدت احتضاره ؟

ـ نعم ، عقب انصرافك مباشرة .

ـ تألم ؟

ـ لا أدرى ، من يدرى يا أخى ؟ ، ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق . .

تنهد ياسين ثم تساءل :

ـ ألم يقل شيئا ؟

ـ كلا ، والغالب انه فقد النطق . .

ـ ألم يتشهد ؟

فقال كمال وهو يغض بصره ليدارى تأثره :

ـ قامت أمى بذلك نيابة عنه . .

ـ ليرحمه الله . .

ـ آمين . . .

وساد الصمت مليا حتى خرقه رضوان قائلا :

ـ يجب أن يكون السرادق كبيرا ليتسع للمعزين . .

فقال ياسين :

ـ طبعا ، أصـــدقاؤنا كثيرون ... (ثم وهو ينظر نحـــو عبد المنعم) .. وهناك شعبة الاخوان المسلمين !

ثم متنهدا :

ـ لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على أكتافهم ..

***

ثم كانت الجنازة كما رسموا . وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عددا . أما أصدقاء رضوان فكانوا أعلى مقاما ، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد والمجلات ، وكان رضوان بهم مزهوا حتى كاد يغطي زهوه على حزنه . وشيع أهل الحى « جار العمر » حتى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب التعارف الشخصى ، فلم تكد الجنازة تخلو الا من أصـــدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه الى الدار الآخرة . وعند باب النصر ظهر الشيخ متولى عبد الصمد فى الطريق ، وكان يترنح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيق عينيه ثم سأل :

ـ من هذا ؟

فأجابه رجل من أهل الحى :

ـ المرحوم السيد أحمد عبد الجواد .

فجعل وجه الرجل يهتز يمنة ويسرة فى ارتعاش ، وملامحه تتساءل فى حيرة ، ثم اذا به يسأل :

ـ من أين ؟ ..

فأجابه الرجل وهو يهز رأسه فى شيء من الحزن :

ـ من هذا الحى ، كيف لا تعرفه !. الا تذكر السيد أحمد عبد الجواد ؟! ..

ولكن لم يبد عليه أنه تذكر شيئا ، وألقى نظرة أخرى على النعش ثم سار فى سبيله ..

٣٨

خلا البيت من سيدى فليس هو البيت الذى عاشرته أكثر من خمسين عاما ، والجميع يبكون حولى ، وخديجة لا تفارقنى فهى قلبى العامر بالحزن والذكريات وهى قلب كل قلب بل هى ابنتى وأختى وامى أحيانا ، وأكثر بكائى خلسة حين أخلو الى نفسى اذ ينبغى أن أشجعهم على النسيان فما يهون على أن يحزنوا أو — لا قدر الله — أن ينال منهم الحزن أى منال . أما اذا خلوت الى نفسى فلا أجد عزاء الا فى البكاء فأبكى حتى تجف دموعى ، وأقول لأم حنفى اذا تسللت الى وحدتى الباكية دعينى وشأنى يرحمك الله . فتقول لى كيف أتركك وأنت على هذه الحال ؟. انا عارفة بحالك .. ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنات فعندك نتعلم العزاء والتسليم لقضاء الله .. قول جميل يا أم حنفى ولكن أنّى للقلب المحزون أن يفقه معناه ، ولم يعد لى شأن فى هذه الدنيا ولم يعد لى عمل وكل ساعة من ساعات يومى مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدى .. لم أعرف الحياة الا وهو محورها الذى تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظل ، وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة .. ماحيلتى ماداموا لايدخلونها حتى تتعلق أبصارهم بمكانه الخالى ويجهشون بالبكاء .. وسيدى يستحق الدموع التى تسيل من أجله ، ولكنى لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضة فأعزيهم بما تعزينى به أمحنفى وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه ، ولذلك أخليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت الى حجرة عائشة ، ولكيلا تهجر الحجرة وتستوحش نقلت اليها أثاث الصالة فانتقل اليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول

المجمرة نتحادث كثيرا وتقطع أحاديثنا الدموع ، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الاعــداد للقرافة وأشرف بنفسى على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأوحد الذى لم أتخل عنه لأم حنفى كما تخليت لها عن كل شيء ، تلك المرأة العزيزة الوفية التى دخلت بجدارة فى صميم أسرتنا ، فنحن نعد الرحمة معا ونبكى معا ونتذاكر الأيام الجميلة معا فهى دائما معى بروحها وذاكرتها ، وأمس جر الحديث الى ذكر ليالى رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدى فى رمضان منذ ساعة استيقاظه فى الضحى حتى حين عودته الينا عند السحور، فذكرت بدورى كيف كنت أهرع الى المشربية لأرى الحنطور الذى يعيده وأستمع الى ضحكات راكبيه أولئك الذين ذهبوا تباعا الى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم متع الأبناء بطول العمر وقر اعينهم بأفراح الحياة ، وهذا الصباح رأيت قطتنا تشمم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التى أهديناها الى الجيران فقطع قلبى منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبى الله يصــبرك يا عائشة .. عائشة المسكينة التى هاج موت أبيها حزنها فهى تبكى أباها وابنتها وابنيها وزوجها فما أحر الدموع وأنا التى تجرعت مرارة الثكل قديما حتى سال قلبى دما واليوم أفجع بوفاة سـيدى وتخلو حياتى منه وكان ملء حياتى جميعا ولا يبقى لى من الواجبات الا أن أعد له الرحمة أو أتلقاها من السكرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقى لى ، كلا يابنى ، اختر لنفسك هذه الأيام مجلسا غير مجلسنا الحزين حتى لا تسرى اليك عدواه .. لماذا أنت واجم ؟. الحزن لم يخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعبــاء والأحزان معا .. اصعد الى حجرتك وتسل بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق الى أصحابك فاسهر ، ومن بدء الخليقة فالأعزاء يفارقون ذويهم . فلو كان الاستسلام الى الحزن هو المتبع لما بقى على ظهر

الأرض حى .. لست حزينة كما تتوهم وما ينبغى لمؤمن أن يحزن ، وسوف نعيش اذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل الى العزيز الذى سبق الا حين يشاء الله ، هكذا اقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بى من التصبر والتجلد الا اذا هلت خديجة قلب بيتنا الحى وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش فى البكاء ، وقالت لى عائشة انها رأت أباها فى المنام قابضا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمد بيد حاملا عثمان على كتفه وقال لها انه بخير وانهم بخير فسألته عن سر النافذة التى نورت لها فى السماء ثم توارت الى الأبد فتجلت فى عينيه نظرة عتاب ولم ينبس . ثم سألتنى عن معنى الحلم .. يا حيرة أمك يا عائشة .. غير أنى قلت لها أن العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها فى الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم عينا فلا تنغصى عليهم صفوهم باستسلامك للحزن ، ليت عائشة الزمان الأول تعود ولو ساعة ، ليت الذين حولى يبرأون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق ، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما : هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها ، فقال ياسين : آخذ الخاتم فانه على قد أصبعى ولك الساعة يا كمال أما المسبحة فلك أنت يا نينة .. والجبب والقفاطين ؟.. وذكرت من توى الشيخ متولى عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين : لقد انتهى الرجل فهو فى غيبوبة ولا يعرف له مقر ، وقال كمال مقطبا : لم يعرف أبى !.. نسى اسمه وتولى عن الجنازة دون اكتراث ، فانزعجت وأنا أقول : يا للعجب متى حدث هذا ؟ . كان سيدى يسأل عنه حتى أيامه الأخيرة وكان دائما يحبه ولم يره الا مرة أو مرتين مذ زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة ، ولكن رباه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كله ؟ ثم اقترح ياسين أن تهدى الملابس الى سعاة ديوانه وفراشى مدرسة كمال فليس أحق بها من الفقراء أمثالهم

الذين سيدعون له بالرحمة فى مقره الأخير ، أما المسبحة العزيزة فلن تفارق يدى حتى أفارق الحياة ، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ، ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل اليه الشهيد الغالى ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعتبره حجرة من بيتنـا لكنها فى أطراف حينا ، ويجمعنا القبر جميعا كما كان يجمعنا مجلس القهوة فى الزمن الخالى ، وتنوح خديجة حتى ينال منها الاعياء ثم نؤمر بالسكوت تأدبا لاستماع القرآن ، ثم يشغلهم الحديث حينا فأسر بما يصرف أعزائى عن الحزن ، ويشتبك رضـوان وعبد المنعم واحمد فى نقاش طويل وتنضم اليهم كريمة أحيانا فذاك ما يغرى كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام ، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقص ياسين القصص فتنبعث الحياة فى الأيام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفق قلبى فلا أدرى كيف أدارى دموعى ، وكثيرا ما أرى كمال واجما فأسأله عما به فيقول لى ان صورته لا تفارقنى خاصـة منظر الاحتضار فلو كانت نهـايته أخف !.. فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كله فتساءل : كيف يكون النسيان ؟ فقلت له بالايمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال : كم كنت أخافه فى مطلع حياتى ولكنه تكشف لى فى عهده الأخير عن انسان جـديد بل صـديق حبيب . ألا ما كان أظرفه وأرقه وألطفه ، لم يكن فى الرجال مثله ، وياسـين يبكى كلما أهاجته الذكرى .. كمال حزنه فى صمته الواجم أما ياسين الضخم فيبكى كالأطفال ويقول لى انه الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى ، أجل كان أباه وكان أمه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية الا فى كنفه حتى شدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عنى وردنى الى بيته فصدق فراسة أمى رحمها الله التى ما انفكت تقول لى ان السيد ليس بالرجل الذى يقطع أم أولاده ، وكان يجمعنا حبه فاليوم تجمعنا ذكراه ، أما بيتنا فلا يخلو من الزوار غير أن قلبى

لا يسكن حتى أجد خديجة وياسين وآلهما حولى .. حتى زنوبة
فما أصدق حزنها ، وقالت لى كريمة الصغيرة الجميلة : يا جدتى
تعالى عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقــام الأذكار
وأنت تحبين ذلك ، فقبلتها شاكرة وقلت لها : يا بنيتى جدتك لم
تعتد البيات خارج بيتها .. انها لا تدرى شيئا عن آداب بيت
جدها فى تلك الأيام التى خلت . ما اجمل ذكراها والمشربية آخر
حدود دنياى حيث أنتظر عودة سيدى آخر الليل وهو من قوته
يكاد يهز الأرض عند مغادرته للحنطور ثم يملأ الحجــرة بطوله
وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمنا اليوم فلا يعود ولن يعود
وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورق جسمه وخف وزنه
حتى حمل بيد واحدة . يا حزنى الذى لن يذهب ! وقالتعائشة
فى غضب ان هؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدهم انهم لا يحزنون ،
فقلت لها بل حزنوا ولكنهم صغار ومن رحمة الله بهم الا يغرقوا
فى الحزن فقالت : انظرى الى عبد المنعم لا ينتهى نقاشه ، وهو لم
يحزن على ابنتى وسرعان ما نسيها كأنها شىء لم يكن . فقلت لها :
بل حزن عليها طويلا وبكى كثيرا وحزن الرجال غير حزن النساء
وقلب الأم غير القلوب جميعا ، ومنذا الذى لا ينسى ومنذا الذى
لا ينسى يا عائشة ونحن الا نتسلى بالحديث أو يدركنا الابتسام
أحيانا وسوف يأتى يوم لا يكون فيه دموع . ثم أين فهمى أين .
وقالت لى أم حنفى : لماذا امتنعت عن زيارة الحسين ؟ فقلت :
نفسى فاترة عن كل شىء أحببته وسأزور ســيدى عندما يبرأ
الجرح . فقالت لى : وهل يبرأ الجرح الا بزيارة سيدك ؟. هكذا
ترعانى أم حنفى وهى ربة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت ، انك
يا ربى رب الجميع أنت القــاضى ولا راد لقضائك ولك أصلى ،
وددت لو أبقيت على سيدى قوته حتى النهاية فما آلمنى شىء كما
آلمنى رقاده ، هو الذى كانت الدنيا تضيق عن مراحه .. حتى

الصــلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولا على الأيدى كالطفل لذلك تسيل دموعى ويتكاثف حزنى ..

٣٩

ـ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت خالى ..

رفع ابراهيم شوكت عينيه الى ابنه فى شىء من الدهش ، أما أحمد فحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة دلت على أنه لم يفاجأ بالخبر ، على حين تركت خديجة الشال الذى تطرزه وحدجته بنظرة غريبة غير مصدقة ثم نظرت الى زوجها وهى تتساءل :

ـ ماذا قال ؟

فعاد عبد المنعم يقول :

ـ سأتوكل على الله واخطب كريمة بنت اخيك ..

فبسطت خديجة يديها فى حيرة وقالت :

ـ هل أفلست الدنيا من الذوق ؟ ، أهــذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتى مع صرف النظر عن المخطوبة ؟!

فقال عبد المنعم باسما :

ـ كل الأوقات مناسبة للخطبة ..

فهزت رأسها فى حيرة وهى تتساءل :

ـ وجدك ؟!.. (ثم وهى تردد عينيها بين أحمد وابراهيم) .. هل سمعتم عن شىء كهذا من قبل ؟

فقال عبد المنعم فى شىء من الحدة :

ـ خطبة لا زواج ولا فرح ، وقد انقضى على وفاة جــدى اربعة أشهر كاملة ..

وقال ابراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

- كريمة ما زالت صغيرة ، مظهرها أكبر من سنها فيما أعتقد ..

فقال عبد المنعم :

- هى فى الخامسة عشرة ولن يكتب الكتاب قبل عام ..

فقالت خديجة فى تهكم ومرارة :

- هل أطلعتك زنوبة هانم على شهادة الميلاد ؟

فضحك ابراهيم شوكت ، وضحك أحمد ، أما عبد المنعم فقال جادا :

- لن يتم شيء قبل عام ، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدى حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سن الزواج ..

- ولماذا توجع دماغنا الآن ؟

- لأنه لا بأس من اعلان الخطبة فى الوقت الحاضر .

فتساءلت خديجة فى سخرية :

- وهل تحمض الخطبة اذا أجلت عاما ؟

- أرجوك .. ارجوك أن تكفى عن المزاح ..

فصاحت خديجة :

- لو وقع هذا لكان فضيحة .

فقال عبد المنعم فى هدوء ما استطاع :

- دعى جدتى لى ، ستفهمنى خيرا منك ، انها جدتى وجدة كريمة على السواء .

فقالت بخشونة :

- ليست جدة لكريمة ..

فسكت عبد المنعم وقد نجهم وجهه فبادره أبوه قائلا :

- المسألة مسألة ذوق فيحسن أن ننتظر قليلا ..

فهتفت خديجة حانقة :

ــ يعنى أنه لا اعتراض لك الا على الوقت !

فتساءل عبد المنعم متغابيا :

ــ هل ثمة اعتراض آخر ؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال فاستطرد عبد المنعم قائلا :

ــ كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك ؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة :

ــ هى ابنة أخى حقا ولكن كان ينبغى أن تذكر أمها أيضا !

وتبادلوا النظرات فى اشفاق ، ثم اندفع عبدالمنعم قائلا فى حدة :

ــ أمها زوجة أخيك كذلك !

فارتفع صوتها وهى تقول :

ــ أعلم هذا ، وهو ما يؤسف له !

ــ ذلك الماضى المنسى ! ، من يذكره الآن ؟! ، لم تعد الا سيدة محترمة مثلك !

فقالت بصوت غليظ :

ــ ليست مثلى ولن تكون مثلى أبدا !

ــ ماذا يعيبها ؟ ! ، عرفناها منذ صغرنا سيدة محترمة بكل معنى الكلمة ، والانسان اذا تاب واستقام محيت صفحة سوابقه فلا يذكره بها بعد ذلك الا . . .

وأمسك ، فقالت وهى تهز رأسها فى أسف :

ــ نعم ؟ ، صفنى ! ، سب أمك اكراما لهذه المرأة التى عرفت كيف تأكل مخك ، طالما تساءلت عما وراء الدعوات المتتابعة الى ولائم قصر الشوق ، واذا بك تقع كالجردل !

فردد عبد المنعم عينيه غاضبا بين أبيه وأخيه ثم تساءل :

ــ أهذا الكلام يليق بنا ؟ ، أسمعانى رأيكما . . ؟

فقال ابراهيم شوكت متثائبا :

لا داعى لكثرة الكلام ، عبد المنعم سـيتزوج ان اليوم أو غدا ، وانت تودين هذا ، وكريمة ابنتنا ، وهى بنت جميلة ولطيفة ، لا داعى للشوشرة ..

وقال احمد :

ــ انت يا نينة أول من يود ارضاء خالى ياسين !.

فقالت خديجة محتدة :

ــ كلكم ضـدى كالعادة ، ولا حجة لكم الا خالى ياسين !. ياسين أخى ، وكان خطأه الأول أنه لم يعرف كيف يتزوج ، وعنه ورث ابن اخته هذا المزاج الغريب ..

فتساءل عبد المنعم فى عجب :

ــ أليسـت امرأة خالى صـديقتك ؟ . من يراكمـا وانتما تتناجيان يظنكما شقيقتين !

ــ ما حيلتى فى امرأة سياسية مثل اللنبى ؟ . لكن لو ترك لى الأمرأو لو لم اراع خاطر ياسين ما سمحت لها بدخول بيتى ، وماذا كانت النتيجة ؟. أكلت مخك بالولائم المغرضـة ، وعليه العوض !.

عند ذاك قال أحمد مخاطبا أخاه :

ــ اخطبها وقتما تشاء ، نينة لسانها كثير الكلام ولكن قلبها طيب ...

فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

ــ عفـارم يا ولد !. تختلفـان فى كل شيء فى الدين والملة والسياسة ، أما على فتتحدان !.

فقال أحمد فى مرح :

ــ خالى ياسين أغلى الناس عندك ، وسوف ترحبين بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب ، الحكاية انك تودين عروسـا غريبة حتى تتمكنى ــ كحماة ــ من اضطهادها ، حسن ، على أنا أن أحقق

لك هذا الأمل ، سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفى غليلك !.

— لا عجب ان جئتنى غدا براقصة !. علام تضحكون ؟!. هذا شيخ الاسلام سيصاهر عالمة فماذا أتوقع منك أنت المتهم فى دينه والعياذ بالله ؟!.

— نحن فى حاجة الى راقصة بالفعل !.

واذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمرا خطيراً :

— وعائشة يا ربى ترى ماذا تقول عنا ؟.

فقال عبد المنعم محتجا :

— ماذا تقول ؟. لقد توفيت زوجتى منذ أربع سنوات كاملة فهل تود أن أبقى ارمل مدى العمر ؟!.

فقال ابراهيم شوكت فى ضجر :

— لا تخلقوا من الحبة قبة ، المسألة أبسط من هـذا كله ، كريمة ابنة ياسين ، ياسين أخو خديجة وعائشة ، حسبنا هذا ، أف ، كل شىء عندكم نقار حتى الأفراح !؟.

واختلس أحمد من أمه نظرة باسمة ، وجعل يراقبها حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة . وراح يقول لنفسه : هذه الطبقة البورجوازية كلها عقد ، تحتاج الى محلل نفسانى بارع ليشفيها من كافة عللها ، محلل له قوة التاريخ نفسه !. لو هادننى الحظ لسبقت أخى الى الزواج ولكن البورجوازية الأخرى اشترطت مرتبا لا يقل عن خمسين جنيها ، هكذا تجرح قلوب لأمور لا شأن لها بالقلوب ، ترى ماذا يكون رأى سوسن حماد لو علمت بمغامرتى الفاشلة ؟!.

٤٠

كان الجو شديد البرودة ، ولم يكن خان الخليلى الرطب مما يؤثر شتاء ، ولكن رياض قلدس نفسه آلذى أشار ذلك المساء بالذهاب الى قهوة خان الخليلى التى شيدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض ، أو كما قال « علمنى كمال على آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب » . كانت قهوة صغيرة ، بابها يفتح على حى الحسين ، ثم تمتد طولا فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد . جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى ويدخنون نارجيلة بالمناوبة . وكان اسماعيل لطيف يقول :

ـ انا فى اجازة للاستعداد ومن ثم أسافر . .

فتساءل كمال فى أسف :

ـ ستغيب عنا ثلاثة أعوام ؟ .

ـ نعم ، لابد من المغامرة ، مرتب ضخم لا أتخيل أن أناله يوما هنا ، ثم ان العراق بلد عربى لا يختلف عن مصر كثيرا . .

سيخلف وحشة ، لم يكن صديق الروح ولكنه صديق العمر ، وتساءل رياض قلدس ضاحكا :

ـ ألا يحتاج العراق آلى مترجمين ؟

فسأله كمال :

ـ أتسافر اذا سنحت لك فرصة كفرصة اسماعيل ؟

ـ لو حدثت فى الماضى ما ترددت أما اليوم فلا . .

ـ وما الفرق بين الماضى والحاضر ؟

فقال رياض قلدس ضاحكا :

- بالنسبة لك لا شيء ، أما بالنسبة لى فهو كل شيء ، الظاهر انى سأنضم قريبا الى جماعة المتزوجين !

دهش كمال للخبر الذى وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه .

- حقا ؟! ، لم تشر الى ذلك من قبل !

- بلى ، جاء بغتة ، فى آخر مقابلة ، فى آخر مقابلة بيننا لم يكن فى البال شيء !

ضحك اسماعيل لطيف فى ظفر ، أما كمال فتساءل وهو يحاول أن يبتسم :

- كيف ؟

- كيف ! ، كما يحدث كل يوم ، مدرسة جاءت لزيارة أخيها فى ادارة الترجمة فأعجبتنى ، فجسست النبض فوجدت من يقول « تفضل » ..

تساءل اسماعيل ضاحكا وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال :

- ترى متى يجس هذا (مشيرا الى كمال) النبض ؟

هكذا اسماعيل لا يفوت فرصة أبدا لاثارة هذا الموضوع المعاد ، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا ، فجميع الأصدقاء المتزوجين يقولون أن الزواج « زنزانة » ، فمن المحتمل جدا ألا يرى رياض - اذا تزوج - الا فى القليل النادر ، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقا بالمراسلة ، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه ، ولكن كيف تمضى الحياة بدونه ؟ ، واذا جعل الزواج منه شخصا جديدا كاسماعيل فسلام على كافة مسرات الحياة !. وسأله :

- ومتى تتزوج ؟

- فى الشتاء القادم على أبعد الفروض ..

كأنما قضى عليه أن يفتقد دواما صديقا لروحه المعذبة .

ـ عند ذاك ستكون رياض قلدس آخر !

ـ لمه ؟ . . . انت واهم جدا . .

فقال وهو يدارى قلقه بابتسامة :

ـ واهم ؟! ، رياض اليوم شخص لا يشبع روحه شىء ويقنع جيبه بلا شىء ، اما الزوج فلن يشبع جيبه أبدا ولن يجد فرصة لمتاع الروح . .

ـ يا له من تعريف جارح للزوج ، ولكنى لا أوافقك عليه . .

ـ كاسماعيل الذى اضطر الى الهجرة الى العراق ، لست أسخر من هذا ، فهو طبيعي فوق انه بطولة ، ولكنه فى الوقت نفسه بشع ، تصور أن تغرق حتى قمة رأسك فى هموم الحياة اليومية ، ألا تفكر الا فى مشكلات الرزق ، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم ، أن تمسى شاعرية الحياة ضياع وقت !

فقال رياض فى استهانة :

ـ أوهام مبعثها الخوف !

وقال اسماعيل لطيف :

ـ آه لو تعرف الزواج والأبوة ، لقد فاتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة . . .

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه ، ولو صح هذا فحياته مأساة سخيفة ، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق ؟ ، غير أن الذى يكربه الآن انه بات مهددا بالوحدة المرعبة مرة أخرى ، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته ، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض ؟! ، هذا ما يروم حقا ، جسم عطية وروح رياض فى شخص واحد يتزوجه فلا يتهدده الشعور بالوحدة حتى الموت ، هذه هى المشكلة . واذا برياض يقول فى ضجر :

ـ دعونا من حديث الزواج ، لقد انتهيت منه وعقبى لك ،

على أن ثمة أحداثا سياسية هامة هى التى ينبغى أن تستأثر اليوم باهتمامنا ..

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس ، أما اسماعيل لطيف فقال ضاحكا :

ــ عرف النحاس كيف ينتقم لاقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية !

وتريث رياض ليعطى كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام فقال رياض فى لهجة متجهمة :

ــ انتقام ؟ ! ، ان خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة ..

ــ فما الحقيقة ؟

وألقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلا :

ــ ليس النحاس بالرجل الذى يتآمر مع الانجليز فى سبيل العودة الى الحكم ، ان أحمد ماهر مجنون ، هو الذى خان الشعب وانضم الى الملك ، ثم أراد أن يغطى مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذى أعلنه أمام الصحفيين ..

ثم نظر الى كمال مستطلعا رأيه ، وكان حديث السياسة قد جذب أخيرا بعض اهتمامه غير انه شعر برغبة فى معارضة رياض ولو بعض الشىء فقال :

ــ لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف ، ولست أشك فى وطنيته مطلقا ، ان الانسان لا ينقلب فى هذه السن الى خائن ليتولى وظيفة تولاها خمس مرات أو ستا من قبل ، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالى ..؟

ــ أنت شكاك لا نهاية لشكك ، ما الموقف المثالى .. ؟

— أن يصر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للانذار البريطانى وليكن ما يكون .

— ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكرى بريطانى .؟

— ولو ! ...

تنهد رياض فى غيظ وقال :

— نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة ، أما السياسى فأمامه مسئولية خطيرة ، فى هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد عسكرى انجليزى ؟ ، واذا انتصر الحلفاء — ويجب أن نفترض هذا أيضا — فنكون فى صفوف الأعداء المنهزمين ، السياسة ليست مثالية شعرية ولكنها واقعية حكيمة ..

— لا زلت أومن بالنحاس ، ولكن لعله أخطأ ، لا أقول تآمر أو خان ...

— المسئولية تقع على العابثين الذين مالأوا الفاشست من وراء ظهور الانجليز كان الفاشست سيحترمون استقلالنا ، أليس بيننا وبين الانجليز معاهدة ؟ ، وأليس الشرف يقضى علينا باحترام كلمتنا ؟ ، ثم ألسنا ديموقراطيين يهمنا أن تنتصر الديموقراطية على النازية التى تضعنا فى جدول الأمم والأجناس فى أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية ؟! ..

— معك فى هذا كله ، ولكن الخضوع للانذار البريطانى جعل من استقلالنا وهماً !

— احتج الرجل على الانذار ونزل الانجليز عند رأيه ..

فضحك اسماعيل عاليا ثم قال :

— يا عينى على الاحتجاج الانجلو اجبشيان !

غير أنه سرعان ما قال جادا :

— انى أقره على ما فعل ، ولو كنت مكانه لفعلته ، رجل

أبعد رغم أغلبيته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه ، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ ، ففى سبيل أى شىء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكرى انجليزى ؟ !

وازداد وجه رياض تجهما ، أما كمال فابتسم قائلا فى هدوء بدا غريبا :

ـ أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ ، لاشك أنه أنقذ الموقف ، أنقذ العرش والبلاد ، ثم ان العبرة بالخاتمة ، فاذا ذكر له الانجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير ..

اسماعيل هازئا وهو يصفق طالبا جمرات للنارجيلة :

ـ اذا ذكر الانجليز صنيعه ! ، وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقيلونه قبل ذلك !

فقال رياض بايمان :

ـ الرجل تقدم لحمل أكبر مسئولية فى أحرج الظروف ..

فقال كمال باسما :

ـ كما ستتقدم لحمل أكبر مسئولية فى حياتك !

فضحك رياض ، ثم نهض قائلا « عن اذنكم » ومضى فى اتجاه دورة المياه . وعند ذاك مال اسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم :

ـ فى الأسبوع الماضى زار والدتى « جماعة » لا شك انك تذكرهم !

فنظر كمال اليه مستطلعا وهو يتساءل :

ـ من ؟ ..

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عايدة !

وقع الاسم من أذنيه موقعا غريبا ، فغطت غرابة موقعه على كافة الانفعالات التى كان حريا بأن يثيرها ، وبدا حينا كأنما هو

صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه ، وكل شيء كان متوقعا الا هذا ، ومضت لحظات وكان الاسم ليس له معنى ، من عايدة ؟ أى عايدة ؟ ، يا للتاريخ ! ، كم عاما مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه ؟ ، منذ ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ ؟ ، ستة عشر عاما أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومنى بالاخفاق ! ، لقد طعن فى السن حقا ، عايدة ؟ ! ، ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى ؟ ، لا شيء ! ، ليس الا اهتماما عاطفيا مشوبا بشيء من الانفعال كمن تمس يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى . وتمتم متسائلا :

ـــ عايدة ؟

ـــ نعم ، عايدة شداد الا تذكرها ؟ ، أخت حسين شداد !

وشعر بمضايقة تحت عينى اسماعيل فقال متهربا :

ـــ حسين ! ، ترى ما أخبار حسين ؟

ـــ من يدرى ؟

وشعر بسخف تهربه ، ولكن ما حيلته وقد أحس بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة ؟ ، وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشيء .. كالطعام ! ، نشعر به بقوة وهو على المائدة ، ثم وهو فى المعدة ، ثم وهو فى الأمعاء على نحو ما ، ثم وهو فى الدم على نحو آخر ، حتى يستحيل خلايا ثم تتجدد الخلايا بمرور الزمن فلا يبقى منه أثر ، لكن ربما بقى منه صدى فى الأعماق هو ما نسميه بالنسيان ، وقد يعرض للانسان « صوت » قديم فيدفع بهذا النسيان الى قريب من منطقة الوعى فيسمع الصدى على وجه ما ، والا فما هذا الاضطراب ؟ ، أم لعله الحنين الى عايدة لا باعتبارها المحبوبة التى كانت ـــ فقد انتهى هذا الى غير رجعة ـــ ولكن باعتبارها رمزا للحب الذى كثيرا مايستوحش غيبته الطويلة ، مجرد رمز كالخربة المهجورة التى تثير ذكريات تاريخية جليلة .

وعاد اسماعيل يقول :

ـ وتحادثنا طويلا ـ أنا وعايدة وأمى وزوجى ـ فروت لنا كيف هربت هى وزوجها بل وجميع ممثلى الدول السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتى لاذا باسبانيا ، وأنهما نقلا أخيرا الى آيران ؛ ثم رجعنا الى أيام زمان وضحكنا كثيراً . .

مهما يكن من أمر الحب الذى مات فقلبه يبعث حنينا مسكرا ، وأوتار الأعماق التى تهتكت أخذت تصعد أنغاما بالغة فى الخفوت والحزن . وتساءل :

ـ ما شكلها الآن ؟

ـ لعلهـا فى الأربعين ، كلا أنا أكبر منهـا بعامين ، عايدة فى السابعة والثلاثين ، وامتلأت قليلا عما كانت ، لكنها مازالت محتفظة برشاقتها ، ووجهها هو هو تقريبا فيما عدا نظـرة عينيها التى أصبحت توحى بالجد والرزانة ، وقالت انها أنجبت ابنا فى الرابعة عشرة وبنتا فى العاشرة . .

هذه هى عايدة اذن ، لم تكن حلما ولم يكن تاريخها وهما ، فقد تمر لحظات فيبدو ذلك الماضى كأنه لم يكن ، وهى زوجة وأم وتذكر الماضى وتضحك كثيرا ، ولكن ما حقيقة صورتها ؟ ، وماذا بقى من هذه الحقيقة فى الذاكرة ؟ ، فلشد ما تتغير المناظر فى أثناء حفظها بالمذاكرة ، وهو يود أن يلقى نظـرة ثابتة على هـذا الكائن البشرى لعله يقف على السر الذى مكنه قديما من أن يفعـل به الأفاعيل .

وعاد رياض الى مجلسـه فخاف كمال أن يقطـع اسماعيل حديثه ولكنه واصله قائلا :

ـ وسألوا عنك !

ردد رياض نظره بينهما فأدرك أن حديثا خاصا يدور بينهما

فعدل عنهما الى النارجيلة ، أما كمال فقد شعر بأن جملة « سألوا عنك » توشك أن تودى بقوة مناعته كأشد الميكروبات فتكا ، وتساءل وهو يبذل اقصى ما يملك من قوة ليبدو طبيعيا :

ــ لماذا ؟

ــ سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثم سألوا عنك فقلت : مدرس بمدرسة السلحدار وفيلسوف كبير ينشر مقالات لا أفهمها فى مجلة الفكر التى لا أفتحها فضحكوا ثم سألوا « هل تزوج ؟ » فقلت كلا . .

فوجد نفسه يسأل :

ــ ماذا قالوا ؟

ــ لا أذكر ماذا حولنا عن هذا الحديث ؟

ان المرض الكامن يهدد بالانفجار ، والذى مرض قديما بالسل يجب أن يحذر البرد ، أما جملة سألوا عنك فما أشبهها بأنغام الصبا فى بساطة معناها وشديد نفاذها فى النفس ، وقد يطرأ ظرف فتعبر النفس حال عاطفية مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع . . . كالمطر فى غير أوانه ، على ذلك شعر فى هذه اللحظة العابرة بأنه انقلب ذلك العاشق القديم ، وأنه يعانى الحب حيا بكافة أنغامه السارة والحزينة ، ولكن الخطر لم يكن يتهدده بصفة جدية فهو كالحالم المكروب الذى يداخله شعور ملطف بأن ما يراه حلما لا حقيقة ، لكنه تمنى فى تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو لبضع دقائق فتعترف بأنها بادلته عاطفته يوما أو بعض يوم وأن فارق السن أو غيره هو الذى فرق بينهما ! ، لو وقعت هذه المعجزة لعزته عن كافة آلامه قديمها وحديثها ولعد نفسه سعيدا فى الخلق وأن الحياة لم تمض عبثا ، بيد أنها صحوة كاذبة كصحوة الموت ، والأحرى به أن يقنع بالنسيان ، وهو نصر

ولو انطوى على هزيمة ، وليكن عزاؤه أنه ليس الوحيد فى البشر الذى منى بخيبة الحياة . وتساءل :

ــ متى يسافرون الى ايران ؟

ــ سافروا أمس أو هذا ما أخبرتنى به فى زيارتها ..

ــ وكيف تلقت كارثة أسرتها ؟

ــ تجنبت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هى اليه !

واذا برياض قلدس يهتف مشيرا أمامه « انظروا » فنظرا الى الجناح الأيسر من الشرفة فرأيا امرأة غريبة الشكل. كانت فى الحلقة السابعة ، نحيلة الجسد ، حافية القدمين ، ترتدى جلبابا مما يرتدى الرجال ، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أى أثر الشعر فهى صلعاء أو قرعاء ، أما وجهها فبدا غارقا فى أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معا ، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عيناها ترسلان فى جميع الجهات نظرات تودد واستعطاف باسم . تساءل رياض باهتمام :

ــ شحاذة ؟

فقال اسماعيل :

ــ مجذوبة على الأرجح ..

وقفت تنظر الى المقاعد الخالية فى الجناح الأيسر ثم اختارت مقعدا وجلست . عند ذاك انتبهت الى أعين المحدقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت :

ــ مساء الخير يا رجال !

فرحب رياض بتحيتها وقال بحرارة :

ــ مساء الخير يا حاجة !

فندت عنها ضحكة ذكرت اسماعيل ــ على حد قوله ــ بالأزبكية فى عزها ! .. وقالت :

ــ حاجة ! ، نعم أنا كذلك ان كنت تقصد المسجد « الحرام » !

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت باغراء :

ــ اطلبوا لى الشاى والنارجيلة ولكم الأجر عند الله ..

قصفق رياض بحماس ليطلب لهـا ما أرادت ومال على أذن كمال هامسـا « هكذا تبدأ بعض القصص » أما العجـوز فقد ضحكت فى سرور وقالت :

ــ هذا كرم أيام زمان ! . . . اغنياء حرب يا أولادى ؟

فقال كمال ضاحكا :

ــ نحن فقراء حرب ، اى موظفون يا حاجة . .

وسألها رياض :

ــ ما الاسم الكريم ؟

فارتفع رأسها فى كبرياء مضحك وقالت :

ــ السلطانة زبيدة على سن ورمح !

ــ السلطانة ؟ !

ــ نعم .. (ثم وهى تضحك) .. ولكن رعيتى ماتوا !

ــ الله يرحمهم !

ــ الله يرحم الأحياء أما الأموات فحسـبهم انهم بين يدى الله . . ، خبرونى من أنتم ؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاى وهو يبتسم ، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم :

ــ تعرفونها ؟

ــ من هى ؟

ــ زبيدة العالمة ، أشـهر عالمة فى زمانها ، ثم انتهى بها العمر والكوكايين الى ما ترون !

خيل الى كمال انه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أما رياض قلدس فقد ارتفع اهتمامه الى الذروة فجعل يحث أصحابه على

أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال اسماعيل مقدما نفسه :

ـ اسماعيل لطيف .

فقالت ضاحكة وهى ترشف الشاى قبل أن يبرد :

ـ عاشت الأسماء ولو أنه اسم لا معنى له ..

فضحكوا ، وفى ذات الوقت سبها اسماعيل بصوت لم تسمعه ، أما رياض قلدس فقال :

ـ رياض قلدس .

ـ كافر ؟ ! ، عشقنى واحد منكم كان تاجرا فى الموسكى اسمه يوسف غطاس ، كان قد الدنيا ، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح .. !

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة فى وجهها ثم اتجه بصرها الى كمال فقال

ـ كمال أحمد عبد الجواد .

وكانت تقرب قدح الشاى من فيها فتوقفت يدها فى يقظة طارئة ثم حملقت فى وجهه متسائلة :

ـ قلت ماذا ؟

فأجاب عنه رياض قلدس :

ـ كمال احمد عبد الجواد ..

فأخذت نفسا من النارجيلة وقالت وكأنما تخاطب نفسها :

أحمد عبد الجواد ! ، ولكن ما أكثر الأسماء ! ، كالقروش أيام زمان .. (ثم مخاطبة كمال) .. والدك تاجر النحاسين ؟

فدهش كمال وقال :

ـ نعم .

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال وهتفت :

ـ أنت ابن أحمد عبد الجواد ! ، يا بن الرفيــق الغــالى ! ، ولكنك لا تشبهه ! ، هذا أنفه حقا ، ولكنه كان كالبدر فى ليلتــه ، ما عليك الا ان تذكره بالسلطانة زبيدة وهو يحدثك عنى بما فيــه الكفاية !

اغرق رياض واسماعيل فى الضحك ، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك ، وهنا فقط تذكر حديث ياســين فى الزمن الخالى ، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالمة ! . وعادت تســائله :

ـ كيف حال السيد ؟ . انقطعت من زمن طويل حن حيــكم الذى نبذنى ، أنا الآن من أهل الامام ، ولــكنى أحن الى الحســين فأزوره كل حين ومين ، وكنت مريضة وطال بى المرض حتى ضاق بى الجيران فلولا الملام لرمونى فى القبر حية ، كيف حال السيد ؟ .

فقال كمال فى شىء من الوجوم :

ـ توفى منذ اربعة أشهر . .

فقطبت قليلا و قالت :

ـ الى رحمة الله ، يا خسارة ، كان رجلا ولا كل الرجال . .

ثم عادت الى مجلسها ، وبغتة ضحكت ضحكة عالية ، وما ابثت أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذرا :

ـ كفاية ضحك ، سكتنا له دخل بحماره ، كتر خير البكوات على اكرامهم لك ، ولكن ان عدت الى الزياط فالباب من هنا . .

فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل ، ثم نظرت اليهم باسمة ، ثم سألت كمال :

ـ وأنت كأبيك أم لا ؟ . .

وأتت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء و قال اسماعيل :

ـ انه لم يتزوج بعد ! ..

فقالت فى لهجة ارتياب عابث :

ـ الظاهر انك ابن أونطة ! . .

فضحكوا ، ثم نهض رياض ، ومضى اليها فجلس الى جانبها وهو يقول :

ـ حصل لنا الشرف يا سلطانة ، ولكنى أود أن أسمع لك وأنت تحدثينا عن أيام السلطنة ! .

٤١

لم يبق الا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة ، أما قاعة ايوارت فقد قاربت الامتلاء . ان مستر روجر ـ كما قال رياض قلدس ـ أستاذ خطير ، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلم عن شكسبير . أجل قيل ان المحاضرة لن تخلو فى النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا يهم فى ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير . غير أن رياض كان مغتما واجما ، ولولا أنه هو الذى دعا كمال الى سماع المحاضرة لتخلف عن شهودها . وكان حزينا كما ينبغى لرجل مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار . وكان يهمس فى أذن كمال بانفعال غير خاف :

ـ يفصل مكرم من الوفد ! . كيف تقع هذه الخوارق ! .

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز راسه فى وجوم دون أن ينبس :

ـ انها كارثة قومية يا كمال ، ما كان ينبغى أن تتهاوى الأمور حتى هذا الحضيض . .

ـ نعم ، ولكن من المسئول ؟ .

ـ النحاس ! . قد يكون مكرم عصبيا ، ولكن الفساد الذى تسرب الى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت عليه .

فقال كمال باسما :

ـ دعنا من الفساد الحكومى ، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هى لضياع النفوذ . . .

فتساءل رياض فى شيء من التسليم :

ـ أيباع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة ؟ . .

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلا :

ـ لقد بعت نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة ! .

ولكن رياض قال دون أن يبتسم :

ـ أجبنى ! . .

ـ مكرم عصبى ، شاعر ومغن ! . عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئا على الاطلاق ، وجد نفوذه المأثور يتقلص فثار ، ثم وقف لهم وقفته فى مجلس الوزراء منددا علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون ، حدث يؤسف له .

ـ والنتيجة ؟ .

ـ هنالك السراى تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد فى الوفد ، وستحتضن مكرم فى الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل ، سنرى من الآن فصاعدا مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراى ، أما هـذا واما العزلة ، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحـاس أو أكثر ، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد الا كراهة فى مكرم ولكنهم سيحتضونه ليهدموا به الوفد ، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به . .

فعبس رياض وقال :

ـ صورة بشعة ، أخطأ الاثنان ، النحاس ومكرم ، ان قلبى متشائم من هذه الحركة . .

ثم بصوت أشد انخفاضا :

ـ سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى ، أو يأوون الى حصن

عدوهم اللدود « الملك » وهو مأوى لن يدوم لهم طويلا ، واذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال ؟ .

فتساءل كمال متغابيا :

ـ لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة ؟ . مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم ، انه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومى فلن يذهب . . .

فهز رياض رأسه فى أسف ساخر وقال :

ـ هذا ما قد يكتب فى الجرائد ، أما الحقيقة فهى ما أعنى ، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد ، وهم يتلمسون الأمان ، وأخشى ألا يظفروا به أبدا ، لقد جاءتنى السياسة أخيرا بعقدة جديدة كعقدة الدين ، فكما كنت أنبذ الدين بعقلى وأميل اليه بقلبى بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبى وأميل اليه بعقلى ، اذا قلت انى وفدى كذبت قلبى واذا قلت انى عدو للوفد خنت عقلى ، انها كارثة لم تخطر لى على بال ، والظاهر أنه مقضى علينا نحن الأقباط بأن نعيش فى شخصيات منقسمة أبدا ، لو كانت مجموعتنا فردا واحدا لجن ! .

شعر كمال بامتعاض وألم ، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفجعة ، ثم قال فى صوت لا ينم عن ايمان :

ـ عسى أن تكون مشكلة وهمية ، اذا نظرتم الى مكرم كرجل سياسى لا الأمة القبطية جميعا ! .

ـ هل ينظر اليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو ؟ ! .

ـ هكذا أنظر اليه أنا ! .

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال :

ـ انى أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت ؟ .

ـ أليس موقفنا واحدا أعنى أنا وأنت ؟ .

ــ بلى ، مع فارق بســيط ، وهو أنك لست من الأقليــة .. (ثم وهو يبتسم) لو عشت فى عصر الفتح الاسلامى وتكشف لى الغيب لدعوت الأقباط جميعا الى الدخول فى دين الله ! ..

ثم فى شىء من الاحتجاج :

ــ انك لا تصغى الى .. !

أجل ! ، كانت عيناه مصوبتين نحو مدخل القــاعة . ونظر رياض الى حيث ينظر فرأى فتاة فى مقتبل العمر ، ترتدى فستانا رماديا بسيطا ، فى هيئة الطالبات ، وقد جلست فى المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات .

ــ تعرفهــا ؟ ..

ــ لا أدرى ؟ ..

وانقطعت فرصة الكلام اذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد ، ثم ساد الصمت الذى تبدو فيــه السعلة كالذنب الفاضح ، ثم قدمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة ، ثم بدأ الرجل فى القاء محــاضرته . وظل كمــال أكثر الوقت متجه العينين نحو رأس الفتاة فى تساؤل واهتمام . وكان قد رآها مصادفة عند دخولها ، فدهمه منظرها ، وانتزعته بقوة من تيار أفكاره ، ثم قذفت به فى الماضى عشرين عاما ثم استردته الى الحاضر وهو يلهث . خيل اليه أول الأمر أنه يرى عايدة . غير أنها لم تكن عايدة دون ريب .. هذه الفتاة التى لا يمكن أن تجاوز العشرين . ولم يتح له وقت كاف كى يتفحص قسماتها ولكن جملة منظرها كان فيه الكفاية ، هيئة الوجه والقــامة والروح ومجتلى العينين ، أجل لم ير هاتين العينين فى غير وجه عايدة من قبل . أتكون شقيقتها ؟ . خطر له هذا الرأى أول ما خطر . بدور . ولم يغب عنه الاسم هذه المرة . وسرعان ما ذكر صداقتها له فى الماضى البعيد ، ولكن هيهات ــ أن تكن حقا هى ــ أن تتذكره . المهم أن

صورتها أيقظت قلبه ، ردته ولو الى حين الى شيء من تلك الحياة الغامرة الغنية التى اكتظ بها زمنا ، فهو فى اضطراب ، يسمع الى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر الى رأس الفتاة أكثر الوقت ، ثم يغرق فى موجة الذكريات ، مستشعرا فى أناة جملة المشاعر التى تتلاحم وتصطرع فى وجدانه . فلأتبعها لأعرف حقيقتها ، لا غاية لى ولكن الملول مشاء ، انى أتوق لأى شيء قد يمسح عن روحى الصدأ المتكاثف فوقها . وتربص مبيتا هذه النية . ترى أطالت المحاضرة أم قصرت ؟.. لا يدرى ، ولكنه عند انتهـــائها أفضى بغرضه الى رياض ثم ودعه وسار فى أثر الفتـــاة . تابع بعناية مشيتها ، مشية رشيقة ، قامة هيفاء ، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأن الأخرى لم يعد متوكدا منها ، أما القامة فأغلب الظن انها هى هى ، وكان شعر الأخرى « ألاجرسون » أما هذا الشعر فغزير معقوص ، ولكن اللون الأسود واحد فى الحالين ما فى ذلك شك . ولم يستطع أيضا أن يتفحص وجهها على محطة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين ، ولكنها استقلت الترام رقم ١٥ الذاهب الى العتبـــة وانحشرت فى الحريم فاســتقله وراءها وهو يتساءل ترى أهى فى طريقها الى العباسية أم أن ما يفترضه ليس الا أضغاث أحلام ؟. عايدة لم تستقل تراما فى حياتها قط ، كان رهن أمرها سيارتان ، أما هذه المسكينة . . ! وداخله حزن كحزنه يوم استمع الى قصة افلاس شداد بك وانتحاره . وأفرغ الترام أكثر حمولته فى العتبة فاختار موقفا غير بعيد منها فوق طوار المحطة ، وجعلت تنظر صوب الناحية التى تترقب مجيء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل ، ذلك العهد القديم ، ثم لاحظ أن بشرتها قمحية اللون مع ميل الى البياض ، ليست خمرية كالصورة الذاهبة ، فشعر لذلك بأول أسف منذ تبعها . كأنما تبعها ليرى الأخرى . ثم جاء ترام العباسية فتأهبت للركوب ، ولمـــا وجدت

الحريم مزدحمة استقلت عربة الدرجة الثانية ، ولم يتردد فكان في أعقابها ، وجلست فجلس الى جانبها ، ثم امتلأت المقاعد على الصفين ، ثم امتلأ ما بينهما بالواقفين . ووجد لتوفيقه فى الجلوس الى جانبها ارتياحا لا مزيد عليه ، غير أن جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرة أخرى ، وربما لم يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين ، القديمة الخالدة والماثلة الى جانبه . وكان منكبه يلامس منكبها ملامسة خفيفة كلما ند عن الترام حركة مفاجئة خاصة عند القيام والوقوف . وجعل يلاحظها كلما أمكن ويتفحصها ما استطاع . هاتان العينان السوداوان الساجيتان ، والحاجبان المقرونان ، والأنف السوى اللطيف ، والوجه البدرى . كأنه ينظر الى عايدة . حقا ؟ . كلا ، ثمة تباين فى لون البشرة ، ولمسة اختلاف هنا أو هناك ، لا يذكر ان كانت الى الزيادة هى أم الى النقصان ، ومع أن تباينهما كان يسيراً الا أن احساسه به كان خطيرا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التى قد تكون فاصلا بين الصحة والمرض ، ولكنه كان فى الوقت نفسه حيال أقرب مثال الى عايدة التى خيل اليه أنه بات يذكرها أوضح من أى وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل . والجسم لعله هو هو ، ما أكثر ما تساءل عنه ، فلعله الآن يراه ، وهو رشيق نحيل ، صدره آية فى الحياء ، كذلك هو فى جملته ، لا يمت بسبب الى جسم عطية البض المدملج الذى يتعشقه ! . فهل فسد ذوقه على الأيام ؟. أو أن حبه القديم كان ثائرا على غريزته الكامنة ؟. بيد أنه كان حيا سعيدا حالما ثمل القلب بنشوات الذكريات ، وكانت ملامساته المتقطعة لها تزيد نشوة واغراقا فى التأملات ، انه لم يمس عايدة ، كان يراها أبدا مستحيلة المنال ، أما هذه الصغيرة فهى تسير فى الأسواق وتجلس فى تواضع بين جمهور الدرجة الثانية ، فما أشد حزنه ، وذلك التباين الطفيف الذى أحنقه وخيب أمله ، وقضى

على حبه القديم بأن يبقى لغزا الى الأبد . وجاء الكمسارى مناديا « التذاكر والأبونيهات » ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتى يصل الرجل اليها ، فاسترق الى التذكرة النظر حتى عثر على اسمها « بدور عبد الحميد شداد . . طالبة بكلية الآداب » ، لم يعد ثمة شك ، ان قلبى يخفق أكثر مما ينبغى ، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك !. كى أحتفظ بأقرب صورة لعايدة ، آه لو كان فى الامكان هذا ، مدرس فى السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلية الآداب ؟. يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد ، فيلسوف فاشل فى حدود الأربعين ! . ترى ما سن بدور ؟. لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهى فى الواحد والعشرين من عمرها السعيد ، السعيد ؟ ! . لا قصر ولا سيارة ولا خدم ولا حشم ، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلت الكارثة بأسرتها ، وهو عمر حرى بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم ، تألمت المسكينة وذعرت ، ابتليت بهذا الشعور القاسى الذى أصبحت به جد خبير ، جمعنا الألم على تفاوت فى الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية . وجاءها الكمسارى فسمعها وهى تقول له « تفضل » ثم ناولته التذكرة . وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرا طويلا ثم انبعثت فى السمع بكل حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحيت فترة سماوية من الزمن ، دومت أذنه فى مملكة الطرب الالهية مستهدفة أحلام الزمان الغابر ، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب . أسمعينى صوتك وما هو بصوتك . ياصديقتى القديمة السيئة الحظ ، من حسن الحظ أن صاحبة هذا الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى ، لم ترتق اليها الأحزان التى أغرقت أسرتها ، أما أنت فقد انحدرت الينا نحن جمهور الدرجة الثانية ، ألا تذكرين صديقك الذى كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل ؟. كيف تعيشين اليوم

يا صغيرتى ؟ . وهل تعملين مثلى فى النهاية مدرسة باحدى المدارس الابتدائية ؟. ومر الترام بمكان القصر القديم الذى قام فى موضعه بناء ضخم جديد . وقد رآه قبل ذلك فى المرات القلائل التى زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخى عنها خاصة فى العهد الأخير وهو يتردد على بيت فؤاد جميل الحمزاوى . العباسية نفسها تغيرت كبيتكم يا صغيرتى ، اختفت قصورها وحدائقها التى عاصرت حبى وحزنى وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظة بالسكان والحوانيت والمقاهى والسينمات ، فليسر بذلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أما أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أن قلبى مطمور فى أنقاضه ؟ ، أو كيف أحتقر المخلوق البديع الذى لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب اذ كان يخطر كالمغنى الجميل وقلبى له ساجد ؟.

وعندما توقف الترام فى المحطة التالية لقسم الوايلى غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها . فرآها وهى تعبر الطريق الى شارع « ابن زيدون » الذى يواجه المحطة مباشرة . كان شارعا ضيقا تقوم على جانبه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطى وجهه الممهد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت الى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كواء . ووقف ينظر الى الطريق والبيت فى صمت واجم ، ذلك المكان الذى تقيم فيه اليوم سنية هانم حرم شداد بك ! . وهذه الشقة لا يزيد ايجارها على ثلاثة جنيهات ، وليت سنية هانم تخرج الى الشرفة ليلقى عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغير لا شك أنه خطير ، ولعله لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاملك متأبطة ذراع زوجها الى حيث تنتظر السيارة ، كانت تختال عجبا فى معطفها الوثير وتلقى على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة ، ولن يمنى الانسان بعدو أشد فتكا من الزمن . فى هذه الشقة نزلت عايدة فى أثناء اقامتها بالقاهرة ،

ولعلها جلست بعض العصارى فى هــذه الشرفة البالية ، ولعلها قاسمت أمها وأختها فراشــهما الواحد ما فى ذلك ريب ، فليتنى علمت بوجــودها فى الوقت المناسب ، وليتنى رأيتها بعــد ذلك التاريخ الطويل ، كان ينبغى أن أراها وانا متحرر من استبدادها ، كى أعرفها على حقيقتهــا ، وبالتــالى كى أعرف نفسى انا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة ...

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب يصغى الى الدرس الذى يلقيه الأستاذ الانجليزى . لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيما بدا له . ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان فى الحضور ــكمستمعــ لمتابعــة الدروس المسائية التى تلقى ثلاث مرات فى الأســبوع ، وأكثر من هذا فان الأستاذ قد رحب به عندما علم بأنه مدرس لغة انجليزية . أجل كان غريبا بعض الشىء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس فى أواخر العام الدراسى ولكنه علل ذلك أمام الأستاذ بأنه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها . وكان قد علم بوجود بدور فى هذا القسم عن طريق رياض قلدس الذى عــرفه بدوره عن طريق صــديقه سكرتير الكلية . وبدا منظره ، ببدلته الأنيقة ونظارته الذهبية وطوله ونحوله وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التى تلتمع فى سوالفه الى رأسه الضخم وأنفه الكبير ، بدا كل أولئك ملفتا للأنظار خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشــباب الغض ، فكم بدوا كالمتسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها ، حتى خيل اليه أنه يسمع ما يدور

فى نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدرى الناس بها وأخبر !.
هو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التى أقدم عليها دون مبالاة على ما جشمته من جهد وحرج ، ما بواعثها الحقيقية وما هدفها ؟. لا يدرى شيئا على وجه التحقيق ، ولكنه ما أن رأى بارقة نور فى ظلمة حياته الداكنة حتى انطلق يتسمته وهو لا يلوى على شيء مدفوعا بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل ، غير مبال بما قد يعثر به فى طريق محفوف بالتزمت والتقاليد من ناحية ، وبالشباب المتوثب للسخرية من ناحية أخرى . كان غارقا فى اليأس والملل فجرى ملهوفا وراء هذا الشيء الذى لا يشك فى أنه تسلية وأى تسلية ، وحياة وأى حياة ، وبحسبه أنه انقلب يهتم بالزمن وينشد الأمل ويأمل فى المسرة ، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتا . وكان يشعر بضيق الوقت ، فالعام الدراسى يشارف نهايته المحتومة ، بيد أن محاولته لم تضع هباء ، فبدور قد رأته كما رآه الجميع ، ولعلها شاركت فيما يدور من همس حوله ، الى أن عينيهما قد تلاقتا أكثر من مرة ، ولعلها طالعت فى عينيه ما يضطرم فى ذاته من الاهتمام والاعجاب ، من يدرى ؟.
وفضلا عن هذا كله فعند العودة يستقلان ترام الجيزة معا ثم ترام العباسية ، وكثيرا ما يجلسان فى مكان واحد ، فباتت تعرفه جيدا ، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حبها كله ، خاصة اذا كان مدرسا حريصا على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار.
أما عن غايته من هذا كله فلم يشق على نفسه فى تحقيقها ، لقد دبت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها ، وهو تواق بكل قوة نفسه المعذبة الى أن يعود ذلك الانسان الذى تعتلج فى وجدانه المشاعر وتهيم فى عقله الخواطر وتتجلى فى حواسه المناظر ، وأن ينسى بهذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام ألغاز لا تحل ، كأنها الخمر ولكنها أعمق متاعا وألطف عاقبة . وفى الأسبوع الماضى

حدث شيء تأثر له قلبه أيما تأثير . فقد عاقه اشرافه على النشاط الرياضي بمدرسة السلحدار عن الوصول الى الكلية فى الوقت المناسب ، فدخل حجرة الدرس متأخرا ، والتقت عيناهما حين دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتا ، التقت عيناهما التقاء خاطفا سحريا وسرعان ما أرخت جفونها فيما يشبه الحياء . لم تكن اذن مجرد نظرة تلتقى فيها عينان محايدتان ، وبات مرجحا أنها استشعرت شيئا من الحياء ، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيه قد ضاع عبثا ؟ !. الصغيرة باتت تستحى من نظراته فلعلها أخذت تدرك أنها ليست بالنظرات البريئة التى توجهها المصادفة . وأثار ذلك فى نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيرا من الصور ، حتى وجد نفسه يتذكر عايدة ويتخيلها ، ولكنه لم يدر لماذا ، فان عايدة لم تغض الطرف حياء حياله قط ، فلعل شيئا آخر الذى ذكره بها ، الفتة أو رنوة أو ذلك السر الساحر الذى ندعوه بالروح . وأول أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك ، انظر كيف ردت الحياة اليك ! . قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة قط ، أو لم تكن تضفى الخطورة الا على هذه الألغاز العقيمة كالارادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون ، كانت الحياة كلها صماء لا خطر لها ، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفتة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعا !. حدث ذلك وهو ماض الى الكلية قبيل الخامسة مساء مخترقا حديقة الأورمان ، فما يدرى الا وبدور وثلاث فتيات يطالعنه على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس ، والتقت عيناهما التقاء عميقا كما وقع فى حجرة الدرس ، وكان يود أن يحييهن عند الاقتراب ولكن الممشى الذى يسير فيه عرج به بعيدا عنهن كأنه أبى أن يشترك فى هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة ، ولما ابتعد قليلا التفت وراءه فرآهن يهمسن فى أذنها باسمات وهى مسندة

رأسها الى راحتها كأنما تخفى وجهها !. ما هذا المنظر البديع ؟!. لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره ، ولكنه لا يحتاج الى براعة رياض ، لا شك أنهن يهمسن لها عنه حتى أخفت وجهها حياء ! ، هل ثمة معنى غير هذا ؟ . فلعل ألصب فضحته عيونه ، ولعله جاوز المدى وهو لا يدرى حتى صار أحدوثة ، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضا يتمازح به الطلبة الشياطين ؟!. وفكر جادا فى الانقطاع عن الكلية . ولكنه وجدها تجلس الى جانبه فى ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها فيه !. وترصد التفاتها ناحيته ليحييها وليكن ما يكون ، فلما طال انتظاره بعض الشىء التفت هو ثم تظاهر بأنه فوجىء بجلوسها لصقه فهمس فى أدب :

ـ مساء الخير .

فنظرت نحوه كالداهشة ـ لم تترك له عايدة ذكرى تصنع أنثوى من أى نوع كان ـ ثم همست :

ـ مساء الخير . . .

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك ، لم يكن مع أختها بهذه الجرأة ، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج .

ـ حضرتك من العباسية فيما أعتقد ؟

ـ نعم . . .

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها !

ـ من المؤسف اننى لم أتابع المحاضرات الا أخيرا . .

ـ نعم . . .

ـ أرجو أن أعوض ما فاتنى فى المستقبل . . .

فابتسمت دون أن تنبس . « زيدينى من سماع صوتك فانه النغمة الوحيدة من الماضى التى لم يغيرها الزمن » .

ـ ماذا تنوين بعد الليسانس ؟ ، معهد التربية ؟

فقالت باهتمام لأول مرة :

ـ لا حاجة بى الى ذلك لأن الوزارة محتاجة الى مدرسات ومدرسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد فى التعليم ..

طمع فى نغمة واحدة فوهب لحنا كاملا !

ـ اذن ستعملين مدرسة !

ـ نعم ، لم لا ؟

ـ انها مهنة شاقة ، سلينى عنها .

ـ حضرتك مدرس فيما سمعت ؟

ـ نعم ، أوه ، نسيت أن أقدم نفسى ، كمال أحمد عبد الجواد !

ـ تشرفنا .

فقال باسما :

ـ لكنك لم تشرفينى بعد ؟

ـ بدور عبد الحميد شداد !

ـ تشرفنا يا فندم ...

ثم مستدركا كمن فوجىء بشىء فريد :

ـ عبد الحميد شـداد ! ، ومن العباسـية ؟ . حضرتك اخت حسين شداد ؟

فلمعت عيناها فى اهتمام وقالت :

ـ نعم .

فضحك كمال كانما يضحك عجبا من غرابة المصادفات وقال :

ـ يا سلام ! ، كان أعز أصدقائى ، وقضينا معا أياما سعيدة جدا ، رباه أأنت أخته الصغيرة التى كانت تلعب فى الحديقة ؟

فحدجته بنظرة استطلاع . هيهات أن تتذكره ! . « فى ذلك العهد كنت مغرمة بى كما كنت مغرما بأختك » .

ـ لا أذكر شيئا طبعا ...

ـ طبعا ، هـذا تاريخ يرجع الى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦ ، تاريخ سفر حسين الى أوربا ، ماذا يفعل الآن ؟

ـ فى فرنسا فى القسم الجنوبى الذى انتقلت اليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألمانى ...

ـ وكيف حاله ؟ ، من زمن طويل انقطعت عنى أخباره ورسائله ..

ـ بخير ...

نطقت بها فى لهجة نمت عن رغبة عن الخوض فى الموضوع اكثر من ذلك . وتساءل كمال والترام يمر بمكان القصر القديم ترى ألم يخطىء بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها ؟ ، أليس فى ذلك حدا من حريته فيما هو بسبيله ؟ . ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلى حيته وغادرت الترام ، فلبث فى مكانه كأنما نسى نفسه . كان طوال الطريق يتفحصها كلما سنحت فرصة لعله يهتدى الى السر الذى سحره قديما ، ولكنه لم يجده وان شعر مرارا بأنه منه قريب . وكانت تبدو لطيفة وديعة ، وكانت تبدو قريبة المنال . وهو الآن يشعر كأنما يعانى خيبة أمل غامضة وحزنا غير بين الأسباب . لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدى . أجل انها تبدو مستجيبة ملبية ، رغم فارق السن المحسوس أو بسبب فارق السن ؟ ! ثم ان التجارب قد علمته أن شكله لن يعوقه عن الزواج اذا أراده . وهو اذا تزوجها انتقل بقدرة قادر الى عضوية أسرة عايدة ، ولكن ماكنه هذا الخيال السخيف ؟. وما عايدة الآن بالنسبة اليه ؟ . الحق أنه لا يريد عايدة ، ولكنه لا يكف عن التطلع الى معرفة سرها ، لعله يقتنع فى الأقل بأن أزهى عصور العمر ـ لم يضع هباء . ووجد رغبة ـ طالما ألحت عليه على فترات من العمر ـ فى مراجعة كراسة الذكريات وعلبة الملبس التى أهديت اليه ليلة الزفاف . ثم جاش صدره بالحنين حتى

تساءل ترى أيمكن أن يقع الانسان فى الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية ؟ . ولكن هل يقى الكيميائى علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين ؟ ، أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان ؟ ، رغم ما منى به من خيبة الأمل ، رغم الفارق الكبير بين الماضى والحاضر ، رغم أنه لا يدرى ان كان من أهل الماضى أم من أهل الحاضر ، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق ...

٤٣

هنا حديقة الشاى ، سماؤها أفرع وغصون ريانة ، ومرتاد النظر البط السابح فى البحيرة الزمردية ، والجبلاية فيما وراء ذلك واليوم عطلة مجلة الانسان الجديد ، وهاهى سوسن حماد تبدو رائعة فى فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين ، وهى آخذة زينتها ولكن فى لباقة وحذر . وكان قد مضى على زمالتهما عام فجلسا متقابلين يضىء وجهيهما ابتسام التفاهم ، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكاسا دندورمة لم يبق فيهما الا ذوب ثمالة الحليب المورد بالفراولا . « انها أعز شىء لدى فى هذه الدنيا ، أدين لها بمسراتى جميعا وهى قبلة آمالى أيضا ، ونحن زميلان مخلصان ، لم ينطق الحب بيننا ولكننى لا أشك فى أننا متحابان ، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون ، بدأنا رفيقين فى ميدان الحرية ، وعملنا يدا واحدة ، وكلانا مرشح للسجن ، وكنت كلما نوهت بجمالها حملقت فى وجهى محتجة وزجرتنى مقطبة كأن الحب شىء لا يليق بنا فأبتسم وأعود الى ما كنا فيه من عمل ، ويوما قلت لها : « انى أحبك .. انى أحبك .. فافعلى ما بدا

لك » ، فقالت لى : « هذه الحياة هى الجد كل الجد وأنت تعبث » ، فقلت لها : « انى مثلك أرى أن الرأسمالية فى طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها ، وأن على الطبقة العاملة أن تطلق ارادتها لتدير آلة التطور اذ أن الثمرة لن تسقط وحدها ،وأن علينا أن نخلق الوعى ولكنى بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك » فقطبت تقطيبة متكلفة بعض الشىء وقالت : « انك تصر على أسماعى مالا أحب » ، وشجعنى خلو حجرة السكرتارية فهويت الى وجهها فجأة ولثمت خدها فحدجتنى بنظرة قاسية واكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة فى الاتحاد السوفيتى الذى كنا نترجمه معا .

ـ هذا الحر كله فى يونيــه فكيف اذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتى ؟

ـ يبدو أن الاسكندرية لم تخلق لأمثالنا !

فضحك قائلا :

ـ ولكن الاسكندرية لم تعد مصيفا ، كانت كذلك قبل الحرب أما اليوم فالاشاعات قد جعلتها خرابا . .

ـ الأستاذ عدلى كريم يؤكد أن أكثرية سكانها قد هجروها وان طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها !

ـ هى كذلك ، وعما قريب يدخلها رومل بجيوشه . .

ثم بعد صمت قصير :

ـ وسوف يلتقى فى السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستى كما كان فى العصر الحجرى !

فقالت سوسن فى شىء من الانفعال :

ـ روسيا لن تنهزم ، وأن آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال . . .

ـ نعم لكن الألمان على أبواب الاسكندرية !

تساءلت وهى تنفخ :

ــ لماذا يحب المصريون الألمان ؟

ــ كراهة فى الانجليز ، وسوف يمقتونهم فى الغد القريب ، ان الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثم يشربان معا نخب وأد الديموقراطية الناشئة فى بلادنا ؛ ومن المضحك أن الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم !

ــ أعداؤنا كثيرون ، الألمان فى الخارج ، والاخوان والرجعية فى الداخل وكلاهما شىء واحد ...

ــ لو سمعك أخى عبد المنعم لثـــار على رأيك ، انه يعتبر الاخوانية فكرة تقدمية تزرى بالاشتراكية المادية ..

ــ قد يكون فى الاسلام اشتراكية ، ولكنها اشتراكية خيالية كالتى بشر بها توماس مورو ولويس بلان وسان سيمو ، انه يبحث عن حل للظلم الاجتماعى فى ضمير الانسان بينا أن الحل موجود فى تطور المجتمع نفسه ، انه لا ينظر الى طبقات المجتمع ولكن الى أفراده ، وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية ، وفضلا عن هذا كله فتعاليم الاســلام تستند الى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دورا خطيرا ، لا ينبغى أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا فى الماضى البعيد ، قل هذا لأخيك ..

فضحك أحمد فى سرور غير خاف وقال :

ــ أخى شاب مثقف وقانونى ذكى ، انى أعجب كيف يتحمس أمثاله للاخوان !

فقالت بازدراء :

ــ الاخـــوان يصطنعون عمليـــة تزييف هائلة ، فهم حيال المثقفين يقدمون الاســـلام فى ثوب عصرى ، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار ، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية ..

حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها ، قلت حبيبتى ؟ ، نعم فمنذ القبلة التى اختلستها دأبت على أن ادعوها بحبيبتى وكانت تحتج بالكلام تارة وبالاشارة تارة أخرى ثم جعلت تتجاهله كأنما قد يئست من اصلاحى ، وعندما قلت لها انى توآق الى سماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبختنى قائلة باحتقار: « هذه النظرة البورجوازية العتيقة الى المرأة .. هه ؟! » فقلت لها جزعا ان احترامى لك فوق كل كلام وانى لأعترف بأنى تلميذك فى أنبل ما صنعت فى حياتى ولكننى أحبك كذلك وما فى ذلك من بأس . فذهب غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظاهره فيما رأيت ، واقتربت منها مضمرا تقبيلها فلا أدرى كيف حزرت غرضى فدفعتنى فى صدرى ولكننى على رغم ذلك لثمت خدها وما دام المحذور قد وقع - وقد كان بوسعها منعه جديا - فقد اعتبرتها راضية ، وانها لكائن بديع جميل العقل والجسم معا رغم اغراقها فى السياسة ، وعندما دعوتها للنزهة فى الحديقة قالت «على شرط أن نأخذ معنا الكتاب لنواصـــل الترجمة » فقلت لها بل للفرجة والمناجاة والا كفرت بالاشتراكية جميعا !. ولعله مما يزعجنى كثيرا حيال نفسى المتشبعة بالسكرية أننى ما زلت أنظر أحيانا الى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية فيخيل الى فى بعض ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست الا نوعا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن العام الذى زاملت فيه سوسن قد غيرنى كثيرا وطهرنى لدرجة محمودة من أدران البورجوازية المستوطنة فى أعماقى !.

- من المؤسف ان زملاءنا يعتقلون بلا حساب !.

- نعم يا حبيبتى ، الاعتقال موضة تشيع أيام الحروب وأيام الارهاب على السواء ، غير أن القانون لا يرى بأسا فى اعتناق المبدأ اذا لم يقترن بالدعوة الى العنف ..

فضحك أحمد وقال :

ــ سيلقى القبض علينا ان آجلا وان عاجلا الا . .

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول :

ــ الا اذا أدبنا الزواج !.

فهزت منكبيها فى ازدراء وقالت :

ــ من أدراك بأننى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك ؟.

ــ مزيف ؟..

ففكرت قليلا ثم قالت باهتمام جدى :

ــ لست من طبقة العمال مثلى !. كلانا يحارب عدوا واحدا ولكنك لم تخبره كما خبرته ، لقد ذقت الفقــر طويلا ، ولمست آثاره الكريهة فى أسرتى ، وغالبته أخت لى حتى غلبها فماتت ، أما انا فلست .... لست من طبقة العمال !.

فقال بهدوء :

ــ ولا كان انجلز من هذه الطبقة !.

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت :

ــ كيف أدعوك ؟ ، البرنس أحمدوف ؟ ! . هه لا أنكر عليك مبدأك ، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيدة ، يخيل الى أنك تسر أحيانا لكونك من آل شوكت !.

فقال بلهجة لم تخل من حدة :

ــ أنت مخطئة يا ظالمة !. لا يعيبنى ما ورثته ، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبنى ، أعنى الدخل القليل الذى عاشت به أسرتنا عيشة التنابلة ، لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا ، ولا عيب الا فى الجمود والتخلف عن روح العصر . .

فقالت وهى تبتسم :

ــ لا تغضب ، كلانا ظاهرة طبيعية علمية ، لانسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعل ، انى أعتذر اليك

يا انجلز ، ولـكن خبرنى هل أنت على استعداد لمواصلة القـاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب ؟.

فقال بادلال :

ـ لقد حاضرت حتى أمس خمس مرات ، وحررت منشورين خطيرين ، ووزعت عشرات المنشورات ، وللحكومة دين فى عنقى جاوز العامين سجنا !.

ـ ولها فى عنقى أضعاف ذلك !.

مد يده بخفة فوضعها على يدها السمراء البضـة فى حنان واعجاب . نعم انه يحبها ، ولكنه لا يندفع فى جهاده باسم الحب ، ترى لم تبدو أحيانا وكأنها تشك فيه ؟. أهى مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التى تحسبها كامنة فيه ؟. انه مؤمن بالمبدأ كما أنه مغرم بها ، لا غنى له عن هذا ولا ذاك ، « أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حق الفهم وتفهمه حق الفهم ؟. وألا يحول بينك وبينه أى نوع من المكر ؟ . انى أعبدها اذ قالت « لقد ذقت الفقر طويلا » ، هذا القول الصريح الذى سما بها عن بنات جنسها جميعا ومزجها بنفسى ، لكننا محبون غافلون والسجن يتربص بنا ، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتـاعب ونقنع برغد العيش ، ولكنها تكون حياة بلا روح ؛ لشد ما يبدو لى المبدأ أحيانا كأنه لعنة مصبوبة علينا من القضاء والقدر ، انه دمى وروحى ، كأننى المسئول الأول عن الانسانية جميعا ..

ـ احبك ..

ـ ما المناسبة لهذا ؟.

ـ فى كل مناسبة وبلا مناسبة !.

ـ انك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء !.

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بينى وبينك ..

ـ الا يعنى الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن ؟.

ــ ألم تسمعى عن النبى الذى كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعا ؟! .

ففرقعت بأصابعها هاتفة :

ــ ها هو أخوك قد أعارك فاه ، أى نبى يا هذا ؟ .

فقال ضاحكا :

ــ نبى المسلمين ! .

ــ دعنى أحدثك عن كارل ماركس الذى عكف على تأليف « رأس المال » تاركا زوجه وأبناءه للجوع والبهدلة ! .

ــ كان متزوجا على أى حال . .

كان ماء البركة عصير زمرد ، وهذه النسمة اللطيفة تهفو فى خلسة من يونية، والبط يسبح مسددا منقاره لالتقاط فتات الخبز ، وأنت سعيد جدا ، والحبيبة المتعبة ألذ من الطبيعة ، يخيل الى أن وجهها تورد ، فلعلها تناست السياسة قليلا وأخذت تفكر فى . .

ــ كان المأمول يا زميلتى العزيزة أن نحظى فى هذه الحديقة بحديث عذب ! . .

ــ أعذب مما كنا نتحدث به ؟ .

ــ أعنى حبنا ! .

ــ حبنا ؟ .

ــ نعم وأنت تعلمين ! .

وساد الصمت مليا حتى غضت عينيها متسائلة :

ــ ماذا تريد ؟ .

ــ قولى اننا نريد شيئا واحدا ! .

فقالت كأنما لتطيعه فحسب :

ــ نعم ، ولكن ما هو ؟ .

ــ حسبنا لف ودوران ! .

كأنها تفكر ، فما أمر الانتظار على قصره ، واذا بها تقول :

ـ ما دام كل شيء واضحا فلم تعذبنى ؟ .

فتنهد فى ارتياح عميق وقال :

ـ ما أبهج حبى ! .

وساد الصمت مرة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة .

ثم قالت :

ـ يهمنى شيء واحد ! .

ـ أفندم ؟ .

ـ كرامتى ! .

فقال كالمنزعج :

ـ هى وكرامتى شيء واحد ! .

فقالت بامتعاض :

ـ أنت أدرى بتقاليد أناسك ! . ستسمع كثيرا عن الأصل والفصل ..

ـ كلام فارغ ، أتظنيننى طفلا ؟ .

وترددت قليلا ثم قالت :

ـ لا يهددنا الا شيء واحد هو « العقلية البورجوازية » ! .

فقال بقوة جعلته فى تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم :

ـ لست منها فى شيء ! .

ـ هل تدرك مدى خطورة قولك ؟ .. لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة فى صميمها الشخصى والاجتماعى ! .

ـ مفهوم جدا ..

ـ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل : حب ، زواج ، غيرة ، الوفاء ، الماضى ... !

ـ نعم ! .

قد يعنى هـذا لا شىء ، وقد يعنى كل شىء ، وكم من مرة خطرت له أفكار ، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة ، ما هو الا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعا ، امتحان رهيب ، وقد خيل اليه أنه أدرك ما تعنى ، ولعل الأمر لا يعـدو أنها تمتحنه ، ولكن حتى لو كان الذى أدركه فلن يتراجع ، لقد اعتراه ألم ودبت فى أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع .

ــ انى مسلم بما تعنين ، ولكن دعينى أصارحك بأننى كنت آمل أن أحظى بفتاة عاطفية لا بفكر محاسب مدقق ! .

فتساءلت وعيناها تتابعان البط السابح :

ــ لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك ؟ !

ــ نعم ! .

ضاحكة . . .

ــ وهل ترانى كنت أدخل فى التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ ! .

فضغط على راحتها فى رقة ، فعادت تقول :

ــ وأنت تعرف كل شىء ، ولكنك تود سماعه ! .

ــ ولا أمل سماعه ! .

٤٤

ــ انها سمعة أسرتنا جميعـا ، وهو على أى حال ابنكم ، وأنتم بعد ذلك أحرار فيما ترون ! .

كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه الى وجه ، من زوجها ابراهيم الذى جلس الى يمينها الى ابنها

أحمد فى النـاحية المقابلة من الصـالة ، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم ..

وقال أحمد مداعبا وهو يقلد لهجتها :

ــ انتبهوا جميعا ، انها سمعة أسرة ، وأنا على أى حال ابنكم !.

فقالت له بصوت متشك ملىء بالمرارة :

ــ ما هذا البلاء يا ابنى ، أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك ، وتأبى المشورة ولو كانت فى صالحك ، دائما أنت على صواب والناس جميعا على خطأ ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهديه . رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله . قلت اشتغل جورنالجى قلنا اشتغل عربجى ! ..

فقال باسما :

ــ والآن أريد أن أتزوج ! ..

ــ تزوج ، كلنا يسر لهذا ، ولكن الزواج له شروط ! .

ــ ومن يضع شروطه ؟ .

ــ العقل السليم ! .

ــ عقلى اختار لى ...

ــ ألم تثبت لك الأيام بعد أنه لا يصح الاعتماد على عقلك وحده ؟ ! .

ــ أبدا ، والمشورة جائزة فى كل شىء الا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء ! ..

ــ الطعام ! . أنت لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلها ــ ونحن ــ أهلك ــ نتزوج بالتبعية معك ! .

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال :

ــ كلكم ! . هذا أكثر مما يحتمل ، خالى كمال لا يريد أن يتزوج ، وخالى ياسين يود لو يتزوجها وحده ..

وضحكوا جميعا الا خديجة ، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك :

ــ اذا كان فى هــذا فض المشــكلة فأنا على أتم اســتعداد التضحية .. !

فهتفت خديجة :

ــ اضحكوا ، انه يتشجع بضحككم ، خير من ذلك أن تصارحوه بآرائكم ، ما رأيكم فيمن يرغب فى الزواج من « كريمــة » عامل المطبعة التى يعمــل بمجلتهــا ؟ . انه يعز علينا أن تعمــل بالمجلة « جورنلجى » فكيف وأنت تريد أن تصــاهر عمالها ! . أليس لك رأى يا سى ابراهيم ؟ .

فرفع ابراهيم شوكت حاجبيه كأنما يريد أن يقول شــيئا ، ولكنه سكت ، فعادت تقول :

ــ لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلىء بيتك ليــلة الزفاف بعمال المطبعة والعنابر والحوذية ، والله أعلم بما خفى ! .

فقال أحمد بتأثر :

ــ لا تتكلمى هكذا عن أهلى ! .

ــ يا رب السماوات ، أتنكر أن هؤلاء هم أهلها ؟ .

ــ سأتزوجها هى وحدها ، انى لا أتزوج بالجملة ..

فقال ابراهيم شوكت فى ضجر :

ــ لن تتزوجها وحدها ، الله يتعبك كما تتعبنا ! .

فقالت خديجة متشجعة بمعارضة زوجها :

ــ ذهبت لزيارة بيتها كما تقضى العادة ، قلت أرى عروس ابنى ، فوجدتهم يقيمون فى بدروم فى شارع كله يهود على الصفين ، وأمها لا تفترق فى هيئتها عن الخادمات المحترفات ، والعــروس نفسها لا يقل عمرها عن ثلاثين عاما ، أى والله ، ولو كان بها ذرة من جمال لعذرته ، لماذا يريد أن يتزوجها ؟ . انه مسحور ، سحرته

بحيلة ، انها تعمل معه فى المجلة المشئومة ، لعلها غافلته فوضعت له شيئا فى القهوة أو الماء ، اذهبوا وشوفوها واحكموا ، أنا غلبت ، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزنى وأسفى ..

ــ انك تغضبيننى ، لن أغفر لك كلامك هذا ! .

ــ العفو ! . العفو يا سيد الملاح ! . الحق على ، أنا طول عمرى عيابة فرمانى ربنا فى أولادى بكل العيوب ، أستغفر الله العظيم ..

ــ مهما تقولت عنهم فليس فيهم من يرمى الناس بالباطل .. مثلك ! .

ــ بكرة يا ماتسمع ، ويا ماتعرف ، سامحك الله على اهانتى .

ــ أنت التى أهنتنى بما فيه الكفاية ! .

ــ انها تطمع فى مالك ، ولولا خيبتك ما طمعت فى أحسن من بياع جرائد ...

ــ انها محررة فى المجلة بمرتب ضعف مرتبى ..

ــ جورنالجية هى الأخرى ! .. ما شاء الله ، وهل تتوظف الا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة ! .

ــ سامحك الله ...

ــ فليسامحك أنت على ما تصب علينا من عذاب ! .

وهنا قال ياسين الذى كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه :

ــ اسمعى يا أختى ، لا داعى للنقار ، سنصارح أحمد بما ينبغى قوله ولكن لا جدوى من الشجار ..

ونهض أحمد كالغاضب وهو يقول :

ــ عن أذنكم سأرتدى ملابسى لأذهب الى عملى ..

ولما ذهب انتقل ياسين الى جانب أخته ومال عليها قائلا :

ــ لن يفيدك الشجار شيئا ، نحن لا نحكم أبناءنا ، انهم يرون أنفسهم خيراً منا وأذكى ، اذا كان لا بد من الزواج فليتزوج ، فان

سعد كان بها والا فهو المسئول عن نفسه ، أنا لم يستقر بى بيت الا بزنوبة كما تعلمين ! . فعسى أن يكون الخير فيما اختار ، ثم أننا لا نعقل بالكلام ولكن بالتجارب .

ثم مستدركا وهو يضحك :

ـ ولو أنه لا الكلام ولا التجارب عقلتنى ! .

وعلق كمال على قول ياسين قائلا :

ـ الحق فيما قال أخى . .

فحدجته بنظرة عتاب قائلة :

ـ أهذا كل ما عندك يا كمال ؟ . انه يحبك فلو أنك حدثته على انفراد . . .

فقال كمال :

ـ انى خارج معه وسأحدثه ، ولكن كفى عن الشجار ، انه رجل حر ، ومن حقه أن يتزوج ممن يشاء ، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته ؟

وقال ياسين باسما :

ـ الأمر بسيط يا أختى ، يتزوج اليوم ويطلق غدا ، نحن مسلمون لا كاثوليك . . .

فضيقت عينيها الصغيرتين وقالت بفم شبه مغلق :

ـ طبعا ، من محام غيرك يدافع عنه ؟ . صدق من قال ان الولد لخاله ؟ .

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

ـ الله يسامحك ، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما تزوجت امرأة قط ! .

فأشارت الى زوجها وقالت :

ـ أمه الله يرحمها هى التى اختارتنى بنفسها ! . .

فقال ابراهيم وهو يتنهد باسما :

- ودفعت الثمن ، الله يرحمها ويعفو عنها ؟ .

ولكنها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة :

- لو كانت جميلة ! .. انه أعمى ! .

فقال ابراهيم ضاحكا :

- مثل أبيه ! .

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت :

- أنت جاحد كجنس الرجال ! .

فقال الرجل بهدوء :

- بل نحن صابرون ولنا الجنة ..

فصاحت به :

- اذا كنت ستدخلها فبفضلى أنا التى علمتك دينك ! .

***

غادر كمال واحمد السكرية معا . وكان يقف من مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد . انه لا يمكن أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة ، أو بالفتور حيال مبادىء المساواة والانسانية ، ومع ذلك فالواقع الاجتماعى الذى لا يد له فى بشاعته حقيقة واقعة لا يجوز أن يتجاهلها انسان . وقديما ولع عهدا بقمر بنت أبى سريع صاحب المقلى ، فكادت - رغم جاذبيتها - تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة . غير أنه كان رغم هذا كله معجبا بالشاب ، غابطا له شجاعته وقوة ارادته وغيرهما من المزايا التى حرم هو منها وعلى رأسها الايمان والعمل والزواج ، كأنما قد بعث فى الأسرة كفارة عن جموده وسلبيته . ما الذى يجعل للزواج هذه الخطورة فى نظره بينما هو فى نظر الآخرين لا يزيد عن السلام عليكم .. وعليكم السلام ؟!

ـ الى أين يا فتى ؟

ـ المجلة يا خالى ، وأنت ؟

ـ مجلة الفكر لأقابل رياض قلدس ، ألا تفكر قليلا قبل أن تخطو هذه الخطوة ؟

ـ أى خطوة يا خالى ! ، لقد تزوجت بالفعل !

ـ حقا ؟

ـ حقا ، وسوف أقيم فى الدور الأول من بيتنا نظرا لأزمة المساكن ...

ـ يا له من تحد سافر !

ـ نعم ، ولكنها لن توجد فى البيت الا حين تكون أمى قد نامت ...

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله باسما :

ـ وهل تزوجت على سنة الله ورسوله ؟

فضحك أحمد أيضا وقال :

ـ طبعا ، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم ، أما الحياة فعلى دين ماركس !

ثم وهو يودعه :

ـ خالى ، ستعجبك جدا ، سترى وتحكم بنفسك ، انها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة ..

٤٥

يا لها من حيرة ، كأنها مرض مزمن ، فكل أمر يبدو ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار ، تستوى فى ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة اليومية ، فازاء كل تعترض الحيرة والتردد . أيتزوج أم لا ؟ ، كان ينبغى أن يقطع برأى لكنه يدور حول نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح والعقل والحواس ثم تنجلى الدوامة عن موقف لم يتغير وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو : أيتزوج أم لا . قد يضيق أحيانا بحريته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو يضجر من معاشرة الأشباح الفكرية الخاوية فيحن الى الأليف وتئن فى محبسه غرائز الأسرة والحب تروم متنفسا ، ثم يتخيل نفسه زوجا قد برأ من التركيز فى ذاته وتبددت أوهامه لكنه فنى فى الوقت نفسه فى الأبناء واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة اليومية فينزعج أيما انزعاج ويقرر الاستمساك بانطلاقه مهما تجشم من وحشة وعذاب ، بيد أنه لا ينعم بالاستقرار طويلا فلا يلبث أن يعود الى التساؤل كرة أخرى ، وهكذا وهكذا ، فأين المقر ؟ . وبدور فتاة ممتازة حقا ، لا يعيبها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد ولدت وشبت فى جنة الملائكة التى شغفت قلبه قديما ، فهى كالشهاب الساقط ، وهى فتاة ممتازة حقا فى حسنها وخلقها وثقافتها ، ثم انها ليست عسيرة المنال فهى الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة اذا أراد أن يتقدم ، وما عليه الا أن يتقدم . والى هذا كله فهو لا يسعه الا أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه ، فهى آخر ما يودع من أطياف الحياة قبل النوم وهى أول ما يستقبل

من أطيافها عند الاستيقاظ ، ثم لا تكاد تغادر خياله طوال يومه ، وما أن يحظى برؤيتها البصر حتى يخفق الفؤاد مرددا انغاما شجية من أوتار علاها الصدأ ، ثم ان دنياه لم تبق كما كانت ، دنيا حيرة وعذاب ووحشة ، داخلتها نسائم وجرى فيها ماء الحياة ، فان لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون ؟!. وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل ، يقطعه على مهل ، مسددا عينيه الى الشرفة حتى تلتقى بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين ، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات ، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد ، فما يجىء ميعاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ فى كتاب أو تسرح الطرف ، فأيقن أنها تنتظره ، اذ لو شاءت أن تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك الا تجنب الشرفة دقائق كل أصيل . ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامه وتحيته ؟! . لكن مهلا ، ان الغرائز لا تخطىء ، كلاهما يود أن يلقى صاحبه ، وقد استخفه لذلك الطرب وأسكره السرور ، وملأه احساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل ، غير أن هذا الهناء كله لم يمض دون قلق يشوبه ، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم ، ولم يتضح له سبيل ، ولكن تيارا جرفه فاستسلم له لا يدرى كيف مجراه ولا أين مرساه !. قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدته فى اشفاق ، فثمل سرورا دون أن يخلو من قلق . وقال له رياض : أقدم فهذه فرصتك ، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الانسان الأولى والأخيرة فى هذه الحياة ، فيقول مزهوا انه سيقتحم هذه التجربة الفريدة غير هياب فيتاح له أن يفهم الحياة فهما جديدا صادقا ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال . . أليست هذه هى الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة ؟ ، فأجابه متهربا : أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح

حكما وسوف أفتقد فيك المشير الصادق !. وبدا له الحب من ناحية أخرى « دكتاتوراً » وقد علمته الحياة السياسية فى مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه ، ففى بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن ، أما هذه الفتاة المستكنة فى حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعا الى الأبد ، ولن يجد من شعار يأتم به بعد ذلك الا الكفاح المرير فى سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء ، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلائل مجرد وسيلة لتحصيل « الرزق » ، وقد يكون الفقير الهندى سخيفا أو مجنونا ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه فى سبيل الرزق ، فأنعم بالحب الذى كنت تفتقده وتتحسر عليه .. ها هو يبعث حيا فى فؤادك جارا وراءه المتاعب ! . وقال له رياض : « أمن المعقول أن تحبها وأن يكون فى وسعك أن تتزوجها .. ثم تمتنع عن زواجها ؟ » ، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج ! ، فقال له محتجا : « ان الحب هو الذى يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة ! » فأجابه باصرار : « بل احبها وأكره الزواج » ، فقال : « لعلك تخاف المسئولية » ، فأجابه محتدا : « انى أحمل من أعباء المسئولية فى بيتى وفى عملى ما لا تحمل بعضه » ، فقال : « لعلك أنانى أكثر مما أتصور » ، فقال ساخرا : « وهل يتزوج انفرد الا مدفوعا بأنانيته الظاهرة أو الخفية ؟ » ، فقال باسما : « لعلك مريض فاذهب الى دكتور نفسانى لعله يحللك » ، فقال له : « من الطريف أن مقالتى القادمة فى مجلة الفكر عن : « كيف تحلل نفسك » ، فقال له : « أشهد لقد حيرتنى » ، فقال : « أنا الحائر الى الأبد » .

ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف فى طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت . عرفها من أول نظرة رغم أنه

لم يرها منذ سبعة عشر عاما على الأقل . ولم تكن « الهانم » التى عرفها قديما . ذبلت ذبولا محزنا وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن فى وسع انسان أن يتصور أن هـذه المرأة الساعية فى هزالها هى نفس الهانم التى كانت تخطر فى حديقة القصر فى نهاية من الجمال والكمال !. ورغم هذا كله فقد ذكرته هيئة رأسها بعايدة فقطع قلبه منظرها ، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها والا ما استطاع أن يبتسم . ثم ما يدرى الا وهو يتذكر عائشة ! ، ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح فى البيت وهى تبحث عن طاقم أسنانها التى نسيت أين أودعته قبل نومها . وأول أمس رأى بدور واقفة فى الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متهيأة للخروج ! . وتساءل ترى أتخرج وحدها ؟ . وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى فى سبيله متمهلا متفكرا . حقا لو جاءت وحدها فانما تجىء له . هذا الظفر المسكر لعله يغسل اهانة حلت منذ سنين !. ولكن هـل كانت عايدة تفعل هذا ولو انشق القمر ؟!. وعندما بلغ منتصف الطريق التفت الى الوراء فرآها قادمة .. وحدها !. وخيل اليه أن خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران . وسرعان ما شـعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض جوانب نفسه الى الهروب ! . كان تبادل الابتسام قبل ذلك لهوا عاطفيا بريئا أما اللقاء فسيكون له شأن وأى شأن . هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم فى الاختيار . ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدا من التروى !. ولكنه لم يهرب ، وتقدم فى خطاه المتمهلة كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق الى شارع الجلال ، وفى التفـاتة منه التقت عيناهما فى ابتسامة ، فقال :

ـ مساء الخير ...

ـ مساء الخير ..

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد :

ــ الى أين ؟

ــ عند واحدة صاحبتى ، هناك فى هذا الاتجاه . .

وأشارت صوب شارع الملكة نازلى ، فقال فى استهتار :

ــ انه طريقى فهل تسمحين بأن نسير معا . .؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ــ تفضل . .

وسارا جنبا الى جنب . انها لم تتحل بهذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبتها ولكن لتقابله هو ، وها هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان ، ولكن كيف يكون مسلكه ؟ ، لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيىء له فرصة مواتية فاما ينتهزها اكراما لها واما يتجاهلها فيفقدها الى الأبد ، هى كلمة قد تقال فيتورط قائلها مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر ، هكذا دفع الى مأزق وهو لا يدرى ، وها هو الطريق يطوى ولعلها تترقب ، وهى تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست من آل شداد ، أجل ليست من آل شداد فى شىء ، لقد انتهى آل شداد ، وولى زمانهم ، وليست التى تسايرك الا فتاة سيئة الحظ ، والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقة :

ــ فرصة سعيدة !

ــ شكرا !

ثم ماذا ؟! ، يبدو انها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته ، وها هى نهاية الطريق تقترب ، يجب أن يقطع برأى فاما التورط واما الوداع ، لعلها لا تتصور أبدا أن يفترقا ببساطة ، ولو كلمة واعدة ، وها المفترق على بعد خطوات ، انه يشعر شعورا مؤلما بمدى الخيبة التى ستمنى بها ، ويأبى لسانه أن ينطق ، أم يتكلم وليكن ما يكون ؟!. وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة كأنما

تقول آن لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته ، ثم مدت يدها ، فتلقاها بيده ، وصمت فترة رهيبة ، ثم غمغم :

ـ مع السلامة !

واستردت يدها ثم مالت الى عطفة جانبية . أوشك أن يناديها . ان ذهابها متعثرة بالخيبة والخجل كابوس لا يحتمل . وأنت أدرى بهذه المواقف التعيسة . غير أن لسانه انعقد . فيم كانت متابعته لها طوال الشهرين الماضيين ؟ . أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها ؟. أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية التى عاملتك بها أختها ؟. وأنت تحبها ؟!. وهل تلقى من ليلتها ما لقيت من ليلتك التى خلفتها وراءك كالجمرة المتقدة تضىء فى غياهب الماضى بالألم المنصهر ؟ !.

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أيريد حقا أن يبقى أعزب لكى يكون فيلسوفا أم أنه يدعى الفلسفة ليبقى أعزب ؟. وقال له رياض هذا شىء لا يصدق ولسوف تندم ! ، وهو شىء لا يصدق حقا ولكن هل يندم يضا ؟. وقال له كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت تتحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك ؟ ، ليست فتاة أحلامه . . ان فتاة أحلامه لم تكن لتسعى اليه أبدا . وأخيرا قال لى انك فى نهاية السادسة والثلاثين من عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحا للزواج ،فامتعض لقوله وداخلته كآبة . . .

٤٦

جاءت كريمة الى السكرية فى حلة العرس فى عربة مع والديها واخيها . وكان فى استقبالهم ابراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال . ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف الا طاقات الورد التى طوقت الصالة ، أما المنظرة فقد امتلأت بذوى اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ على المنوفى . ومع أنه كان قد مر عام ونصف عام على وفاة السيد الا أن أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد . أما عائشة فانها عندما دعتها خديجة الى شهود الدخلة الصامتة هزت رأسها عجبا وقالت بلهجة عصبية :

ــ أنا لا أشهد الا المآتم !

وقد تألمت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلى بالحلم المثالى حيال عائشة . وقد جهز الدور الثانى بالسكرية للمرة الثانية بأثاث العرس . وجهز ياسين ابنته كما ينبغى وباع فى سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له الا بيت قصر الشوق . وبدت كريمة آية فى الجمال ، وقد شابهت أمها فى عهدها الزاهر خاصة فى عينيها الدافئتين ، ولم تكن بلغت سن الزواج الا فى الأسبوع الماضى من اكتوبر . ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغى لأم العريس ، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالت على اذنه قائلة :

ــ على أى حال فهى ابنة ياسين ، ومهما يكن من أمر فهى خير ألف مرة من عروس العنابر !

وقد مد بوفيه صغير فى حجرة السفرة للأسرة ، ومد آخر فى

الفناء لمدعوى عبد المنعم من ذوى اللحى . ولم يكن يتميز عنهم اذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك :

ـ الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التى تبدو فيها مثل محمد العجمى بياع الكسكسى ؟!

وجلس أفراد الأسرة فى حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذى جالس أصحابه ، وأحمد الذى شاركه الترحيب بهم بعض الوقت ، ثم انتقل الى حجرة الاستقبال حيث انضم الى أهله وهو يقول باسما :

ـ تراجعت المنظرة فى الزمان ألف عام !

فسأله كمال :

ـ فيم يتحادثون ؟

ـ عن معركة العلمين ، وقد ارتجت جدران المنظرة بأصواتهم .

ـ وكيف شعورهم حيال انتصار الانجليز ؟

ـ الغضب طبعا ، انهم أعداء الانجليز والألمان والروس جميعا ، وهكذا لم يرحموا العريس حتى فى ليلة زفافه . .

وكان ياسين جالسا الى جانب زنوبة ، يبدو فى زينته كأنما يصغرها بعشرة أعوام ، فقال :

ـ فليأكلوا بعضهم البعض بعيدا عنا ، ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب . .

فقالت خديجة باسمة :

ـ لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك !

ورمقت زنوبة بنظرة ماكرة حتى ضحك الجميع ، وكان قد ذاع فى الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل ساكنة جديدة فى بيته ، وأن زنوبة ضبطته متلبسا أو كالمتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها الى اخلاء الشقة . فقال ياسين يدارى ارتباكه :

ـ كيف أفرغ لمزاجى وبيتى محكوم بالأحكام العرفية !

فقالت زنوبة فى امتعاض :

ـ هل استحييت أمام ابنتك ؟

فقال ياسين فى توسل :

ـ انى برىء والجارة المسكينة مظلومة !

ـ أنا الظالمة ! ، أنا التى ضبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأننى ضللت سبيلى فى الظلام ! ، هه ؟ ، أربعون عاما فى البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك ؟!

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة فى تهكم :

ـ انه كثير الخطأ فى الظلام !

ـ وفى النور على السواء . .

واذا بابراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلا :

ـ وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد افندى حسن ؟

فقال ياسين مصححا :

ـ محمد افندى زفت !

وأجاب رضوان حانقا :

ـ انه ينعم الآن بثروة جدى التى آلت الى امى !

وقال ياسين محتجا :

ـ ميراث لا يستهان به ، وكلما قصدها رضوان فى معونة للترفيه أو خلافه تصدى له الصفيق وناقشه الحساب !

فقالت خديجة مخاطبة رضوان :

ـ انها لم تنجب غيرك ، وخير لها أن تمتعك بمالها فى حياتها . .

ثم مستدركة :

ـ وقد آن لك أن تتزوج ، أليس كذلك ؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثم قال :

ـ عندما يتزوج عمى كمال !

ـ لقد يئست من عمك كمال ولكن لا ينبغى أن تقلده . .

واصغى كمال لمـا يدور حوله بامتعاض وان لم يبد أثره فى وجهه . لقد يئست منه ويئس هو من نفسه . وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلنا بذلك عن شعوره بذنبه ، غير أنه كان يقف عند طرف المحطة ليراها فى شرفتها من حيث لا تراه . لم يستطع أن يقاوم رغبته فى رؤيتها ، ولا أن ينكر حبه لها ، أو بتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها ! ، حتى قال له رياض انك مريض وتأبى أن تبرأ !.

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى :

ـ أكان محمـد حسن يناقشك الحساب لو كان السـعديون فى الحكم ؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال :

ـ انه ليس الوحيـد الذى يناقشنى الحساب اليوم ، ولكن صبرا ، ان هى الا أيام أو أسابيع .

فسألته سوسن حماد :

ـ أتظن أن أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه ؟

ـ أيامه رهن بمشـيئة الانجليز ، وعلى أى حال فلن تطول الحرب الى الأبد . . ، ثم يجىء وقت الحساب !

فقالت سوسن فى جد ظاهر :

ـ المسئول الأول عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشيست لطعن الانجليز من الخلف . .

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة ، متعجبة من « استرجالها » فى الحديث ، فما تمالكت أن قالت :

ـ المفروض أننا فى فرح ، تكلموا فى أمور مناسبة !

ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام ، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمة ، أما ابراهيم شوكت فقال ضاحكا :

ـ عذرهم أن أفراحنا لم تعد أفراحا ! ، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته ..

فقال ياسين متحسرا :

ـ تزوجت ثلاث مرات ولكننى لم أزف مرة واحدة !

فقالت زنوبة بانتقاد مر :

ـ أتذكر نفسك وتنسى ابنتك ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـ نزف فى الرابعة ان شاء الله ..

فقالت زنوبة فى تهكم :

ـ أجلها حتى تزف رضوان !

فغضب رضوان دون أن ينبس . لعنة الله عليكم جميعا وعلى الزواج أيضا ، ألا تدركون أننى لن أتزوج أبدا ! ، واننى أود لو أقتل من يفاتحنى بهذه السيرة اللعينة . وعقب صمت قصير قال ياسين :

ـ ليتنى أبقى فى بوفيه السيدات حتى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفوننى !

فأدركته زنوبة قائلة :

ـ لو عرفوا سيرتك لرجموك !

فقال أحمد ساخرا :

ـ ستخوض لحاهم فى الصحاف ، وتكون معـــركة ، وخالى كمال هل يحب الاخوان ؟

فقال كمال باسما :

ـ أحب منهم واحدا على الأقل !

والتفتت سوسن الى العروس الصامتة وسألتها بمودة :

ـ وما رأى كريمة فى لحية زوجها ؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحنى رأسها المتوج ولم تتكلم ، فأجابت عنها زنوبة قائلة :

ــ قليل من الشبان من هم فى تدين عبد المنعم ..

فقالت خديجة :

ــ يعجبنى تدينه ، هذا خلق فى دم أسرتنا ، ولكن لا تعجبنى لحيته ...

فقال ابراهيم شوكت ضاحكا :

ــ اعترف بأن ابنى ــ المؤمن والمارق على السواء ــ مجنونان !.

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

ــ الجنون خلق فى دم أسرتنا أيضا !.

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعاجلها قائلا قبل أن تنبس :

ــ أعنى أننى مجنون ، وأظن كمال أيضا مجنون ، وان شئت فأنا المجنون وحدى !.

ــ هذا هو الحق دون زيادة .

ــ وهل من العقل أن يقضى انسان على نفسه بالعزوبة ليتفرغ للقراءة والكتابة ؟.

ــ سيتزوج عاجلا أو آجلا ويكون سيد العقلاء .

فسأل رضوان عمه كمال قائلا :

ــ لم لا تتزوج يا عمى ؟. أريد أن أقف فى الأفل على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسى حين الضرورة !.

فقال له ياسين :

ــ أتنوى الاضراب عن الزواج ؟. لن أسمح بهذا ما حييت ، ولكن انتظر حتى تعودوا الى الحكم ثم تزوج زواجا سياسيا رائعا !.

أما كمال فقال له :

ــ اذا لم يكن عندك مانع فتزوج فى الحال ..

هذا الشاب ما أجمله !. وهو مرشح للجاه والمال !. لو رأته

عايدة فى زمانها لعشقته ، ولو ألقى نظرة عابرة على بدور لشغفها حبا ، أما هو فيدور على نفسه والدنيا كلها تتقدم ، ولا يزال يتساءل : أتزوج أم لا أتزوج ! . والحياة تبدو حيرة مطلقة ، فلا هى فرصة سانحة ولا هى فرصة ضائعة ، والحب عشير طبعه الخصام والعذاب ، فليتها تتزوج حتى يخلص من حيرته وعذابه !.

واذا بعبد المنعم يدخل عليهم تتقدمه لحيته وهو يقول :

— تفضلوا الى البوفيه ، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة . .

٤٧

كان كمال يسير متسكعا فى شارع فؤاد الأول ، وكانت الساعة تدور فى العاشرة من صباح الجمعة فلقى طريقا غاصا بالمارة والواقفين ، نساء ورجالا . وكان الجو لطيفا كأكثر أيام نوفمبر ، يغرى بالمشى ، وقد ألف أن يتخفف من عزلته القلبية بالاندساس بين الناس فى يوم عطلته ، فيمضى على وجهه بلا غاية ، متسليا بمشاهدة الناس والأشياء . وصادفه فى طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فخيوه برفع أيديهم الى رءوسهم فرد تحياتهم بأحسن منها باسما . ما أكثر تلاميذه !. منهم من توظف ، ومنهم من لا يزال بالجامعة ، وغالبيتهم بين الابتدائى والثانوى ، فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاما . وكان منظره التقليدى لا يكاد يتغير ، البدلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ ، حتى درجته السادسة لم تتغير أربعة عشر عاما رغم ما يشاع عن تفكير الوفد فى انصاف الهيئات المظلومة ، شىء واحد تغير هو راسه الذى انتشر المشيب فى سوالفه . وبدا سعيدا بتحيات تلاميذه

الذين يحبونه ويحترمونه ، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحـد من المدرسين ، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه ، وبالرغم مما اعترى تلاميذه هذه الأيام من شيطنة وجموح !

وعندما بلغ به تسكعه تقاطع عمـــاد الدين مع فؤاد الأول ما يدرى الا وبدور تطالعه وجها لوجه . وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الانذار ، وجمد بصره لحظات ، ثم هم بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج ، غير أنها حولت عنه عينيها فى تجاهل بين ودون أن تلين أســاريرها ثم مرقت من جانبــه ، وعند ذاك فحسب رأى أنها تتأبط ذراع شاب تسير فى صحبته !. وتوقف عن المسير ، ثم أتبعها ناظريه ، أجل هى بدور ، فى معطف أسود أنيق ، وهذا صاحبها فى مثل أناقتها ولعله لم يبلغ الثلاثين بعد . وبذل جهدا صادقا ليتمالك نفســه التى هزتها المفاجأة ثم تساءل فى اهتمام من يكون هذا الشاب ؟. ليس أخا لها ، ولا هو بالعاشق اذ أن العشاق لا يجاهرون بحبهم فى شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة ، فهل يكون .. ! ؟ .. وتتــابعت دقات قلبه فى اشفاق ، ثم تبعهما دون تردد ، وعيناه لا تفارقانهما ، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تنعاه ، ورآهما يتوقفان أمام معرض محل لبيع الحقائب فدنا منهما متباطئا مصوبا عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى اســتقر بصره على الخاتم الذهبى !. ولفحه احساس حار كأنه مزيج من الألم العميق . وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر ، فهل كان هذا الشاب يرصده فى نهاية الطريق ليحل محله ؟ وما ينبغى أن يدهش فان أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأسا على عقب . ووقف أمام محل اللعب على بعد يسير من موقفهما ، يلحظهما وكأنه يتفرج على اللعب . انهــا اليوم تبدو أجمل مما كانت فى أى يوم مضى ، كالعروس بكل معنى الكلمة !.

ولكن ما هذا السواد الذى يشيع فى كافة ملابسها ؟ . ان سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك ؟ . موضة أم حداد ؟. أتكون أمها قد توفيت ؟. ليس من عادته تصفح الوفيات فى الصحف ولكن ماذا يهمه من ذلك ! . الذى يهمه حقا أن صفحة بدور قد انطوت فى كتاب حياته . انتهت بدور ، وعرف السؤال الحائر « أتزوج أم لا أتزوج » جوابه المحتوم ! . فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب ! . وكم تمنى لو تتزوج ليخلص من عذابه فها هى قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العـذاب ! . وخيل اليه أن انسـانا لو ذبح لعانى مثل الاحسـاس الذى يعانيه فى موقفه . ان أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبـذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن موقفهما ، ويتجهان نحوه ، ومرا به فى سلام . واتبعهما عينيه وهم بالسير فى أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر ، ولبث أمام معرض اللعب ، ينظر ولا يرى شيئا . ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع ، وكانت تبتعد دون توقف ، تختفى تارة وراء المـارة وتبدو تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم « وداعا » . ونفذ الى أعماقه شعور العذاب مصحوبا بأنغام حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالا مماثلة ماضية ، دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتها المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفية مبهمة ! . شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنـده حاشية الليل بأهداب النهار . ثم اختفت عن ناظريه ، وربمـا اختفت الى الأبد ، كما اختفت أخت لها من قبل ! . ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبهـا ؟ . لم يسـتطع أن يتفحصه وكم يود أن يفعل . وود — ان يكن موظفا — أن يكون من طبقة أدنى من طبقـة المعلمين ! . ولكن ما هذه الأفكار الصبيانية ! . انه لأمر مخجل .

أما عن الألم فجدير بالخبير به أن يطمئن اذ أنه عرف بالتجربة أن مصيره ــ ككل شيء ــ الى الموت . وانتبه لأول مرة الى معرض اللعب الذى ينبسط تحت عينيه . كان آية فى التنسيق والجمال ، حاويا لشتى فنون اللعب التى يهيم بها الأطفال ، من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق ، فانجذب الى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجرت عنها نفسه المعذبة حتى تشبثت به عيناه . لم يتح له فى طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاويا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان اشباعها . وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدراهم بها ؟ ، ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلا سعيدا ؟ . لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التى تحلم بأن ترده طفلا مثل هذا الطفل الخشبى الذى يلعب فى هذه الحديقة الوهمية الجميلة ! ، انها رغبة سخيفة ومحزنة فى آن . ولعل الأطفال فى الأصل كائنات لا تحتمل ، ولعلها المهنة وحدها التى علمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم . ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رد الى الطفولة محتفظا فى ذات الوقت بعقله النامى وذاكرته ؟ ، فيعود الى اللعب فى بستان السطح بقلب عامر بذكريات عايدة ، أو يمضى الى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عايدة وهى تلعب فى الحديقة ويعرف فى الوقت نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده ! ، أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له أن الحرب ستقع عام ١٩٣٩ وانه سيقضى عليه عقب احدى غاراتها ! . يا لها من أفكار سخيفة ولكنها خير على أى حال من التركيز فى هذه الخيبة الجديدة التى ارتطم بها الآن فى شارع فؤاد ، خير من التفكير فى بدور وخطيبها وموقفه منها . ولعل ثمة خطأ فى الماضى يكفر عنه وهو لا يدرى . كيف ومتى وقع هذا الخطأ ؟ . لعله حادث عرض أو كلمة قيلت أو موقف كابده ، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذى

يعانى . يجب أن يعرف نفسه حتى يتيسر له أن يخلصها من آلامها ، فالمعركة لم تنته بعد ، والتسليم لم يقع ، وما ينبغى له أن يقع ، ولعله المسئول الأول عن ذلك التردد الجهنمى الذى انتهى به الى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبها ! . وينبغى التفكير مرتين فى هذا العذاب المبطن بلذة غامضة ، أليس هو الذى ذاقه قديما فى صحراء العباسية وهو يتطلع الى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف ؟ . فهل كان تردده حيال بدور حيلة لدفع نفسه الى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيثمل بعذابها ولذتها معا ؟ ! . يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه ، بل شخصه المفرد ، كمال افندى أحمد ، بل كمال أحمد ، بل كمال فقط ، حتى يتسنى له أن يخلقه من جديد . وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضى جيدا ، وستكون ليلة بلا نوم ، ولكنها ليست الأولى من نوعها ، فعنده منها ذخيرة يصح جمعها فى مؤلف واحد تحت عنوان « ليالى بلا نوم » . ولن يقول ان حياته عبث ، ففى النهاية سيخلف عظاما قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهو ! . أما بدور فقد ولت من حياته الى الأبد . يا لها من حقيقة مليئة بالشجن ، كاللحن الجنائزى . ولم تترك ذكرى حنان واحدة ، لا عناق ولا قبل ، حتى ولا لمسة أو كلمة طيبة . ولكنه لم يعد يخشى السهاد . فقديما كان يلقاه وحيدا ، أما اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب ، ثم يذهب الى عطية فى البيت الجديد بشارع محمد على ، ثم يواصلان أحاديثهما آلتى لا تنقضى . وفى آخر مرة قال لها بلسان أثقله السكر :

ـ كم يوافق أحدنا الآخر !

فقالت له بسخرية مستسلمة :

ـ ما ألطفك فى سكرك . .

فاستطرد :

ــ ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا ..

فقالت مقطبة :

ــ لا تهزأ بى فقد كنت « سيدة » بكل معنى الكلمة ..

ــ نعم ، نعم ، انك ألذ من الفاكهة فى ابانها ..

فقرصته هازئة وقالت :

ــ هــذا قولك ولــكننى اذا ســألتك ريالا فوق ما تعطينى هربت !

ــ أن ما بيننا ليسمو فوق النقود !

فحدجته بنظرة احتجاج وقالت :

ــ ولكن لى طفلان يفضلان النقود على ما بيننا !

فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً :

ــ أنا أفــكر فى التوبة أسوة بالست جليلة ، ويوم يختــارنى التصــوف فسأتنزل لك عن ثروتى !

فقالت ضاحكة :

ــ اذا وصلت التوبة اليك فقل علينا السلام ..

فضحك ضحكة عالية وقال :

ــ لا كانت التوبة المضرة بمثيلاتك !

الى هذا يفزع من السهاد ! . ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب ..

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة :

ـ حقيقى يا حبيبى انهم سيغلقون الخمارات ؟

فأجاب ياسين بثقة واطمئنان :

ـ لا سمح الله يا خالو ! ، من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية ، ومن عادة الحكومة أن تعد بالنظر فى تحقيق رغبات النواب فى أقرب فرصة ، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبدا ..

واستبقت جماعة ياسين بحانة محمد على الى المشاركة فى التعليق ، فقال رئيس المستخدمين :

ـ طول عمرهم يعدون باخراج الانجليز ، وبفتح جامعة جديدة ، وبتوسيع شارع الخليج ، فهل تم شيء من هذا يا خالو ؟

وقال عميد ذوى المعاشات :

ـ لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب خمراً زعافا من خمور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه ..

وقال المحامى :

ـ ومهما يكن من أمر ، فان حانات الشوارع الافرنجية لن تمس بسوء ، فما عليك يا خالو اذا وقع المحذور ، الا أن تسهم فى تاقرنا أو غيرها .. والخمار للخمار كالبنيان يشد بعضه بعضا !

وقال باشكاتب الأوقاف :

ـ اذا كان الانجليز قد دفعوا بدباباتهم الى عابدين لمسألة تافهة هى اعادة النحاس الى الحكم ، فهل تظنهم يسكتون عن اغلاق الخمارات ؟ !

وكان بالحجرة ـ الى جماعة ياسين ـ نفر من أهل البلد من

التجار ، ولكن على الرغم من ذلك اقترح الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلا :

ـ هلموا نغنى « أسير العشق » .

فبادر خالو بالعودة الى موقفه وراء الطاولة ، وراح الأصدقاء يغنون « أسير العشق يا ما يشوف هوان » ، وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام فى أصواتهم حتى لاحت فى وجوه أهل البلد بسمات ساخرة . غير أن الغنـاء لم يستمر طويلا ، وكان ياسين أول المنسحبين ، ثم تبعه الآخرون فلم يتم الدور الا الباشكاتب ، ثم ساد سكوت تقطعه من حين الى حين مصمصة أو تمطق أو يد تصفق فى طلب كأس أو مزة ، واذا بياسين يقول :

ـ أما من وسيلة ناجعة للحبل ؟

فقال الموظف العجوز كالمحتج :

ـ لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده ! ... صبرك بالله يا أخى ..

وقال باشكاتب الأوقاف :

ـ لا داعى الى الجزع يا ياسين افندى ، ومسير بنتك تحبل !

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء :

ـ انها عروسة كالوزدة ، زينة السكرية ، ولكنها أول فتاة فى أسرتنا يمر عليها عام على زواجها دون أن تحبل ، لهذا جزعت أمها !

ـ وابوها فيما يبدو !

فقال ياسين ضاحكا :

ـ اذا جزعت الزوجة جزع زوجها ..

ـ لو يتذكر الانسان قرف الأولاد لكره الحبل !

ـ ولو ! ، الناس يتزوجون عادة لانجاب الذرية ..

ـ لهم حق ! ، لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد ..

فشرب ياسين كأسه وهو يقول :

ـ أخشى أن يكون ابن أختى من أتباع هذا الرأى ..

ـ بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم فيستردوا شيئا من حريتهم المفقودة !

فقال ياسين :

ـ هيهات ، المرأة ترضع طفلا وتهدهد آخر ولكنها فى نفس الوقت تحملق فى زوجها ، أين كنت ؟، لماذا غبت الى هذه الساعة ؟، ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن يغيروا هذا النظام الكونى ؟

ـ ماذا منعهم ؟

ـ أزواجهم ! ، لم يدعن لهم فرصة للتفكير فى ذلك ...

ـ اطمئن يا ياسين افندى ، فان زوج بنتك لا يمكن أن ينسى فضل ابنك فى توظيفه ..

ـ كل شىء ينسى ...

ثم ـ وهو يضحك ـ وقد دغدغت الخمر رأسه :

ـ ثم ان « المحروس » نفسه خارج الحكم الآن !

ـ آه ! ، والوفد سيعمر هذه المرة فيما يبدو ..

واذا بالمحامى يقول بلهجة خطابية :

ـ لو سارت الأمور سيرا طبيعيا فى مصر لحكم الوفد الى الأبد ..

فقال ياسين ضاحكا :

ـ هذا القول له وجاهته لولا خروج ابنى على الوفد !

ـ ولا تنسوا حادث القصاصين ! ، اذا مات الملك فقل على أعداء الوفد السلام !

ـ الملك بسلام !

ـ الأمير محمد على يعد بدلة التشريفة ! ، وهو منسجم مع الوفد طول عمره ..

ـ الجالس على العرش ـ أيا كان اسمه ـ هو عدو للوفد بحكم مركزه كالويسكى والحلوى لا يتفقان !

فقال ياسين وهو يضحك نشوة :

ـ لعل الحق معكم ، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة ، وأنتم منكم من بلغ أرذل العمر ومنكم من يوشك أن يدركه !

ـ اسم الله عليك انت يا بن السبعة والأربعين !

ـ على أى حال فأنا أصغركم سنا . . .

ثم فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء ، واستطرد :

ـ ولكن العمر الحقيقى لا يقاس بالسنين ، ولكن بالنشوة ينبغى أن يقاس ، والخمر قد انحطت نوعا ومذاقا فى أيام الحرب ولكن نشوتها هى هى ، وعند الاستيقاظ صباحا يدق رأسك الصداع فتفتح جفنيك بكماشة ثم تتجشأ كحولا ، غير أنى أقول لكم انه فى سبيل النشوة يهون أى شىء ، ورب أخ يتساءل والصحة ؟، أجل لم تعد الصحة كما كانت ، وابن السبعة والأربعين غير مثيله فى الزمن الأول مما يدل على أن كل شىء قد غلا ثمنه فى الحرب الا العمر فلا ثمن له ، فى الزمن الأول كان الرجل يتزوج فى الستين من عمره أما فى زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن الوصفات المقوية ، والعريس فى شهر العسل قد يوحل فى شبر ماء !

ـ الزمن الأول ! ، أهل الدنيا جميعا يسألون عنه !

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترن فى أوتار صوته :

ـ الزمن الأول ، اللهم ارحم أبى ، شد ما ضربنى ليمنعنى من الاشتراك الدموى فى الثورة ! ، ولكن الذى لا ترهبه قنابل الانجليز لا يرهبه الزجر ! ، وفى قهوة أحمد عبده كنا نجتمع لتدبير المظاهرات وقذف القنابل . . .

ـ هذه الأسطوانة من جديد ! ، خبرنى يا ياسين افندى أكان وزنك أيام الجهاد كوزنك اليوم ؟

ـ وأثقل ، غير انى كنت حين الجد كالنحلة ، وفى يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخى أول شهداء الحركة الوطنية ، فسمعت أزيز الرصاص وهو يمرق لصق أذنى ويستقر فى أخى ، يا للذكرى ! ، لو امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين !

ـ ولكن العمر امتد بك أنت !

ـ نعم ، ولكن ما كان بوسعى أن أكون وزيراً بالابتدائية ، ثم اننا فى جهادنا توقعنا الموت لا المناصب ، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبوأ المناصب آخرون ، وفى جنازة أخى مشى سعد زغلول فقدمنى اليه زعيم الطلبة ، هذه ذكرى عظيمة أخرى !

ـ ولكن كيف وجدت ـ رغم جهادك ـ متسعا للعربدة والعشق !

ـ اسمعوا يا هوه ! ، وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون النساء فى الطرق أليسوا هم الذين ردوا رومل على أعقابه ؟ ! ، فالجهاد لا يكره الفرفشة ، والخمر لو علمتم روح من الفروسية ، والمجاهد والسكران اخوان يا أولى الألباب !

ـ وسعد زغلول ألم يقل لك شيئا فى جنازة أخيك .. ؟

فأجاب عنه المحامى قائلا :

ـ قال له ليتك كنت الشهيد انت !

وضحكوا ، وكانوا فى هذه الحال يضحكون أولا ثم يتساءلون عن السبب ، وضحك معهم ياسين فى أريحية صافية ثم واصل حديثه قائلا :

ـ لم يقل هذا ، كان رحمه الله مؤدبا لا كحضرتك ، وكان ابن حظ أيضا ، ولذلك كان واسع الآفاق ، فكان سياسيا ومجاهدا وأديبا وفيلسوفا وقانونيا ، وكانت كلمة منه تحيى وتميت !

ـ الله يرحمه .

ـ ويرحم الجميع ، كل ميت يستحق الرحمة ، بحسبه أنه فقد الحياة ، حتى المومس وحتى القواد ، وحتى الأم التى كانت تبعث بابنها الى رفيقها ليعود اليها به ...

ـ وهل يمكن أن توجد هذه الأم ؟

ـ كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد فى الحياة !

ـ ألم تجد الا ابنها ؟

ـ ومن أرعى للأم من الابن ؟ ! ، ثم انكم جميعا أبناء المضاجعة !

ـ الشرعية !

ـ هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة ، وقد عرفت مومسات بائسات كان فراشهن يخلو من ضجيع أسبوعا أو أكثر ، دلونى على أم من أمهاتكم قضت مثل هذه الفترة بعيدا عن قرينها ؟

ـ لا أعرف شعبا كالشعب المصرى ولعا بالخوض فى أعراض الأمهات !

ـ نحن شعب قليل الأدب !

فقال ياسين ضاحكا :

ـ ان الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى ، والشىء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، ولذلك فنحن غير مؤدبين ! ، ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك ، فالتوبة عادة ختامنا !

ـ ها أنا من ذوى المعاشات ولكننى لم أتب بعد !

ـ التوبة لا تخضع لكادر الموظفين . ثم انك لا تفعل شيئا ضارا ، انك تسكر ساعات كل ليلة وليس فى ذلك من بأس ، وسوف يمنعك عن السكر يوما المرض أو الطبيب وكلاهما شىء واحد ، ونحن بطبعنا ضعفاء ، ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة الزوجية ، ونزداد بمرور الأيام ضعفا ولكن رغائبنا لا تقف عند حد ، هيهات ، فنتعذب ثم نسكر مرة أخرى ،

ويشيب شعرنا فيفضح منا المستور واذا بصفيق يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول « عيب أن تطارد امرأة وشعرك شايب ! » يا سبحان الله مالك أنت اذا كنت شابا أم شيخا ، أتبع امرأة أم أتبع حمارة ! ، حتى تخال حينا أن النـاس متآمرون مع زوجك عليك ، وهنالك الى ذلك كله الدلال بتقله والعسكرى بهراوته ، حتى الخادمة تتيه دلالا فى سوق الخضـار ، وهكذا تجد نفسك فى عالم مشاكس لا صـديق لك فيـه الا الكأس ، ثم يجىء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون لك بكل بساطة « لا تشرب ! » ..

ــ ومع ذلك أتنكر أننا نحب الدنيا بكل قلوبنا ؟

ــ بكل قلوبنا ! ، والشر نفسه لا يخلو من خير ، حتى الانجليز لا يخلون من خير . لقد عرفتهم يوما عن كثب ، وكان لى منهم أصدقاء على عهد الثورة !

فهتف المحامى :

ــ ولكنك كنت تجاهدهم .. أنسيت ؟ !

ــ نعم .. نعم ، لكل حال ما يناسـبها ، وفى مـرة ظنونى جاسوسا لولا أن سارع الى زعيم الطلبة فى اللحظة المناسـبة فدل القوم على حقيقتى فهتفوا لى ، وكان ذلك فى جامع الحسين !

ــ يعيش ياسين .. يعيش ياسين ! ، ولكن ماذا كنت تفعل فى جامع الحسين ؟ !

ــ أجب ، هذه نقطة هامة جدا .. !

فضحك ياسين ثم قال :

ــ كنا نصلى الجمعة ، وكان من عادة أبى ان يأخذنا معه لصلاة الجمعة ، ألا تصدقون ؟ ، سلوا أهل الحسين ؟ !

ــ كنت تصلى زلفى لأبيك ؟

ــ والله ، لا تسيئوا الظن بنا ، نحن أسرة دينية ، أجل كلنا سكيرون فاسقون ، ولكن فى النهاية تنتظرنا التوبة !

وهنا تأوه المحامى قائلا :

ــ ألا نعاود الغناء قليلا ؟

فبادره ياسين قائلا :

ــ أمس غادرت الحانة وأنا أغنى فاعترضنى شرطى وهتف بى محذرا « يا افندى ! » فسألته « ألا يحق لى أن أغني ؟ » ، فقال « ممنوع الزعق بعد الساعة ١٢ » فقلت محتجا « ولكننى أغنى ! » ، فقال بحدة « كله زعق أمام القانون » ، فسألته « والقنابل التى تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تعد زعقا ؟ » فقال مهددا « الظاهر انك ترغب فى البيات فى القسم » ، فابتعدت عنه وأنا أقول « بل الأفضل أن أبيت فى البيت ! » ، كيف نكون أمة متحضرة والعساكر تحكمنا ؟ ! ، وفى البيت تلقى زوجك بالمرصاد ، وهنالك فى الوزارة رئيسك ، حتى فى التربة يستقبلك ملاكان بالهراوات . .

وعاد المحامى يقول :

ــ فلنمز بشىء من الغناء . . .

فتنحنح عميد ذوى المعاشات ثم راح يترنم :

جوزى اتجوز عليه ولسه الحنة فى ايديه

يوم ماجه وجبها عليه دى نار ياناس وآدت فيه

وسرعان ما رددوا المطلع فى حماس همجى ، وكان ياسين يغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه . . .

٤٩

كثيرا ما كانت تشعر خديجة بأنها وحيدة . ومع أن ابراهيم شوكت ـ خاصة منذ أن قارب السبعين ـ كان يعتكف فى بيته طوال أيام الشتاء ، الا أنه لم يستطع أن يبدد وحشتها ، ولم تهن فى القيام بواجبات بيتها ، غير أنها ـ الواجبات ـ باتت أهون من أن تستغرق حيويتها ونشاطها ، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قوية نشيطة وازدادت جسامة . وأسوأ من هذا ان وظيفتها كأم قد انقطعت على حين أن دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدا فيما بدا . فاحدى الزوجتين ابنة أخيها ، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقى بها الا فيما ندر من الأوقات والمناسبات . فكانت تروح عن صدرها المكبوت فيما يدور من حديث بينها وبين زوجها المتلفع بعباءته .

ـ مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعا !

فهز الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول :

ـ لعل عبد المنعم وأحمد يعدان الذرية موضة قديمة كطاعة الوالدين !

فقال الرجل فى ضجر :

ـ أريحى نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا !

فتساءلت فى حدة :

ـ اذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها ؟

ـ لعل ابنيك يخالفانك فى هذا الرأى !

ـ لقد خالفانى فى كل شىء ، ما أضيع تعبى وأملى . .

ـ أيحزنك الا تكونى جدة ؟

فقالت فى حدة تعالت درجتها :

ــ ان حزنى عليهما لا على نفسى !

ــ لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره خيرا ..

ــ أنفق المسكين كثيرا وسينفق غدا أكثر ، ان عرائس اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم !

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول :

ــ أما الأخرى فأستعين عليها بسيدى آلمتولى .

ــ اعترفى بأن لسانها كالشهد !

ــ مكر ودهاء ، ماذا تتوقع من ابنة العنابر ؟

ــ اتقى الله يا شيخة !

ــ ترى متى يذهب بها « الأستاذ » الى الطبيب ؟

ــ انهما زاهدان فى هذا !

ــ طبعا ، انها موظفة ، فمن أين تجد وقتا للحبل والولادة ؟

ــ انهما سعيدان ما فى ذلك شك ..

ــ الموظفــة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة ، وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان ...

ــ انه رجل ولن يضيره ذلك ...

ــ ليس فى هذا الحى كله شابان كولدى فيا للخسارة !

❋❋❋

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتجاهه ، فأثبت انه موظف كفء و « أخ » نشيط . وقد انتهى الاشراف على شعبة الجمالية اليه فعين مستشارا قانونيا لها ، وأسهم فى تحرير المجلة ، وكان يلقى المواعظ أحيانا فى المساجد الأهلية . وجعل من شقته ناديا لاخوانه يسهرون عنده كل ليلة وعلى رأسهم الشيخ على المنوفى .

وكان الشاب شديد التحمس موفور الاستعداد كى يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل فى خدمة الدعوة التى آمن بكل قلبه - على حد تعبير المرشد - بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعيــة . وكان الشيخ على المنوفى يقول :

- تعاليم الاسلام وأحكامه شاملة تنظيم شئون الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن الذين يظنون أن هــذه التعاليم انما تتناول الناحية الروحية أو العبادية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن ، فالاسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف ...

فيقول شاب من المجتمعين :

- هذا هو ديننا ، ولكننا جامدون لا نفعــل شــيئا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله ...

فيقول الشيخ على :

- لا بد من الدعاية والتبشير وتكوين الأنصار المجاهدين ، ثم تجىء مرحلة التنفيذ ...

- والام ننتظر ؟

- لننتظر حتى تنتهى الحرب ، ان الحقل مهيأ لدعوتنا ، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب ، وعندما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الاخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه ..

عبد المنعم بصوته القوى العميق :

- فلنوطن النفس على جهاد طويل ، ان دعوتنا ليست موجهة الى مصر وحدها ، ولكن الى كافة المسلمين فى الأرض ، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم الاسلامية على هذه المبادى القرآنية ، فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستورا للمسلمين أجمعين ...

الشيخ على المنوفى :

ـ أبشركم بأن دعوتنا تنتشر بفضل الله فى كل بيئة ، لها اليوم مركز فى كل قرية ، انها دعوة الله ، والله لا يخذل قوما ينصرونه ..

وفى نفس الوقت ، كان يستعر نشاط آخر فى الدور التحتانى وان اختلف الهدف . ولم يكن وفير العدد كهذا ، فان أحمد وسوسن كانا يجتمعان فى كثير من الليالى بعدد محدود من الأصدقاء مختلفى النحل والملل ، أكثرهم من البيئة الصحفية . وقد زارهم الأستاذ عدلى كريم ذات مساء ، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظرية . فقال لهم :

ـ حسن أن تدرسوا الماركسية ، ولكن تذكروا أنها وان تكن ضرورة تاريخية الا أن حتميتها ليست من نوع حتمية الظاهرات الفلكية ، انها لن توجد الا بارادة البشر وجهادهم ، فواجبنا الأول ليس فى أن نتفلسف كثيرا ولكن فى أن نملأ وعى الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخى الذى عليها أن تلعبه لانقاذ نفسها والعالم جميعا .

أحمد :

ـ اننا نترجم الكتب القيمة عن هذه الفلسفة للخاصة من المثقفين ، ونلقى المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين ، وكلا العملين واجب لا غنى عنه ...

فقال الأستاذ :

ـ ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور الا باليد العاملة ، وحين يمتلىء وعيها بالايمان الجديد ، ويمسى الشعب كله كتلة واحدة من الارادة ، فهنالك لن تقف فى سبيلنا القوانين الهمجية ولا المدافع ...

ـ كلنا مؤمنون بذلك ، غير أن كسب العقول المثقفة يعنى السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم ...

واذا بأحمد يقول :

ـ سيدى الأستاذ ، ثمة ملاحظة أود ابداءها ، عرفت بالتجربة أنه ليس من العسير اقناع المثقفين بأن الدين خرافة وأن الغيبيات تخدير وتضليل ، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهـذه الآراء ، وأن أكبر تهمة يستغلها أعداؤنا هى رمى حركتنا بالالحاد أو الكفر .. ؟

ـ ان مهمتنـا الأولى أن نحـارب روح القنـاعة والخمـول والاستسلام ، اما الدين فلن يتأتى القضاء عليه الا فى ظل الحكم الحر ، ولن يتحقق هذا الحكم الا بالانقلاب ، وعلى العموم فالفقر أقوى من الايمان ، ومن الحكمة دائما أن تخاطب الناس على قدر عقولهم ...

ونظر الأستاذ الى سوسن باسما وهو يقول :

ـ كنت تؤمنين بالعمـل فهل بت تقنعين بالنقـاش فى ظل الزواج ؟..

وكانت تدرك أنه يداعبها وأنه لا يعنى ما يقول ، ومع ذلك فقد قالت جادة :

ـ ان زوجى يحاضر العمال فى الخرابات النائية ، وأنا لا أنى أوزع المنشورات بنفسى ...

ثم قال أحمد مغتما :

ـ ان عيب حركاتنا أنها تجذب اليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين ، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل المصلحة الحزبية !

فقال الأستاذ عدلى كريم وهو يهز رأسه الكبير فى اسـتهانة واضحة :

ـ أعلم هـذا حق العلم ، ولكنى أعلم أيضا أن الأمويين قد ورثوا الاسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذلك فهم الذين نشروه فى

بقاع العالم القديم حتى اسبانيا ! ، فمن حقنا أن نستفيد من هؤلاء ، علينا أن نحذرهم فى الوقت نفسه ، ولا تنسوا أن الزمن معنا على شرط أن نبذل ما فى وسعنا من جهد وتضحية ..

ـ والاخوان يا أستاذ ؟ ، لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة خطيرة فى سبيلنا !

ـ لا أنكر هذا ، ولكنهم ليسوا بالخطورة التى تتخيلها ، ألا ترى أنهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الاسلام ؟ ، فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعارة اصطلاحاتنا ، وهم لو سبقونا الى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقا جزئيا ، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة الى هدفها المحتوم ، ثم ان نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش !.

***

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب فى دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط ، حتى قالت يوما لزوجها :

ـ لم أر بيتا كبيتى عبد المنعم وأحمد ، لعلهما قهوتان وأنا لا أدرى ، فلا يجىء المساء حتى يمتلىء الطريق بالزوار من أصحاب اللحى والخواجات ، لم أسمع عن شىء كهذا من قبل ..

فهز الرجل رأسه قائلا :

ـ آن لك أن تسمعى .. !

فقالت بحدة :

ـ أن مرتبيهما لن يكفيا ثمن القهوة التى تقدم للضيوف !

ـ هل اشتكيا اليك الفقر ؟

ـ والناس ؟ ، ماذا يقولون وهم يرون أفواجا تدخل وأفواجا تخرج ؟

— كل واحد حر فى بيته ...

فنفخت قائلة :

— ان اصوات احاديثهم التى لا تنتهى تعلو أحيانا حتى تخرج الى الحارة ..

— فلتخرج الى الحارة أو فلتصعد الى السماء ..

وتنهدت خديجة من الأعماق وهى تضرب كفا بكف ..

٥٠

كانت ڤيللا عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودع الفوج الأخير من الزوار الذين جاءوا يودعونه قبيل سفره الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج ...

— ان الحج امنية قديمة ، لعن الله السياسة فهى التى شغلتنى عنه عاما بعد عام ، ولكن فى مثل عمرى يجب أن يفكر المرء فى آداب اللقاء القريب بربه ..

فقال على مهران وكيل الباشا :

— لعن الله السياسة !

فردد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وحلمى متفكرا ثم قال :

— قل فيها ما شئت ، غير أن لها جميلا فى عنقى لا أنساه وهو أنها سلتنى عن وحشتى ، ان الأعزب العجوز مثلى يلتمس الأنس ولو فى الجحيم !..

فلعب على مهران حاجبيه وقال :

— ونحن يا باشا الم نقم بواجبنا فى تسليتك ؟

— دون شك ، ولكن يوم الأعزب طويل كليل الشتاء ، ولا بد

للانسان من رفيق ، وانى لأعترف بأن المرأة ضرورة خطيرة ، وكم أذكر أمى هذه الأيام ! ، ان المرأة ضرورة حتى لمن لا يتعشقها !

وكان رضوان يفكر فى أمور بعيدة فاذا به يسأل الباشا :

ـ هب النحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر ؟ !

فلوح الباشا بيده ساخطا وقال :

ـ فليبق بنحسه حتى أعود على الأقل من الحج !...

ثم وهو يهز رأسه :

ـ كلنا مذنب ، والحج يغسل الذنوب ..

فضحك حلمى عزت قائلا :

ـ انك يا باشا مؤمن ، وان ايمانك لمما يحير الكثيرين !

ـ لم ؟ ، ان الايمان واسع الصدر ، والمنافق وحده الذى يدعى البراءة المطلقة ، ومن الغباء أن تظن ان الانسان لا يقترف الذنوب الا على جثة الايمان ، ثم ان ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانى البرىء !

فقال على مهران متنهدا فى ارتياح :

ـ يا له من قول جميل ، والآن دعنى أصارحك بأننى تشاءمت كثيرا حين حدثتنى عن اعتزامك الحج ، وساءلت نفسى ترى أهى التوبة ؟. وهل تنتهى بالنسبة لنا مسرات الحياة ؟!.

فضحك الباشا حتى اهتز جذعه وقال :

ـ أنت شيطان من صلب شيطان ، أتحزنون حقا اذا علمتم انها التوبة ؟.

فقال حلمى عزت متأوها :

ـ كمن ذبح وليدها فى حجرها !.

فضحك عبد الرحيم باشا مرة أخرى وقال :

ـ آه منكم يا أولاد الايه ، على مثلى اذا أراد التوبة حقا أن

ينأى بنفسه عن العيون النجل والخدود الوردية ، وأن يعكف على مجاورة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ...

فهتف مهران فى شماتة :

ـ الحجاز وما أدراك ما الحجاز ، لقد حدثنى عنه العارفون ، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار !.

فقال حلمى عزت كالمحتج :

ـ لعلها دعاية كاذبة كالدعايات الانجليزية ، وهل يوجد فى الحجاز كله وجه كوجه رضوان ؟!.

فهتف عبد الرحيم عيسى :

ـ ولا فى الجنة !.. (ثم متراجعا) .. لكننا يا أولاد الحرام بصدد حديث التوبة !.

فقال على مهران :

ـ مهلا يا باشا ، لقد أخبرتنى يوما عن الصوفى الذى تاب سبعين مرة ، أليس معنى هذا انه أذنب سبعين مرة ؟.

فقال رضوان :

ـ أو مائة مرة !.

فقال على مهران :

ـ أنا راض بسبعين !.

فتساءل الباشا ووجهه يتهلل بشرا :

ـ وهل فى العمر بقية ؟.

ـ ربنا يطول عمرك يا باشا ، طمئنا وقل انها التوبة الأولى !.

ـ والأخيرة !.

ـ فشر ! . اذا تحديتنى فسوف أستقبلك حين العودة من الحج بقمر ولا كل الأقمار ثم ننظر ماذا يكون من أمرك !.

فقال الباشا باسما :

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الاخص ، أنت شيطان يا مهران ، شيطان لا غنى للانسان عنه . .

- أحمد الله على ذلك . .

رضوان وحلمى فى وقت واحد تقريبا :

- ونحمده عليه . .

فقال الباشا فى خيلاء وسرور :

- أنتم أنسى ، ما الحياة بدون المودة والصداقة ؟. الحياة جميلة ، الجمال جميل ، الطرب جميل ، العفو جميل ، أنتم شباب وتنظرون الى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، انى أحبكم وأحب الدنيا ، وان زيارتى لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية . .

فقال رضوان باسما :

- ما أجمل منظرك ، انك تقطر صفاء !.

فقال على مهران بمكر :

- ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى ، حقا يا باشا انك معلم الجيل !.

- وأنت ابليس نفسه يا ابن الهرمة ! . اللهم انى آذا قدمت يوما للحساب فسأشير اليك وكفى !

- أنا !. مظلوم والله ، لست الا عبدا مأمورا !.

- بل أنت شيطان . .

- ولكن لا غنى لانسان عنه ؟!.

فضحك الباشا قائلا :

- نعم يا عكروت . .

- كنت وما أزال فى حياتك العامرة نغما مطربا ووجها مليحا وهناء متجددا ، وأخيرا لا تنس أيام شبابى يا سعادة القادر !.

فتأوه الباشا قائلا :

ــ ايام زمان !. آه من الزمان !. يا أولاد لم تكبر ؟!. جلت حكمتك يا ربى وعلت :

كانت قناتى لا تميل لغامز   فألانها الاصباح والامساء

فقال مهران ملعبا حاجبيه :

ــ لغامز ؟!. بل قل لا تميل لمهران !.

ــ يابن الكلب لاتفسد الجو بهذرك !، لا يجوز أن نعبث عند ذكر الأيام الجميلة ، الدموع أحيانا أجمل من الابتسام وأضخم انسانية وأشد عرفانا بالجميل ، اسمعوا هذا أيضا :

واستنكرتنى وماكان الذى نكرت   من الحوادث ألا الشيب والصلعا

ما رأيكم فى قوله « من الحوادث » ؟ .

واذا بمهران ينادى على طريقة باعة الصحف :

ــ الحوادث والأهرام والمصرى . .

الباشا يائسا :

ــ الحق ليس عليك ولكن ع . . . .

ــ عليك أنت !

ــ أنا !. أنا برىء منك ، عندما عرفتك كنت على حال يحسدك عليها ابليس ، ولكنى لن أسمح لك أن تنتزعنى من جو الذكريات ، نعم ، اسمعوا الى هذا أيضا :

عريت من الشباب وكان غضا   كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج :

ــ القضيب يا باشا ؟!.

الباشا وهو يردد ناظريه بين رضوان وحلمى المغرقين فى الضحك :

ــ صاحبكما جثة لا يؤثر فيها الشعر !. ولكنه سيبلغ قريبا فترة الحسرات ، حين يصير كل جميل خبراً لكان أو احدى

أخواتها ، (ثم ملتفتا الى مهران) وأصحاب زمان يا بن الهرمة هل نسيتهم ؟.

ــ أوه ، الله يمسيهم بالخير .. ، كانوا الجمال كله والدلال كله ...

ــ ماذا تعرف عن شاكر سليمان ؟.

ــ كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الانجليز حتى أحيل على المعاش قبل الأوان فى وزارة النحاس الثانية أو الثالثة لا أذكر ، وأظنه الآن معتكفا فى عزبته بكوم حمادة ..

ــ يا عينى على أيامه ، وحامد النجدى ؟.

ــ هذا أسوأ أحبابنا حظا !. خسر الجلد والسقط ، وانه ليطوف الآن ليلا بالمراحيض العمومية !.

ــ كان خفيفا ظريفا ولكنه كان كذلك مقامرا وعربيدا ، وعلى رأفت ؟.

ــ لقد بلغ « باجتهاده » أن صار عضوا فى مجلس ادارة عدة شركات ، ولكن سمعته ضيعت عليه الوزارة فيما يقال !.

ــ لا تصدق ما يقال ، ولى الوزارة أناس جاوزت شهرتهم حدود المملكة ، غير أن هذا الرأى الذى طالما نوهت لكم عنه وهو أن التحلى بالفضائل العامة واجب علينا أكثر من بقية الناس !. فاذا تحقق لأحدكم هذا فلا تثريب عليه بعد ذلك ، لقد حكم المماليك مصر أجيالا ، وما زالت ذراريهم تتمتع بالجاه والمال ، وما الملوك ؟!. هو ذلك نفسه !. سأقص عليكم قصة عظيمة المغزى .

وصمت الباشا قليلا كأنما ليجمع شتات فكره ثم قال :

ــ كنت فى ذلك الوقت رئيس محكمة ، وحدث أن عرضت على قضية مدنية عن ميراث مختلف عليه ، وقبل نظر القضية عرفنى بعضهم بشاب جميل له وجه رضوان وقوام حلمى .. (ثم مشيرا الى مهران) ورشاقة هذا الكلب فى عز أيامه !.

فتصادقنا عهدا وأنا لا أدرى عن سره شيئا ، حتى اذا كان يوم نظر القضية ما أدرى الا وهو يقف أمامى ممثلا لأحد طرفى النزاع !. ماذا تظنون فعلت ؟.

قتمتم رضوان :

ـ يا له من موقف !.

ـ تنحيت عن نظر القضية دون تردد !.

وأبدى رضوان وحلمى عن اعجابهما أما مهران فقال كالمحتج :

ـ وضيعت عليه كفاحه !؟.

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكنى قطعته احتقارا لسوء خلقه . أجل ، لا قيمة للانسان بلا خلق ، ليس الانجليز بأذكى الناس ، الفرنسيون والايطاليون أذكى منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم !. لذلك أنبذ الجمال التافه المنحط .

فتساءل على مهران ضاحكا :

ـ هل أفهم من ابقائك على أنى ذو خلق ؟.

فأشار الباشا نحوه جادا وهو يقول :

ـ الأخلاق متنوعة ، فالقاضى مطالب بالنزاهة والعدل ، والوزير بالواجب والشعور بالمسئولية العامة ، والصديق بالصفاء والوفاء ، وأنت عربيد بلا شك ووغد فى أحايين كثيرة ولكنك أمين وفى ..

ـ أرجو أن يكون وجهى قد تورد !.

ـ الله لا يكلف نفسا الا وسعها !. والحق انى قانع بما فيك من خير ، ثم انك زوج وأب وهذه فضيلة أخرى ، وهى سعادة لا يقدرها الا من عانى صمت البيوت ، الا أن صمت المقام عذاب الشيخوخة !.

فقال رضوان كالمنكر :

ـ حسبت الشيخوخة محبة للهدوء ! .

ـ تخيلات الشباب عن الشيخوخة ضلال، تخيلات الشيخوخة عن الشباب حسرات ، خبرنى يا رضوان عن رأيك فى الزواج ؟.

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول :

ـ هو الرأى الذى حدثتك عنه من قبل يا باشا .

ـ لا أمل فى العدول عنه ؟.

ـ لا أظن .

ـ لم ؟.

تردد رضوان قليلا ثم قال :

ـ شيء عجيب ، لا أدرى كنهه ، ولكن المرأة تبدو لى مخلوقا مثيرا للاشمئزاز !.

فتجلت فى العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال :

ـ يا للأسف ، الا ترى أن على مهران زوج وأب ؟ . وأن صديقك حلمى من أنصار الزواج ؟ . انى أرثى لك رثاء مضاعفا اذ أنه رثاء لنفسى أيضا ، طالما حيرنى ما قرأت وما سمعت عن جمال المرأة ، غير أنى طويت نفسى على رأيى الخاص اكراما لذكرى أمى ، كنت أحبها حبا جما ، وقد أسلمت الروح بين ذراعى ودموعى تتساقط فوق جبينها وخديها ، وكم أود لو تتغلب على متاعبك يا رضوان . .

فقال رضوان وكان يبدو شاردا ساهما :

ـ يستطيع الانسان أن يعيش بلا امرأة .. ليس الأمر مشكلة !.

ـ يستطيع الانسان أن يعيش بلا امرأة ، ولكن الأمر مشكلة ، وقد لا تبالى تساؤل الناس ولكن ماذا عن تساؤلك أنت ؟. من الممكن أن تقول أن المرأة مثيرة للاشمئزاز ، ولكن لماذا هى لا تثير

اشمئزاز الآخرين ؟. هنالك يركبك احســـاس كالمرض ، مرض لا تعرف له دواء ، فتعتزل العالم به ، وهو شر رفيق فى الوحدة ، وربما أخجلك بعـــد ذلك ان تحتقر المرأة وان تكن مضطرا الى مواصلة احتقارها !.

وهنا نفخ على مهران فيما يشبه اليأس ثم قال :

ـ منيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع !.

فضحك عبد الرحيم باشا وقال :

ـ لكنه وداع حاج ! . ماذا تعرف أنت عن توديع الحجاج ؟ .

ـ سأودعك بالدعاء ثم أستقبلك بالورد والخدود ، ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل ! .

فضرب الباشا كفا بكف وهو يقول ضاحكا :

ـ انى مفوض امرى الى الله ذى الجلال . .

٥١

ـ عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل ، أمام مقهى رتز ، وفجأة ، وجد كمال نفسه أمام حسين شداد !. وتوقفا عن السير وكلاهما يحملق فى وجه صاحبه حتى هتف كمال :

ـ حسين !.

فهتف الآخر بدوره :

ـ كمال !.

ثم تصافحا فى حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة والسرور.

ـ أية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل !.

ـ أية مفاجأة سعيدة !. تغيرت كثيرا يا كمال ، ولكن مهلا لعلى أبالغ !. عودك هو هو ، وجملة منظرك ، ولكن ماهذا الشارب

المحترم !؟. وهـذه النظارة الكلاسيكية وهـذه العصا !. وهذا الطربوش الذى لم يعد أحد يلبسه غيرك !.

ـ وأنت شد ما تغيرت !. سمنت أكثر مما كنت أتصور ، أهذا يتفق وتقاليد باريس ؟. أين حسين زمان ؟!.

ـ وأين باريس زمان ؟. أين هتلر وموسولينى ؟. ما علينا ، كنت ذاهبـا الى ريتز لأشرب قدح شاى فهل عندك مانع من الجلوس معى قليلا ؟.

ـ بكل سرور .

فمالا الى ريتز ثم جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجية المطلة على الطريق ، وطلب حسين شداد الشاى وطلب كمال قهوة ثم عادا يتفحصان بعضهما البعض فى ابتسام . لقد ضخم حسين فامتد طولا وعرضا . ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى ؟. هل ساح فى الأرض والسماء كما كان يود قديما ؟. لكن عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بدلت من طفولة الحياة جدا . وكان قد مضى عام على التقائه ببدور فى شارع فؤاد الأول فبرىء فى أثنائه من نكسة الحب وانزوى آل شداد جميعا فى ركن النسيان ، غير أن ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها ، فبدا الماضى وكأنه يتمطى ناشراً أفراحه وآلامه .

ـ متى عدت من الخارج ؟.

ـ منذ عام تقريبا . .

ولم يحاول مقابلته على الاطلاق !! . ولكن علام يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر ؟!.

ـ لو علمت أنك عدت الى مصر لسعيت الى لقائك !.

ولم يبد على حسين أنه أحرج أو ارتبك ولكنه قال ببساطة :

ـ عدت فوجدت الهموم فى انتظارى ، ألم تبلغك أشياء عنا ؟.

فتجهم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف :

ـ بلى ، عن طريق صديقنا اسماعيل لطيف .

ـ لقد سافر الى العراق منذ عامين كما أخبرتنى والدتى .. وجدت الهموم فى انتظارى كما قلت ، ثم كان على أن أعمل ، وأن أعمل ليل نهار !.

هذا حسين شداد طبعة ١٩٤٤ !. ذلك الذى يعد العمل جريمة انسانية ، أحق وجد ذلك الماضى ؟. لعله لا دليل عليه الا خفقان هذا القلب .

ـ أتذكر آخر مرة تلاقينا ؟!.

ـ أوه !...

وجاء النادل بالشاى والقهوة قبل أن يتم كلامه غير أنه لم يبد متحمسا للذكريات !.

ـ دعنى اذكرك ، كان ذلك فى عام ١٩٢٦ .

ـ غفارم على ذاكرتك !.. (ثم شاردا) .. سبعة عشر عاما فى أوروبا !.

ـ حدثنى عن حياتك هنالك !.

فهز رأسه الذى لم يشب منه الا سوالفه وقال :

ـ دع ذلك الى حينه واقنع الآن بهذه العناوين : أعوام سياحة وفرجة كالحلم ، حب فزواج من باريسية من أسرة محترمة ، الحرب والهجرة الى الجنوب ، افلاس أبى ، العمل فى متجر حماى ، عودتى الى مصر دون زوجى حتى أهيىء لها حياة مستقرة ، ماذا تريد أكثر من ذلك !.

ـ أنجبت أطفالا ؟.

ـ كلا ...

كأنما لا يود أن يتكلم ، ولكن ماذا بقى من الصداقة القديمة حتى يأسف على ذلك ؟. ورغم هذا وجد رغبة قوية فى طرق أبواب الماضى فتساءل :

ــ وماذا عن فلسفتك القديمة ؟.

وتفكر حسين مليا ، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال :

ــ انى غارق فى العمل منذ اعوام وأعوام ، لست الا رجل أعمال!.

أين روح حسين شداد الذى كان يأوى منها الى ظل ظليل من الغبطة الروحية ؟ . ليست فى هذا الرجل الضخم ، لعلها استقرت فى رياض قلدس ، أما هذا الرجل فانه لا يعرفه ، ولا يربطه به الا ماض مجهول ، ماض ود فى تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حية لا صورة فوتوغرافية باردة .

ــ وماذا تعمل الآن ؟.

ــ ألحقنى أحد أصدقاء أبى بوظيفة فى الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر ، والى هذا فانى أقوم بالترجمة فى بعض الصحف الأفرنجية . .

ــ ومتى تخلو من العمل ؟.

ــ فيما ندر ، والذى يهون على المشقة اننى لن أدعو زوجى الى مصر حتى أهيىء لها حياة تناسبها ، فهى من أسرة محترمة ، وكنت حين تزوجت منها معدودا من الأغنياء !.

قال ذلك وضحك ضحكة كأنما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنما يشجعه بها ، وراح يقول لنفسه : من حسن حظى انى سلوتك من زمن طويل ، ولولا ذلك لبكيت عليك من اعماق قلبى !

ــ وأنت يا كمال ماذا تعمل ؟

ثم مستدركا :

ــ أذكر أنك كنت مغرما بالثقافة ؟

ما أجدره بالشكر على هذا التذكر ! ، فهو ميت بالنسبة اليه كما أن الآخر ميت بالنسبة اليه هو ، وآننا لنموت ونحيا كل يوم مرات ! ، وأجابه :

ـ انى مدرس لغة انجليزية ..

ـ مدرس ! ، نعم .. نعم ، تذكرت الآن أشياء ، وكنت ترغب فى أن تكون مؤلفا ؟

ـ يا للرغبات الخائبة !

ـ انى أنشر مقالاتى فى مجلة الفكر ، ولعلى أجمع بعضها فى كتاب عما قريب !

فابتسم حسين ابتسامة كئيبة وقال :

ـ أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك ، أما أنا .. !

وضحك مرة اخرى . اما كمال فقد وقعت جملة « أنت سعيد » من أذنيه موقعا غريبا ، ولم يكن أغرب منها الا اللهجة التى قيلت بها الدالة على الحسد ، فوجد نفسه مرة واحدة سعيدا ومحسودا ، وممن ؟ ، من عميد آل شداد !. غير أنه قال على سبيل المجاملة :

ـ حياتك العملية أجل حياة !

فقال الآخر باسما :

ـ لا اختيار لى ، ومرجوى الوحيد أن أستعيد شيئا من مستوى الماضى ..

وساد الصمت مليا . وكان كمال يتفحص حسين باهتمام ، وكانت صور من الماضى تنبعث خلال تفحصه ، حتى وجد نفسه يسأله قائلا :

ـ وكيف حال الأسرة ؟

فقال دون اكتراث :

ـ بخير ..

فتردد كمال قليلا ثم قال :

ـ كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم ؟

ـ بدور ! ، تزوجت فى العام الماضى ..

ـ ما شاء الله ، أولادنا يتزوجون !

ـ وأنت ألم تتزوج ؟

ترى ألم تعاوده الذكريات ؟.

ـ كلا . . .

ـ أسرع والا فاتك القطار . . .

فقال ضاحكا :

ـ فاتنى بأميال . .

ـ ربما تزوجت من حيث لا تدرى ، صدقنى ، لم يكن الزواج ضمن خطتى ولكننى متزوج منذ أكثر من عشر سنوات . .

فهز كمال منكبيه دون اكتراث وقال :

ـ خبرنى كيف تجد الحياة هنا بعد اقامتك الطويلة فى فرنسا ؟

ـ لم تكن الحياة فى فرنسا عقب الغزو مما يسر ، أما هنا فالحياة يسيرة لطيفة بالقياس الى هناك ، (ثم بحنان) ولكن باريس ، أين أين باريس ؟!

ـ لِم لم تبق فى فرنسا ؟

فقال باستنكار :

ـ أعيش كلا على حمى ؟! ، كلا ، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر ، أما بعد ذلك فلم يكن من السفر بد !

ترى أهو شذا من الكبرياء القديم ؟. ثم وجد نفسه مدفوعا الى مغامرة خطيرة عذبة معا ، فتساءل بمكر :

ـ وما أخبار صاحبنا حسن سليم ؟

فحدجه بنظرة ارتياب لحظة ثم قال ببرود :

ـ لا أدرى عنه شيئا !

ـ كيف ؟!

فقال وهو يمد بصره الى الطريق خلل الزجاج :

ـ انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين !

فقال كمال فى دهشة لم يستطع اخفاءها :

ـ أتعنى . . . !

ولم يتم كلامه . غلبته المفاجأة . هل عادت عايدة الى العباسية مرة أخرى ؟. امرأة مطلقة ؟!. فليؤجل التفكير فى هذا كله الى حين . وقال بهدوء :

ـ كان سفره الى ايران آخر ما حدثنى اسماعيل لطيف عنه !

فقال حسين بكآبة :

ـ لم تمكث أختى معه فى هـذه الرحلة الا شهرا واحدا ، ثم عادت بمفردها . . (ثم بصوت منخفض) رحمها الله !

ـ هه ؟!.

ندت عن كمال فى صوت ترامى الى الموائد القريبة من حولهم ، فنظر اليه حسين كالداهش وقال :

ـ لم تكن تدرى ! ، لقد ماتت منذ عام !

ـ عايدة ؟ !

فهز الآخر رأسه بالايجاب . وفى نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجردا بصوت مسموع . ولكنه لم يقف عند هذا الا أقل من لحظة . وبدت الألفاظ جميعا وكأن لا معنى لها . وشعر بدوامة الفناء تدور برأسه . وكان ما به دهشة وارتياع ، لا حزن ولا ألم ، وتكلم أخيرا فقال :

ـ يا له من خبر محزن ، البقية فى حياتك !

فقال حسين :

ـ عادت من ايران وحيدة ، ومكثت معامى شهرا ، ثم تزوجت من أنور بك زكى كبير مفتشى اللغة الانجليزية ولكنها لم تعاشره الا شهرين ، ثم مرضت ، ثم توفيت فى المستشفى القبطى . .

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث فى سرعتها الجنونية !.

ولكنه يقول انور بك زكى . وهو المراقب الأعلى لهيئته التعليمية . ولعله تشرف بمقابلته مرات وهو زوج لعايدة . رباه .. انه ليذكر الآن انه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هى عايدة ؟ ! . ولكن كيف لم يلتق بحسين ؟ !

ـ هل حضرت وفاتها ؟

ـ كلا ، توفيت قبل عودتى الى مصر ..

فقال وهو يهز رأسه تعجبا :

ـ لقد سرت فى جنازتها وأنا لا أدرى أنها أختك !

ـ كيف ؟

ـ علمت فى المدرسة ذلك اليوم بأن حرم كبير المفتشين قد توفيت وأن الجنازة ستشيع من ميدان الاسماعيلية ، فذهبت مع زملائى المدرسين دون أن أطلع على النعى فى الصحف ، وسرنا بين المشيعين حتى جامع چركس ، كان ذلك منذ عام ..

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول :

ـ سعيكم مشكور ..

لو وقعت هـذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن أو انتحر ، اليوم تمر به كخبر من الأخبار ، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدرى ، وكان وقتذاك ما يزال أسيرا لمرارة التجربة التى تخلفت عن زواج بدور فلعل صاحبة النعش طافت برأسه فيما طاف به من خواطر بدور وأسرتها ، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدم من أنور بك زكى معزيا ثم جلس بين المشيعين ، وحين قالوا قياما لقد حضر النعش فمد عينيه فرأى نعشا جميلا مكللا بالحرير الأبيض حتى تهامس بعض زملائه انها عروس .. الزوجة الثانية للمفتش .. وقد ذهبت ضحية للالتهاب الرئوى ، وودع النعش وهو لا يدرى أنه يودع ماضيه ، ومن كان زوجها ؟ ، رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضى به ملاك الزمان الخالى ؟ ، وكنت تظنها

فوق الزواج فاذا هي تعنو للطلاق ثم تقنع بنصيب الزوجة الثانية!، وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هـذا الصـدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الذهول والدهشة ، ومن خلو العالم من مباهج الأحلام ، ومن ضياع سر الماضي الساحر الى الأبد ، وان كان ثمة حزن فعلى انك لم تحزن كما كان يجدر بك ! .

ـ لكن ماذا غير حسن سليم ؟

فهز حسين راسه بازدراء وقال :

ـ عشق الوغد موظفة بمفوضـية بلچيكا بايران فغضـبت المرحومة لكرامتها وطالبته بالانفصال . .

« مما يعزى المرء في مثل هذا الموقف أن بديهيات اقليدس لم تعد بالبديهيات المطلقة ! » .

ـ وأولادها ؟

ـ عند جدتهم لأبيهم .

وهي أين هي ؟ ، وماذا جد عليها في هذا العام ؟ ، وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيد أحمد عبد الجواد أو نعيمة ؟ .

واذا بحسين شداد ينهض وهو يقول :

ـ آن لي أن أذهب ، دعني أراك ، اني أتناول عشائي عادة في رتز .

فنهض بدوره ، وتصافحا وهو يتمتم :

ـ ان شاء الله . .

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنه لن يراه مرة أخرى ، وبأنه ليس به حاجة الى معاودة رؤيته ، كما ليس بالآخر حاجة الى ذلك . وغادر المشرب وهو يقول لنفسه « اني حزين يا عايدة لأني لم أحزن عليك كما كان يجدر بي . . »

٥٢

فى سكون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب بيت آل شوكت بالسكرية ، ثم تتابع الطرق حتى استيقظ النائمون . وما أن فتحت خادم الباب حتى تدافعت الى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع ، انتشرت فى الفناء والسلم وأطبقت على الشقق الثلاث . وخرج ابراهيم شوكت الى الصالة مثقل الرأس بالنوم متعبا بالكبر فرأى ضابطا كبيرا يتوسط مجموعة من الجنود والمخبرين ، فدهش الرجل وتساءل منزعجا :

ــ ماذا هنالك كفى الله الشر ؟ !

فسأله الضابط الكبير بخشونة :

ــ ألست والد أحمد ابراهيم وعبد المنعم ابراهيم المقيمين فى هذا البيت ؟

فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه :

ــ بلى . . .

ــ عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه . .

ــ لماذا يا حضرة المأمور ؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه آمرا :

ــ فتشوا . . . .

واندفع الرجال الى الحجرات صادعين بالأمر على حين تساءل ابراهيم شوكت :

ــ لماذا تفتشون شقتى ؟

ولكن المأمور تجاهله . وعند ذاك اضطرت خديجة الى مغادرة

حجرة النوم ـ التى اقتحمها المخبرون ـ متلفعة بشـال أسـود وهى تهتف غاضبة :

ـ أليس للنساء حرمة !، هل نحن لصوص ياحضرة المأمور !.

كانت تحدق فى وجهه غاضبة ، واذا بها تشعر بغتة بأنها رأت هذا الوجه من قبل ، أو بمعنى أصح أنها رأت صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدم السن ، متى وأين ؟ ، رباه انه هو دون ريب ، لم يكد يتغير كثيرا ، واسمه ؟ ، وقالت دون تردد :

ـ حضرتك كنت ضابطا بقسم الجمالية منذ عشرين عاما ، بل منذ ثلاثين عاما لا أذكر الزمن بالضبط . .

فرفع المأمور اليها عينين متسائلتين ، وردد ابراهيم شوكت ناظريه بينهما متسائلا كذلك ، واذا بها تقول :

ـ اسمك حسن ابراهيم ، أليس كذلك ؟

ـ حضرتك تعرفيننى ؟

فقالت برجاء :

ـ أنا بنت السيد أحمد عبد الجواد وأخت فهمى أحمد الذى قتله الانجليز أيام الثورة ، ألا تذكره ؟

فلاحت الدهشة فى عينى المأمور وتمتم بصوت مهذب لأول مرة :

ـ رحمه الله رحمة واسعة . .

فقالت برجاء أشد :

ـ أنا أخته فهل ترضى لبيتى هذه البهدلة ؟

فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر :

ـ اننا ننفذ الأوامر يا هانم !

ـ ولكن لماذا يا حضرة المأمور ، نحن أناس طيبون !

فقال المأمور برقة :

ـ نعم ، ولكن ليس كذلك نجلاك . .

فهتفت خديجة باضطراب :

ـ انهما ابنا أخت صديقك القديم !

فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما :

ـ اننا ننفذ أوامر الداخلية .

ـ لم يفعلا شيئا ضارا ، انهما ولدان طيبان وأقسم لك على ذلك . .

وعاد الجنود والمخبرون الى الصالة دون أن يعثروا على شيء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقة ، ثم التفت آلى الزوجين الماثلين أمامه وقال :

ـ ابلغنا عن اجتماعات مريبة تعقد فى شقتيهما . .

ـ هذا كذب يا حضرة المأمور !

ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك ، لكننى مضطر الآن الى القبض عليهما وسوف يبقيان حتى يتم التحقيق معهما ، ولعل العاقبة أن تكون سليمة .

هتفت خديجة بصوت متهدج وشى بدموعها :

ـ أتسوقهما حقا الى القسم ؟ ، هذا . . . ، لا أتصور . . . ، اعف عنهما وحياة أولادك !

ـ ليس بوسعى ذلك ، لدى أوامر صريحة بالقبض عليهما ، طاب مساؤكما !

وغادر الرجل الشقة . وما لبثت أن غادرتهـا خديجة وفى أعقابها الرجل العجوز ونزلا السلم لا يلويان على شيء . ورأتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها فى حال شديدة من الفزع فهتفت :

ـ اخذوه يا عمتى ، أخذوه الى السجن . .

فألقت خديجة على الشقة نظرة متحجرة ، ونزلت مسرعة الى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن على باب شقتها كذلك تتطلع الى الفناء بوجه كالح ، فنظرت حيث تنظر فرأت القوة تحيط بعبد المنعم وأحمد ، متجهة بهما الى الخارج ، فلم تتمالك أن تصرخ

من أعماق قلبها وهمت بالانطلاق فى أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن . فالتفتت نحوها هائجة ، غير أن سوسن قالت لها بصوت هادىء حزين :

ـــ هدئى روعــك ، لم يعثروا على شىء مريب ، ولن يثبت ضدهما شىء ، لا تجرى وراءهم حفظا لكرامة عبد المنعم وأحمد . .

فصاحت بهــا :

ـــ هذا الهدوء تحسدين عليه !

فقالت سوسن برقة وصبر :

ـــ سيعودان الى بيتهما بخير ، اطمئنى . .

فتساءلت بحدة :

ـــ من أدراك ؟

ـــ انى واثقة مما أقول . .

فلم تكترث لقولها والتفتت نحو زوجها ثم ضربت كفا بكف وهى تقول :

ـــ انعدم الوفاء ، أقول له انهما ابنا أخت فهمى فيقول لى عندى أوامر ، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأرذال !

واتجهت سوسن نحو ابراهيم وقالت :

ـــ سيفتشون بيت الجماعة فى بين القصرين ! ، سمعت مخبرا يقول للمأمور انه يعرف بيت جدهما فى بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذا للأوامر وعلى سبيل الحيطة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات !

فصاحت خديجة :

ـــ انى ذاهبة الى أمى ، لعل كمال يستطيع شيئا ، آه يا ربى انى أحترق . .

وجاءت بمعطفهــا وغادرت السكرية فى خطوات متــلاحقة مضطربة . كان الجو باردا والظلام ما يزال كثيفا ، وكانت الديكة

تصيح فى تجاوب متواصل . انطلقت من الغورية مخترقة الصاغة الى النحاسين . ووجدت عنـد باب البيت مخبرا ، ووجدت فى الفناء مخبرا آخر ، ثم صعدت السلم وهى تلهث ..

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس ، ثم جاءتهم أم حنفى وهى تقول فى ذعر : « بوليس » ، وهرع كمال الى الحوش حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعجا :

ـ أفندم ؟

فسأله المأمور :

ـ أتعرف عبد المنعم ابراهيم وأحمد ابراهيم ؟

ـ أنا خالهما !

ـ صناعتك ؟

ـ مدرس بمدرسة السلحدار .

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت !

ـ ولكن لماذا ؟ ، أى تهمة توجهها الى ؟

ـ اننا نفتش عن منشورات تخص الشابين لعلهما أخفياها هنـا .

ـ أؤكد لحضرتك أنه ليس فى بيتنا منشورات ، تفضل فتش كما تشـاء ..

ولاحظ كمال أنه أمر القوة باحتلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده . وما كان تفتيشا يقلب البيت رأسا على عقب ولكن المأمور اكتفى بتفقد الحجرات والقاء نظرات سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاسترد أنفاسه ، واستطاع أن يسأله وقد آنس اليه :

ـ فتشتم بيتهما ؟

ـ طبعا ...

ثم بعد لحظة قصيرة :

ـ انهما الآن فى سجن القسم !

فسأله كمال فى انزعاج :

ـ هل ثبت عليهما شىء ؟

فأجاب الرجل برقة غير معهودة فى أمثاله :

ـ ارجو ألا يصل الأمر الى هذا الحد ، غير أن التحقيق متروك للنيابة .

ـ أشكر لك جميل عواطفك !

فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم :

ـ ولا تنس أننى لم أبهدل البيت !

ـ نعم يا سيدى ، انى لا أدرى كيف أشكرك !

واذا به يلتفت نحوه متسائلا :

ـ حضرتك أخو المرحوم فهمى ؟

فاتسعت عينا كمال دهشة وقال :

ـ نعم ، أكنت تعرفه ؟

ـ كنا أصدقاء ، رحمه الله ...

فقال كمال برجاء :

ـ مصادفة سعيدة .. (وهو يمد له يده) .. كمال أحمد عبد الجواد .

فصافحه الرجل قائلا :

ـ حسن ابراهيم مأمور قسم الجمالية ! . بدأت فيه ملازما وعدت اليه فى آخر المطاف مأمورا ...

ثم وهو يهز رأسه :

ـ كانت الأوامر صريحة ، أرجو ألا يثبت عليهما ما يدينهما ..

وهنا ترامى اليهما صوت خديجة وهى تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكى فقال :

ــ هذه أمهما ، عرفتنى بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتنى بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع ، طمئنها ما أمكنك ..

ثم نزلا معـا جنبا الى جنب ، وعند مرورهما بالدور الثانى مرقت عائشة من الباب فى حدة بادية وحدجت المأمور بنظـرة قاسية وصاحت به :

ــ لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب ؟ . ألا تسـمع بكاء أمهما ؟ .

فانحرف بصر المأمور اليها كرد فعل للمفاجأة ثم غض بصره تأدبا وهو يقول :

ــ سيطلق سراحهما عما قريب ان شاء الله ..

ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثانى :

ــ والدتك ؟ .

فابتسم كمال ابتسامة حزينة وقال :

ــ بل شقيقتى ! . لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطمها ..

والتفت المأمور اليه كالداهش ، وخيل اليه بأنه هم أن يطرح سؤالا ولكنه تردد لحظة ثم عـدل عما كان هم به ، وتصافحا فى الفناء ، وقبل أن يمضى الرجل الى سبيله سأله كمال :

ــ أمن المستطاع أن أزورهما فى السجن ؟ .

ــ نعم ....

ــ شكرا ...

وعاد كمال الى الصالة فانضم الى أمه وشقيقتيه وهو يقول :

ــ سأزورهما غدا ، لا داعى للخوف ، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما ...

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة فى نرفزة :

ــ لا تبك ، كفانا بكاء ، سيعودان اليك ألا تسمعين ؟ .

فولولت خديجة قائلة :

ـ لا أدرى ، لا أدرى ، فى السجن يا ولداه ! .

وكانت أمينة صامتة كأن الحزن أخرسها ، فقال كمال فى لهجة توحى بالطمأنينة :

ـ المأمور يعرفنا ، كان صديق المرحوم فهمى ، وقد تلطف بنا فى التفتيش لدرجة لا تصدق ، ولا شك أنه سيرعاهما بعطفه ! .

فرفعت الأم رأسها كالمتسائلة فقالت خديجة فى حنق :

ـ حسن ابراهيم ، الا تذكرينه يا أمى ؟ . وقد أخبرته بأننى أخت فهمى فما كان منه الا أن قال : اننا ننفذ الأوامر يا هانم ! ، أوامر فى عينه . . ! . .

واتجهت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها أنها ذكرت شيئا . .

ثم انتحت أمينة بكمال جانبا وراحت تقول له فى قلق بالغ :

ـ لم أفهم شيئا يا ابنى ، لماذا قبض عليهما ؟ .

فتفكر كمال فيما ينبغى قوله ، ثم قال :

ـ الحكومة تظن خطأ أنهما يعملان ضدها ! .

فهزت رأسها فى حيرة وقالت :

ـ أختك تقول أنهم قبضوا على عبد المنعم لأنه من الاخوان المسلمين ، لماذا يقبضون على المسلمين ؟ .

ـ الحكومة تظنهم يعملون ضدها . .

ـ وأحمد ؟ ! . قالت انه . . ، نسيت الكلمة يا ابنى ! ؟ .

ـ شيوعى ؟ . الشيوعيون كالاخوان فى ظن الحكومة ! .

ـ الشيوعيون ؟ ! . أشياع سيدنا على ؟ .

فدارى كمال ابتسامة وقال :

ـ الشيوعيون لا الشيعة ، هم حزب ضد الحكومة والانجليز ! .

فتنهدت المرأة فى حيرة وقالت :

ـ متى يفرج عنهما ؟ . انظر الى أختك المسكينة ! . الحكومة والانجليز . ألم يجدوا الا بيتنا المصاب ؟ ! .

٥٣

كان أذان الفجر يسرى فى الصمت الشامل حين استدعى مأمور قسم الجمالية عبد المنعم وأحمد الى حجرته . ومثلا أمام مكتبه يسوقهما جندى مسلح ، فأمره المأمور بالانصراف ، ومضى يتفحصهما باهتمام ، ثم نظر الى عبد المنعم وسأله :

ـ اسمك وسنك وصناعتك ؟ .

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات :

ـ عبد المنعم ابراهيم شوكت ، خمسة وعشرون عاما ، محقق بادارة التحقيقات بوزارة المعارف .

ـ كيف تخرق قوانين الدولة وأنت من رجال القانون ؟ ! .

ـ لم أخرق قانونا ، ونحن نعمل جهارا فنكتب فى الصحف ونخطب فى المساجد ، ان الذين يدعون لله لا يجدون ما يخفونه . .

ـ ألم تحدث فى بيتك اجتماعات مريبة ؟ .

ـ كلا ، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين الأصدقاء لتبادل الرأى والمشورة والتفقه فى الدين . .

ـ وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة ؟ .

ـ أتعنى بريطانيا يا سيدى ؟ . انها عدو غادر ، الدولة التى تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة . .

ــ انك رجل مثقف ، وكان ينبغى أن تدرك أن للحرب ظروفا تبيح المحظورات ! .

ــ انى أدرك أن بريطانيا هى عدونا الأول فى هذا الوجود ! .

والتفت المأمور الى أحمد متسائلا :

ــ وأنت ؟ .

فأجاب أحمد وعلى شفتيه شبه ابتسامة :

ــ أحمد ابراهيم شوكت ، أربعة وعشرون عاما ، محرر بمجلة الانسان الجديد . . .

ــ هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة ، فضلا عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة السمعة . .

ــ مقالاتى لا تعدو الدفاع عن مبادىء العدالة الاجتماعية . .

ــ شيوعى حضرتك ؟ .

ــ انى اشتراكى ، وكثير من النواب يدعون الى الاشتراكية ، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعى على رأيه ما دام لا يلجأ الى أساليب العنف . .

ــ أكان ينبغى أن ننتظر حتى تتمخض الاجتماعات التى تعقد كل مساء فى شقتك عن العنف ؟ .

وتساءل فى نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلية ؟ ! . وأجاب :

ــ انى لا أجتمع فى بيتى الا بالأصدقاء المقربين ، ولم يزد عدد زوارى يوما عن أربعة أو خمسة ، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف . . .

وردد المأمور نظره بينهما ثم قال بعد تردد :

ــ انكما مثقفان و . . مهذبان ، ومتزوجان أليس كذلك ؟ . حسن . أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنبا نفسيكما الهلاك ؟ . .

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

ـ انى اشكر لك نصيحتك التى لن أعمل بها ..

فندت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه ، ثم قال :

ـ علمت فى أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم احمد عبد الجواد ، وقد كان خالكما المرحوم فهمى صديقا حميما لى ، وأظنكما تعلمان أنه فقد حياته فى ربيع العمر على حين أن زملاءه ظلوا على قيد الحياة حتى تبوأوا أكبر المناصب ...

فقال أحمد وقد أدرك السر فى لطف المأمور الذى حيره :

ـ دعنى أسألك يا سيدى عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالى وأمثاله ؟! .

فهز الرجل رأسه وقال :

ـ فكرا فى نصيحتى بعقل وروية ودعكما من هذه الفلسفة المهلكة ! .

ثم وهو يقف :

ـ ستبقيان ضيفين فى سجننا حتى تدعوا الى التحقيق ، أرجو لكما حظا سعيدا ...

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونباشى وجنديان مسلحان ، ومضوا جميعا الى الدور الأرضى ، ثم عرجوا الى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلا حتى استقبلهم السجان بكشافه الكهربائى كأنما ليدلهم على باب السجن . وفتح الرجل الباب وأدخلهما ، ثم صوب ضوءه الى الداخل ليهتديا به الى برشيهما . وأضاء الكشاف المكان فبدا متوسط المساحة عالى السقف ، ذا نافذة صغيرة فى أعلى جداره تعترضها القضبان الحديدية . وكان عامرا بالضيوف ، فيهم شابان فى هيئة الطلبة ، وثلاثة رجال حفاة مجفوى المنظر شائهى الخلقة . وما لبث أن أغلق الباب وساد

الظلام ، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين ، وقال أحمد لأخيه همسا :

ـ لن أجلس والا قتلتنى الرطوبة ، فلننتظر الصبح واقفين ..

ـ سنضطر الى الجلوس عاجلا أو آجلا ، أعلمت متى نبرح هذا السجن ؟ .

واذا بصوت ـ أدركا بالبداهة أنه لأحد الشابين ـ يقول :

ـ لا بد من الجلوس ، ليس هو بالشيء السار ولكنه أخف من الوقوف أياما ...

ـ هل مكثتما طويلا ؟ .

ـ منذ ثلاثة أيام ! .

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل :

ـ لماذا قبض عليكما ؟ .

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلا :

ـ أسباب سياسية فيما يبدو ...

فقال الصوت ضاحكا :

ـ صارت الأغلبية أخيرا للسياسيين فى هذا السجن ، كنا قبل تشريفكما أقلية ...

فسأله احمد :

ـ وما تهمتكما ؟ .

ـ تكلما أنتما أولا ، فأنتما أحدث مقاما ! . وان يكن لا داعى للسؤال بعد أن رأينا لحية احدكما الاخوانية ؟ ! .

فسأله أحمد وهو يبتسم فى الظلام :

ـ وأنتما ؟ .

ـ كلانا طالب فى الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون ...

فثار أحمد وسأله :

ــ أضبطتما متلبسين ؟ .

ــ نعم . . .

ــ وماذا كان فى المنشورات ؟ .

ــ بيان بتوزيع الثروة الزراعية فى مصر . .

ــ هذا مما تنشره الصحف فى ظل الأحكام العرفية نفسها !

ــ يضاف اليه شوية توجيهات حماسية ! .

فابتسم أحمد مرة أخرى فى الظلام وقد تخفف من وحشته لأول مرة . وعاد صاحب الصوت يقول :

ــ اننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال . .

ــ ان الأمور تبشر بتغيير شامل . .

ــ لكننا سنظل الهدف فى جميع العهود . .

واذا بصوت غليظ يعلو فى خشونة قائلا :

ــ كفاكم كلاما ودعونا ننام . .

ولكن صوته أيقظ زميلا من زميليه فتثاءب متسائلا :

ــ طلع الصبح ؟ .

فأجابه الأول هازئا :

ــ كلا ، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم فى غرزة . .

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه الا أحمد :

ــ أيزج بى الى هــذا المكان لا لسبب الا أننى أعبد الله ؟ ،

فهمس أحمد فى أذنه باسما :

ــ وما ذنبى أنا الذى لا أعبده ؟ ! .

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته . وراح أحمد يسأل نفسه عما دعا الى القبض على الآخرين ، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعربدة ؟ . طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطف فى حجــرة مكتبه الجميلة ، ها هو الشعب يلعن أو يغط فى نومه . وهــذه

الوجوه الكالحة البائسة التى رآها على ضوء الكشاف لحظات ، وذاك الرجل الذى كان يحك رأسه وما تحت ابطيه فلعل قمله يزحف نحوهما دائبا ، هذا هو الشعب الذى تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملامسته ؟ ! . هذا الرجل المناط به خلاص الانسانية ينبغى أن يمسك عن شخيره وأن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض لانقاذ العالم جميعا ! . وقال لنفسه : « ان موقفنا انسانيا واحدا هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان المظلم الرطب ، الأخ والشيوعى والسكير والسارق على السواء ، كلنا واحد على تفاوت فى قوة المناعة ولو الحظ » . وحدث نفسه مرة أخرى فقال : لماذا لا تعنى بشئونك الخاصة ، هكذا يقول المأمور ، ولى زوجة محبوبة ورزق موفور ، والحق أن الانسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنه مقضى عليه بالمتاعب أو بالموت نفسه بما هو انسان . وسواء أقضى عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه فى أفق حياته . وعاد يتساءل : ماذا يدفعنى فى هذا السبيل الخطير الباهر ؟ . الا أنه الانسان الكامن فى أعماقى ، الانسان الواعى لذاته المدرك لموقفه الانسانى التاريخى العام ، وأن ميزة الانسان على سائر المخلوقات هى أنه يستطيع أن يقضى على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه ..

وشعر بالرطوبة تسرى فى ساقيه والاعياء يتخلل مفاصله ، وكان الشخير يتردد فى الأركان بايقاع موصول ، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة ..

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجما ، ثم لحق به فى الصالة وحدجه بعينين متسائلتين ، فقال الطبيب بهدوء :

ـ يؤسفنى أن أخبرك بأنها حالة شلل كلى ..

فانقبض صدر كمال انقباضا شديدا وسأله :

ـ حالة خطرة ؟.

ـ طبعا !. وقد أصيبت فى الوقت نفسه بالتهاب رئوى ، ولذلك فالحقن ضرورية لاراحتها ..

ـ أليس هنالك أمل فى الشفاء ؟.

فصمت الطبيب قليلا ثم قال :

ـ الأعمار بيد الله ، أما الطبيب فيقرر فى حدوده أن هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام ..

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد ، وأوصل الطبيب الى الباب الخارجى ثم عاد الى الحجرة . وكانت الأم نائمة ، أو كالنائمة ، لا يبدو من الغطاء الكثيف الا وجهها الشاحب وفوها المطبق فى شىء من الاعوجاج . وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه متسائلة :

ـ ما لها يا أخى ؟. ماذا قال الطبيب ؟.

وقالت أم حنفى من موقفها عند مقدم الفراش :

ـ انها لا تتكلم يا سيدى ، لم تتكلم كلمة واحدة ..

وقال لنفسه : ولن يسمع لها صوت بعد الآن . ثم قال مجيبا أخته :

ـــ حالة ضغط مصحوبة باصابة برد خفيفة ، سوف تريحها الحقن !.

فقالت عائشة ، ولعلها كانت تخاطب نفسها :

ـــ انى خائفة ، واذا كانت سترقد هكذا طويلا فكيف تحتمل الحياة فى هذا البيت ؟.

فتحول عنها الى أم حنفي وسألها :

ـــ هل أخبرت الجماعة ؟.

ـــ نعم يا سيدى ، وستحضر ست خديجة وسى ياسين فى الحال ، ما لها يا سيدى ؟ . كانت فى الصباح فى تمام الصحة والعافية ..

كانت ! .. وهو يشهد بذلك ! . وقد مر بالصالة كعادته كل صباح قبل انطلاقه الى مدرسة السلحدار ، فتناول فنجان القهوة الذى قدمته له وهو يقول :

ـــ لا تغادرى البيت اليوم فالجو بارد جدا ..

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت :

ـــ وكيف يطيب لى اليوم دون زيارة سيدك ؟.

فقال محتجا :

ـــ افعلى ما يحلو لك ، أنت عنيدة يا أماه !.

فتمتمت :

ـــ ربك الحافظ .

ثم وهو يغادر المكان :

ـــ ربنا يسعد أيامك ...

كان هذا آخر عهده بيقظتها . وقد جاءه نبأ مرضها ظهرا فى المدرسة فعاد مصطحبا الطبيب الذى نعاها اليه سلفا منذ دقائق. أجل لم يبق الا ثلاثة أيام !. ترى كم يوما تبقي له هو ؟. واقترب من عائشة وسألها :

ـ متى وكيف وقع لها ما وقع ؟.

فأجابت عنها أم حنفى قائلة :

ـ كنا جالستين فى الصـــالة ، ثم قامت متجهة نحو حجرتها لترتدى معطفها وتخرج وهى تقول لى « عندما أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة » ، وذهبت الى الحجرة ، وبعد دخولها مباشرة ترامى الى أذنى صـــوت وقوع شيء فهرعت الى الداخل فوجدتها ملقاة على الأرض بين السرير والدولاب ، فجريت نحوها وأنا أنادى ست عائشة . .

وقالت عائشة :

ـ جئت مسرعة فوجـــدتها فى هـــذا المكان ، فحملناها الى السرير ، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبنى ، ولم تتكلم ، متى تتكلم يا أخى ؟.

فأجاب فى ضيق :

ـ عندما يشاء الله !.

وتراجع الى الكنبة ثم جلس ، ومضى ينظر فى حزن الى الوجه الشاحب الصامت . أجل لينظر اليه طويلا فعما قريب لن يكون له الى رؤيته سبيل . هذه الحجرة نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالى معالم البيت فى مجموعه ، ولن ينادى به أحد « أمى » . لم يكن يتصور أن موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله . ألم يألف الموت بعد ؟.. بلى ، ولديه من العمر والتجربة مايقيه الجزع ، ولكن لذمة الفراق الأبدى موجعة ، ولعله مما يلام عليه قلبه انه رغم ما كابد من ألم ما زال يتألم كالقلب الغض . وكم أحبته ، وكم أحبت الجمـــيع ، وكم أحبت كل شيء فى الوجـــود ، ولكن هـــذه السجايا الطيبة لا تعيها النفس الا عند الفراق . ففى هذه اللحظة الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وازمنة وحوادث يهتز الفؤاد لها من أعماقه ، وها هى يخالط نورها الظلام ، وتمتزج فيهـــا

زرقة الفجر بحديقة السطح ، ومجمرة مجلس القهوة بالأساطير ، وهديل الحمام بأغنيات حلوة ، وكان حبا رائعا أيها القلب الجاحد . ولعلك تقول غدا بحق ان الموت استأثر بأحب الناس اليك ، ولعل عينيك أن تدمعا حتى يزجرك المشيب . والنظر الى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكية طفلية والأجدر بك أن تنظر اليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هى الموت . ثم سائل نفسك الام تضيع حياتك هباء ؟. ان الأم تموت وقد صنعت بناء كاملا فماذا صنعت أنت ؟

***

واستيقظ على صوت أقدام ، واذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتتجه نحو الفراش وهى تنادى أمها وتسألهم عما حل بها . وتضاعف ألمه حتى خاف أن يخونه تجلده فغادر الحجرة الى الصالة ، وما لبث أن جاء ياسين وزنوبة ورضوان ، فصافحوه ، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل ، فذهبوا الى الحجرة ولبث وحيدا حتى عاد اليه ياسين وهو يسأله :

- ماذا قال لك الطبيب ؟.

فقال فى وجوم :

- شلل والتهاب رئوى ، سينتهى كل شىء فى ظرف ثلاثة أيام ...

فعض ياسين على شفته وقال بحزن :

- لا حول ولا قوة الا بالله ...

ثم جلس وهو يتمتم :

- مسكينة ، كان كل شىء مفاجئا !. الم تشك تعبا فى الأيام الأخيرة ؟.

ــ كلا ، انها لم تعتد الشكوى كما تعلم ، ولكنها كانت تبدو احيانا كالمتعبة . . . .

ــ ليتك عرضتها على الطبيب من قبل ؟.

ــ لم يكن أبغض الى نفسها من سيرة الطبيب !.

وانضم اليهما رضوان بعد حين فقال لكمال :

ــ ارى أن تنقل الى المستشفى يا عمى . .

فقال كمال وهو يهز رأسه فى حزن :

ــ لا داعى الى ذلك ، وسيرسل الصيدلى ممرضة يعرفها لتحقنها . .

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم . وعند ذاك ذكر كمال أمرا تقتضى المجاملة الا يهمله فسأل ياسين :

ــ كيف حال كريمة ؟. . .

ــ ستلد فى بحر هذا الأسبوع ، أو هذا ما تؤكده الحكيمة . .

فتمتم كمال :

ــ ربنا يأخذ بيدها . . .

فقال ياسين :

ــ سيخرج الوليد الى الدنيا وأبوه فى المعتقل . . .

ودق الجرس ، فكان القادم رياض قلدس ، وقد استقبله كمال ومضى به الى حجرة مكتبه . وفى الطريق الى الحجرة قال رياض :

ــ سألت عنك فى المدرسة فأخبرنى السكرتير بالخبر ، كيف حالها ؟.

ــ اصيبت بشلل واخبرنى الطبيب بأنها ستنتهى فى ظرف ثلاثة أيام . .

فوجم رياض وتساءل :

ــ أليس هنالك حيلة ما ؟.

فهز كمال راسه يائسا ، وقال :

ــ لعله من حسن الحظ أنها فى غيبوبة لا تدرى عما ينتظرها شيئا ..

ثم فى لهجة ساخرة وهما يجلسان :

ــ ولكن هل ندرى نحن عما ينتظرنا شيئا ؟.

وابتسم رياض دون أن ينبس ، فعاد الآخر يقول :

ــ كثيرون يرون أن من الحكمة أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الموت ، والحق أنه يجب أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الحياة ..

فقال رياض باسما :

ــ هذا أفضل فيما أرى ، كذلك فلنسأل أنفسنا عند الموت ــ أى موت ــ ماذا صنعنا بحياتنا ؟

ــ أما أنا فلم أصنع بحياتى شيئا ، هذا ما كنت أفكر فيه ..

ــ بيد أنك ما زلت فى منتصف الطريق ..

ربما نعم ، وربما لا ، غير انه من المستحسن دائما أن يتأمل الانسان ما يراود نفسه من أحلام ، على ذلك فالتصوف هروب ، كما أ الايمان السلبى بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ، ولا بد للعمل من ايمان ، والمسألة هى كيف نخلق لأنفسنا ايمانا جديرا بالحياة . قال :

ــ حسبتنى قد أديت للحياة واجبها بالاخلاص لمهنتى كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفية ..

قال رياض بعطف :

ــ وقد اديت واجبا بلا شك !

ــ ولكننى عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن !

ــ خائن ؟!

فتنهد كمال وقال :

ـ دعنى أخبرك بما قال لى احمد ابن أختى عندما زرته فى سجن القسم قبل نقله الى المعتقل . .

ـ على فكرة ، أما من جديد عنهما ؟

ـ لقد رحلا مع كثيرين الى معتقل الطور . .

فتساءل رياض باسما :

ـ الذى يعبد الله والذى لا يعبده ؟

ـ يجب أن تعبد الحكومة أولا كى تعيش مطمئنا . .

ـ على أى حال الاعتقال اخف فى نظرى من المحاكمة !

ـ هذا رأى ، ولكن متى تنكشف هـذه الغمة ؟ ، متى ترفع الأحكام العرفيـة ؟ ، متى يعود السلطان الى القـانون الطبيعى والدستور ! ، متى يعامل المصريون كالآدميين ؟!

فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج فى يسراه ، ثم قال بحزن :

ـ نعم متى ! ، ما علينا ، ماذا قال لك أحمد فى سجن القسم ؟

ـ نعم ، قال لى ان الحياة عمل وزواج وواجب انسانى عام ، وليست هـذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه ، أما الواجب الانسانى العام فهو الثورة الأبدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى . .

فتفكر رياض قليلا ثم قال :

ـ رأى جميل ، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات . .

ـ نعم ، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه ، عبد المنعم ، ولذلك فهمته على أنه دعوة الى الايمان أيا كان مشربه وأيا كانت غايته ، ولذلك فانى أعلل تعاستى بعذاب الضمير الخليق بكل خائن ، قد يبدو يسيرا أن تعيش فى قمقم أنانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك اذا كنت انسانا حقا . . .

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال :

ـ هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع !

فقال كمال فى حذر :

ـ لا تسخر منى ، ان مشكلة الايمان ما زالت قائمة بدون حل ، وغاية ما أستطيع أن أعزى به نفسى هو أن المعركة لم تنته ، ولن تنتهى ولو لم يبق من عمرى الا ثلاثة أيام كأمى ..

ثم وهو يتنهد :

ـ أتعلم ماذا قال أيضا ؟ ، قال : انى أومن بالحياة وبالناس ، وأرى نفسى ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق اذ النكوص على ذلك جبن وهروب ، كما أرى نفسى ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل اذ النكوص عن ذلك خيانة ، وهذا هو معنى الثورة الأبدية !

وجعل رياض ينصت وهو يهز رأسه موافقا . ثم بدا على كمال الاعياء والضيق فقال رياض :

ـ أنا مضطر الى الذهاب فما رأيك فى أن تصحبنى الى محطة الترام لعل المشى يريح أعصابك ؟

ونهضا معا وغادرا الحجرة ، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول ـ وكان على معرفة سطحية برياض ـ فدعاه كمال الى مصاحبته . غير أنه استأذن منهما دقائق ريثما يلقى نظرة على أمه . ومضى الى حجرتها فوجدها كما تركها فى غيبوبة . وكانت خديجة جالسة فى الفراش عند قدميها وقد احمرت عيناها من البكاء ، وعلت وجهها الكآبة التى لم تفارقه منذ امتدت يد الحكومة الى ابنيها . أما زنوبة وعائشة وأم حنفى فقد جلسن على الكنبة صامتات ، وكانت عائشة تدخن سيجارة فى سرعة وقلق ، على حين راحت عيناها تجولان فى المكان فى اضطراب عصبى . وسألهن :

ـ كيف حالها ؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج :

ـ لا تريد أن تصحو !

وحانت منه التفاتة الى خديجة فتبادلا نظرة طويلة دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك الا أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه .

وساروا فى الطريق متمهلين ، فقطعوا الصاغة الى الغورية فى شبه صمت ، وعندما بلغوا عطفة الصنادقية صادفوا الشيخ متولى عبد الصمد ينحدر منها الى الغورية متوكئا على عصاه ، فى خطوات مخلخلة ، وقد كف بصره وارتعشت أطرافه ، وكان يتلفت فيما حوله متسائلا فى صوت مرتفع :

ـ من أين طريق الجنة ؟

فأجابه مار وهو يضحك :

ـ أول عطفة على يمينك ...

وقال ياسين لرياض قلدس :

ـ أتصدق ان هذا الرجل قد جاوز المائة بما يقرب من عشرة أعوام ؟...

فقال رياض باسما :

ـ انه لم يعد رجلا على أى حال ..

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولى بعطف . كان يذكر به أباه ، وكان يعده معلما من معالم الحى كالسبيل القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز ، ووجد كثيرين وهم يعطفون عليه غير أن العجوز لم يسلم من شقاوة بعض الغلمان الذين راحوا يصفرون فى وجهه او يتبعونه محاكين حركاته .

وأوصلا رياض حتى محطة الترام ، وانتظرا معه حتى ركب ، ثم عادا معا الى الغورية . وتوقف كمال عن السير فجأة وقال لأخيه :

ـ آن لك أن تذهب الى القهوة ..

فقال ياسين بحدة :

ـ كلا ، سأبقى معك ..

وكان كمال من أعرف الناس بمزاج أخيه ، فقال :

ـ لا داعى الى ذلك البتة ...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول :

ـ انها امى كما أنها أمك !

ودخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين ! . حقا انه يسير مكتظا بالحياة فى ضخامة الجمل ولكن الام يحتمل حياته المفعمة بالأهواء ؟ . وطفح فؤاده بالكآبة ، غير أن فكره طار فجأة الى الطور ، الى المعتقل . انى أومن بالحياة وبالناس ، هكذا قال ، وأرى نفسى ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب ، كما أرى نفسى ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل اذ النكوص عن ذلك خيانة !. وقد تسأل ما الحق وما الباطل ، ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والايمان السلبى بالعلم ، فهل تستطيع أن تكون مدرسا مثاليا وزوجا مثاليا وثائرا أبديا ؟!.

وعندما مرا بدكان الشرقاوى توقف ياسين وهو يقول :

ـ كلفتنى كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر، عن اذنك ...

ودخلا الدكان الصغير ، وراح ياسين ينتقى ما يريد من لوازم المولود المنتظر قماطا وطاقية ومنامة ، وعند ذلك تذكر كمال أن رباط عنقه الأسود الذى استعمله عاما حدادا على والده قد استهلك ، وانه يلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين ، فقال للرجل حين فرغ من ياسين :

ـ رباط عنق أسود من فضلك ..

وتناول كل لفافته ، وغادر الدكان ..

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة ،فمضيا جنبا الى جنب نحو البيت ...

مؤلفات الاستاذ نجيب محفوظ

مصر القديمة	مترجم عن الانجليزية		١٩٣٢
همس الجنون	(قصص قصيرة)	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	« «	١٩٦٣
رادوبيس	« «	« الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	« «	« الرابعة	١٩٦٢
القاهرة الجديدة		« «	١٩٦٢
خان الخليلى		« الخامسة	١٩٦٢
زقاق المدق		« «	١٩٦٣
السراب		« الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		« الخامسة	١٩٦٣
بين القصرين		« الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		« «	١٩٦٢
السكرية		« «	١٩٦٤
اللص والكلاب		« الثالثة	١٩٦٣
السمان والخريف		« الاولى	١٩٦٢
دنيا الله	قصص قصيرة	« «	١٩٦٣
الطريق	رواية	« «	١٩٦٤

تحت الطبع :

اولاد حارتنا	رواية
الشحاذ	«
بيت سيىء السمعة	مجموعة قصص



الثمن ٣٥ قرشا

دار مصر للطباعة